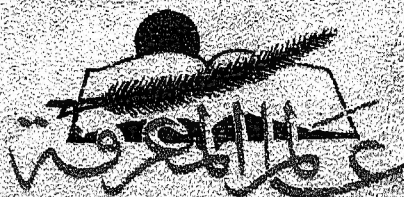


١٦٧



تاريخ الدراسات العربيّة في فرنسا

تأليف :
د. محمود المقداد

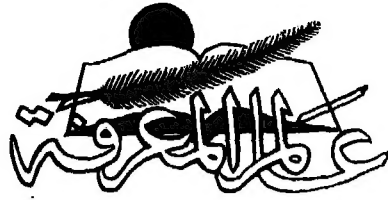
لغة شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت



Bibliotheca Alexandrina



0097037



سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

تاريخ الدراسات العربية في فرنسا

تأليف:
د. محمود المقداد

١٦٧ - جمادى الأولى ١٤١٣ هـ ، نوفمبر/ تشرين ثاني ١٩٩٢ م

مؤسسه السلسله
أحمد مشاري العدواني
١٩٩٠ - ١٩٩٢

المشرف العام :

د. فاروق العمر

نائب المشرف العام :

د. سليمان العسكري

هيئة التحرير :

د. فتواد زكريا المستشار

د. خليفة الوقيان

د. سليمان البدر

د. سليمان الشطي

د. سهام الفريح

عبد الرزاق البصير

د. عبدالرزاق العدواني

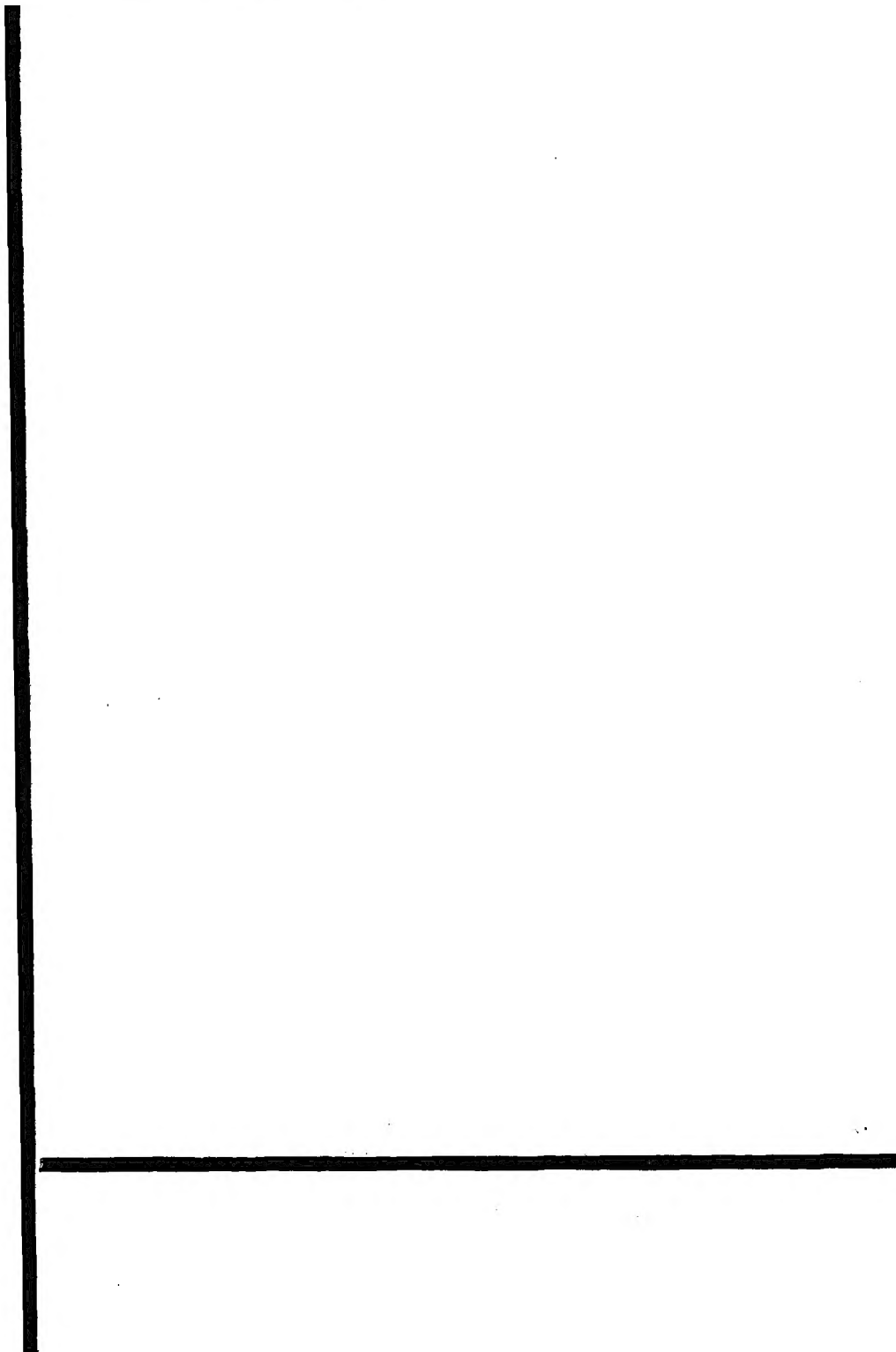
د. فهد الثاقب

د. محمد الرميحي

المراسلون :

توجه باسم السيد الأمين العام للبحاس الوطني للثقافة والفنون والآداب

فاكس : ٤٨٧٣٦٩٤ ص.ب ٢٢٩٩٦ - الصفاة / الكويت 13100



المواد المنشورة في هذه السلسلة تعبر عن رأي كاتبها
ولا تعتبر بالضرورة عن رأي المجلس

المحتوى

رقم
الصفحة

المدخل:	٧
الفصل الأول : الصلات بين الشرق العربي والغرب الأوربي	١٣
الفصل الثاني : المخطوطات العربية في فرنسا	٥٣
الفصل الثالث : تعليم العربية في فرنسا	٩٣
الفصل الرابع : أنواع الدراسات العربية في فرنسا	١٤٣
الفصل الخامس : أنشطة أخرى للمستعربين الفرنسيين	١٨٣
الفصل السادس : من أعلام الاستعراب الفرنسي	٢٢٣
مصادر البحث :	٢٧٧

المدخل

ظهر اهتمام شعوب العالم بالعرب منذ دخولهم القوي، في القرن السابع للميلاد، إلى مسرح التاريخ وصنع الأحداث وتغيير خريطة العالم القديم اللغوية والثقافية والدينية والعرقية. وكان ذلك كله بعد بزوغ الدعوة الإسلامية في مكة المكرمة، وتسجيلها الانتصارات من مدينة النبي (صلى الله عليه وسلم) المنورة داخل جزيرة العرب وعلى أطرافها، وتوحيدها العرب المشتتين لأول مرة في التاريخ، وانطلاقها المعروفة بهم في آفاق المعمورة شمالا وشرقا وغربا، فيما عرف بـ (الفتوح الإسلامية)، لينتشر اللسان العربي، لسان الوحي الإلهي المبين، في أرجاء واسعة تمتد امتداد سيادة الإسلام نفسه من أواسط الهند وتخوم الصين وهضاب تركستان شرقاً إلى شواطئ المحيط الأطلسي وتخوم فرنسا غرباً.

كانت ضخامة هذا «الحدث التاريخي»، أو لنقل: هذه «الظاهرة الفريدة» من الفتح التي عرفها التاريخ موضع دهشة المؤرخين وإعجابهم، نظراً لرسوخ قواعد هذه الظاهرة وثبات آثارها في كل أرض حلت فيها سيادة الإسلام فيما يسميه الفقهاء (ديار الإسلام).

وكان من أبرز هذه الآثار ذلك المزج العرقي واسع النطاق بين العرب والشعوب التي أفتُتحت بلدانها ودخلت في دين الله أفواجاً، وكان «الاستعراب» نتيجة طبيعية لتلك السيادة وذلك المزج والاستعراب المقصود هنا كان استعراباً لسانياً ودينياً وثقافياً شاملاً، وكان اندماجاً كلياً في بوتقة العروبة بمعناها الحضاري والثقافي الإنساني، لا بمعناها الإثنولوجي العرقي أو التعصبي البغيض الذي قد يذهب إليه بعض دعاة التعصب وأصحاب الأفق الضيق.

غير أن شعوب العالم التي لم تدخل يوماً في ظل سيادة الإسلام، ولا في نطاق

خلافته ، وكانت في الوقت نفسه تجاور (ديار الإسلام) وتقع على تخومها مباشرة ، شهدت حركة «استعراب» ولكن بمفهوم آخر غير المفهوم الذي رأيناه آنفاً ، ويمكننا أن نطلق عليه تسمية دقيقة لاثقة به تفسره وتبين حقيقته هي «استعراب الدراسة والاطلاع» وهو استعراب معرفي محض لم يكن يخالط عقيدة المستعرب ولا دمه ، ولا يحل محصولة الثقافي منه محل ثقافته ، ولا يزحزح اللسان العربي لسانه عن موضعه ، لأن المستعرب المدارس هنا لا يهتم بالاندماج في الوسط العربي أو الدخول في الإسلام ، وإنما يصب اهتماماته كافة ، بشكل أو بآخر ، على الإلمام باللسان العربي إلماماً متقناً ، أو إلماماً سطحيًا وضحلًا ، بحسب ما يتاح له من ظروف ، تمهيدا للاطلاع على تاريخ العرب ودينهم وآدابهم وفنونهم وعلومهم في مختلف البيئات والعصور ، أو باختصار: للاطلاع على (حضارة العرب) ، ومن ثم تعريف أبناء وطنه وجلدته ودينه بها بمختلف الطرق : كالدراسة والترجمة والتصوير والتحليل والتعليق والاقتراس والنقد والتأثر والتقليد ، وما قارب ذلك أو شابهه من طرق التوصيل والنقل المتبعة بين الشعوب والحضارات .

والغاية المنشودة من الاستعراب المعرفي هذا متعددة الوجوه والألوان : إذ قد تكون لخدمة غاية علمية وأدبية وفنية نبيلة ، وقد تكون لخدمة أغراض دفاعية محضة لحماية الذات من خطر متوهم من جيرانهم العرب ، وقد تكون لخدمة مصالح تجارية واقتصادية ذات نفع مشترك وعام بين الطرفين ، وقد تكون لخدمة أغراض سياسية أو عسكرية أو إعلامية أو تجسسية أو لخدمة حرب نفسية موجهة إلى العرب ، وخصوصاً في عصر ثورة الاتصالات وطوي المسافات المذهلة التي نعيش فيها اليوم .

وقد نشأت عن ذلك حركة واسعة - خصوصاً في الغرب الأوروبي الناهض والطامح إلى التوسع والسيطرة ، إثر سلسلة الحروب الصليبية Croisades وعصر النهضة Renaissance ، متعدياً حدود الدفاع عن النفس - أطلق عليها اسم (الاستشراق) Orientalisme الذي كان يعني : دراسة الشرق من جميع النواحي . وكان مفهوم (الشرق) ، في أذهان الأوروبيين ، ينصرف غالباً إلى الشرق العربي الذي كان يشمل فيما يشمل الشرق الإسلامي كذلك لأنه ينضوي تحت اسم الحضارة

العربية الإسلامية ويحمل طوابعها وخصائصها عموماً.

غير أن مصطلح الاستشراق هذا أصبح فضفاضاً نوعاً ما، بعد دخول أوروبا في العصر الحديث، إثر الكشف الجغرافية والثورة الصناعية، إذ استولى الأوروبيون، مدفوعين بالنزعة الاستعمارية Colonialisme، على بلدان وراء البلدان العربية والإسلامية، في كل من أفريقيا وآسيا، وأدخلوا دراساتٍ للغات وحضارات كثيرة (شملت الهند، والصين، واليابان، وأندونيسيا، الخ). وتوسع مفهوم الاستشراق بالتالي ليشمل لغات هذه البلدان وحضاراتها، مما دعا إلى نشأة مصطلح أضيق وأدق ضمن حركة الاستشراق الكبرى، وهو مصطلح (الاستعراب) Arabisation، ويطلق على الدارس في نطاقه اسم (مستعرب) Arabisant، أي من يهتم بدراسة اللسان العربي وحضارة العرب. ويطلق على جملة الدراسات التي يقوم بها جمهور الباحثين من المستعربين اسم (الدراسات العربية).

ونلفت الانتباه هنا إلى حقيقة مسلم بها لدى الباحثين في ميادين التواصل الحضاري بين الشعوب عبر التاريخ، هي أنه مامن شعب في العالم أجمع حاز اهتمام الشعوب الأخرى الفاعلة في الحضارة الإنسانية وتاريخها بقدر ما حاز العرب من اهتمام الباحثين والدراسين عند تلك الشعوب، والدليل على ذلك أنه لا تكاد مكتبة من مكتبات العالم تخلو من عدد قليل أو كثير من المخطوطات العربية القديمة، ولا تكاد جامعة من جامعاته تخلو من قسم للغة العربية وآدابها يخرج المستعربين لخدمة البلاد التي توجد فيها هذه الجامعة أو تلك. وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على مكانة العرب الحضارية في الماضي، وأهميتهم الاستراتيجية والثقافية والاقتصادية في الحاضر.

ويزعم هذا البحث أنه يلقي الأضواء على الدراسات العربية وحركة الاستعراب والمستعربين عموماً في فرنسا (بلاد الغال قديماً)، التي تعد إلى اليوم إحدى كبريات الدول الغربية الفاعلة في تاريخ حوض البحر الأبيض المتوسط وفي تاريخ أوروبا والعالم عموماً، ويرقى الاحتكاك والاتصال الأول بين العرب والفرنسيين (الغالين)

إلى سنة ١١٤ هـ / ٧٣٢م التي شهدت وقعة بواتيه Poitiers الشهيرة في قلب فرنسا قرب نهر اللوار، وهي الوقعة المعروفة عند المؤرخين العرب بوقعة (بلاط الشهداء)، التي قاد العرب المسلمين فيها الفاتح عبدالرحمن الغافقي، إكبالا لسلسلة فتوح المغرب والأندلس، وقاد جموع الغالين فيها الأمير شارل مارتل Charles Martel، الذي ممكّن من تأسيس مُلكٍ قوى مكافأة له على إيقاف زحف المد العربي الإسلامي في غربي أوروبا، وكان حفيده الإمبراطور شارلمان Charlemagne المشهور في التاريخ.

وكان لفرنسا دور فعال وأساسي في شن الحروب الصليبية المقدسة على البلاد العربية، وكان لها دور خطير في المسألة الشرقية الشهيرة، ودور كبير في الحركة الاستعمارية التي سيطرت على مجمل البلدان العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين. كما كانت باستمرار وراء دعم الصهيونية وقيام دولة إسرائيل في فلسطين ومدها بأسباب القوة والاستمرار، ويشهد على ذلك العدوان الثلاثي على مصر، وفي تأييدها سراً وعملانية إلى اليوم، على الرغم من تعدد الحكومات الفرنسية وتباين اتجاهاتها وسياساتها.

وقد تتبعت في هذا البحث جملة الصلات بين الغرب الأوروبي عامة وفرنسا خاصة وبين الشرق العربي، ثم تطرقت إلى اهتمام الفرنسيين بالمخطوطات العربية منذ أقدم فترة في ميدان هذا الاهتمام، ثم عرجت على دراسة تعليم اللغة العربية في معاهد فرنسا ومؤسساتها التعليمية والعلمية المختلفة، ثم قمت بدراسة أنواع الدراسات العربية التي اشتغل بها المستعربون الفرنسيون، ورصدت مجمل ما قاموا به من أنشطة في غير حقول المخطوطات والتعليم والتأليف، ووقفت في نهاية المطاف على تراجم لعدد من أبرز المستعربين الفرنسيين في القرنين الماضي والحاضر، أردتهم أن يكونوا ممثلين لمجالات عمل المستعربين الفرنسيين واهتماماتهم المختلفة.

وإنني لأرجو، أخيراً، أن أكون قد وفقت في تقديم لوحة متكاملة عن الدراسات العربية في فرنسا منذ أقدم فترة من تاريخها إلى اليوم، وأن أكون - في الوقت نفسه - قد

أعطيت حركة الاستعراب والمستعربين في فرنسا من الأحكام والآراء ما يكون فيه الحق
والانصاف لهم أو عليهم من غير تحن ولا إنكار. وأحمد الله تعالى على عونه لي في
إنجاز هذا العمل الذي آمل أن يسد ثغرة في مكتبتنا العربية بما يقدم للقارئ العربي
الكريم من متعة وفائدة. والله ولي التوفيق.

دمشق في يوم الخميس ٦ رجب سنة ١٤١٠هـ
الموافق لـ ١ شباط سنة ١٩٩٠م
د. محمود المقداد

الفصل الأول
الصلات بين الشرق العربي
والغرب الأوربي

إن قولنا (الشرق) و(الغرب) لا يعني أن هناك حداً فاصلاً بدقة يمكن أن نفصل به بين مجالين جغرافيين واضحين، وإنما هما مصطلحان جغرافيان سياسيان نشأ في الأوساط الاستعمارية الغربية منذ أن تمكن الغربيون من النهضة الصناعية المادية، وبعد أن انتشر الميل إلى الاستعمار في قلوب أصحاب رؤوس الأموال الصناعية والتجارية من ذوي السلطة والمصلحة في التوسع على حساب الشعوب الأخرى الضعيفة والمتخلفة صناعياً في العالم، فانطلقوا لذلك باحثين عن مصادر المواد الأولية الرخيصة لمصانعهم من جهة، وعن أسواق لترويج بضائعهم المنتجة في بلادهم وتصريفها من جهة أخرى، بالإضافة إلى بحثهم عن مناطق النفوذ والسيطرة لضمان كل ذلك.

وكانت المنافسة شديدة بين دول أوروبا، وعلى وجه الخصوص الغربية منها، وكان التسابق فيما بينها في المجال البحري قائماً على أوسع نطاق، ومن أبرز هذه الدول: إسبانيا، والبرتغال، وهولندا، وبلجيكا، وفرنسا، وبريطانيا. وكان اتجاه هذه الدول جميعاً منصبا بعد الكشوف الجغرافية في أواخر القرن الخامس عشر على العالم الجديد في غرب المحيط الأطلسي، ثم تحول النظر بعد ذلك سريعاً إلى الشرق الفسيح والمعمور المكتظ بالسكان أو الذي لا يزال بكرةً مجهول البقاع منه: إلى المناطق الشاسعة في أفريقيا وآسيا التي تتميز بالتخلف الاقتصادي والضعف العسكري، فأطلق هؤلاء الغزاة الغربيون من أصحاب الأساطيل البحرية القوية والجيوش الحربية الجرارة والسفن التجارية المشحونة بالبضائع، تسمية: الشرق Orient على هذه المناطق المنتشرة في القارتين.

وكانت البلاد العربية والإسلامية واقعة ضمن نطاق هذا التحديد الجغرافي المفهوم من مصطلح الشرق، ولم يدخل العالم الجديد بقارتيه العظيمتين في نطاق هذا المصطلح، ولكنه دخل شيئاً فشيئاً في نطاق مصطلح (الغرب) Occident الذي يشتمل على بلدان أوروبا، وخاصة بلدان النصف الغربي منها.

ولا نجد، في الواقع، دقة منطقية في مصطلحي (الشرق) و(الغرب) هذين، لأن

أفريقيا مثلاً تقع جغرافياً في جنوب ما يسمى بالغرب تقليدياً أي : أوروبا . ولم يكتف المستعمرون بكلمة الشرق على إطلاقها ، نظراً لاتساعه الجغرافي ، فقيدها بصفات تعطيها تحديدات غير صارمة مثل قولهم : الشرق الأقصى ، والشرق الأوسط ، والشرق الأدنى .

أما عن الصلات بين هذا الشرق وذاك الغرب فإنها لم تنقطع منذ أن قامت الحضارات القديمة العريقة في كلا المجالين الجغرافيين ، ومنذ أن عرف الإنسان في هذه الحضارات سبل النقل والاتصال البري والبحري وتأسيس دول شمولية متعددة الأجناس واللغات والعقائد عن طريق الغزو أو التجارة ، فوجد الفينيقيين والمصريين واليونانيين مثلاً يتبادلون المصالح التجارية والمؤثرات ، ويؤسسون المستعمرات التي كانت لها في البداية صبغة تجارية ، وربما اصطدموا في مواقع حرية لسبب أو لآخر ، في صلات عدائية ناجمة من المطامع والمنافسات .

ونجد اليونانيين ، بقيادة الإسكندر المقدوني ، يمدون سلطان دولتهم على الشرق إلى أن وصل إلى آسيا الصغرى والشام ومصر والعراق وفارس والهند ، وكان ذلك كله عن طريق الحروب المتصلة ، فأثر اليونانيون في هذا الشرق الذي سيطروا عليه وتأثروا به .

ونشأت بعد ذلك الإمبراطورية الرومانية التي انتشرت دولتها في معظم أنحاء أوروبا ، وخاصة غربيها ، وفي شمال أفريقيا ، وفي آسيا الصغرى والشام ومصر ، مما جعل البحر الأبيض المتوسط بحيرة رومانية خالصة زمناً غير قليل من التاريخ ، واثرة حضارة اليونان وممتلكاتها السابقة . وكانت هناك بلا ريب مصالح متبادلة في ميدان التجارة بين هذه الإمبراطورية وبين دول الشرق التي لم تسيطر عليه ، كما كانت بينها وبين تلك الدول علاقات سياسية أو احتكاكات حرية ساخنة كما هي الحال مع الفرس والعرب وقرطاجة زمن الحروب البونية المشهورة^(١) ، لأن قرطاجة كانت منافسة

(١) الحروب البونية les guerres puniques هي تلك الحروب التي وقعت بين روما وقرطاجة بين سنتي ٢٦٤ و ١٤٦ قبل الميلاد ، وأدت إلى دمار الدولة البونية (أي القرطاجية) : كانت الحرب البونية الأولى بين سنتي ٢٦٤ و ٢٤١ ق.م والثانية بين سنتي ٢١٨ و ٢٠١ ق.م والثالثة بين سنتي ١٤٩ و ١٤٦ ق.م .

لروما في شمال أفريقيا . وكانت الإمبراطورية الرومانية لذلك تؤثر في المناطق التي تسيطر عليها أو تجاورها وتتأثر بها على حد سواء . ومن تأثيرات الشرق العربي مثلا في الرومان أنهم حملوا منه بذور المسيحية ونشورها في كل أنحاء أوروبا بعد أن اتخذ امبراطورهم قسطنطين ^(١) هذه العقيدة دينا رسميا للدولة ، وذلك بعد قرابة ثلاثة قرون من ظهور السيد المسيح (عليه السلام) في فلسطين ، حتى أن عاصمتهم روما أصبحت عاصمة روحية لمذهب الكاثوليكية ، كما أصبحت العاصمة الثانية المنشقة عنها ، وهي بيزنطة ، التي عرفت بعد ذلك بالقسطنطينية نسبة إلى الإمبراطور قسطنطين ، عاصمة روحية للمذهب الأرثوذكسي .

ومنذ بداية العقد الثاني من القرن السابع الميلادي ، بدأت بالظهور على مسرح التاريخ في جزيرة العرب دولة عربية واحدة تدين بالإسلام عقيدة وتشريعا كانت تحمل في ذاتها طاقة حضارية إنسانية عظيمة بقيادة الرسول الأعظم (صلى الله عليه وسلم) ، ولم يمض ربع قرن على ظهور الإسلام حتى كانت جيوش الفتح الإسلامي تطرق أبواب العراق والشام ومصر مهددة بالزوال الجزئي أو الكلي لأعظم الدول المعاصرة لها ، ومنطلقة إلى ما وراءها من بلدان مبشرة بنشوء عصر جديد من النور والفتوح العقلي والحرية . وقد طرق الإسلام أبواب أوروبا من الشرق بمحاولته فتح القسطنطينية ، ومن الجنوب بفتحه لصقلية وجنوب إيطاليا ، ومن الغرب بفتح الأندلس والتوغل في بلاد الغال (فرنسا اليوم) حتى مدينة بواتييه ، بعد فتحه لشمال أفريقيا . ثم عاد الإسلام ليدق أبواب أوروبا الشرقية ثم الوسطى زمن السلطان محمد الفاتح وخلفائه الأقوياء .

ونتحدث ، هنا ، عن هذه الأفعال من قبل العرب المسلمين وما كان لأوروبا بعد

(١) قسطنطين : هو قسطنطين الكبير (٢٨٠ - ٣٣٧ م) ، كان إمبراطورا رومانيا ما بين سنتي ٣٠٦ و ٣٣٧ م ، وقد تمكن من توحيد الإمبراطورية تحت حكمه سنة ٣٢٤ م ، بعد صراع دام خمسة عشر عاما ، وكانت قد فقدت وحدتها سنة ٢٨٥ . وشهدت فترة التوحيد هذه دخول هذا الإمبراطور في المسيحية ، وإقامة الكنيسة ومنحها حقوقا شتى ، وكان قسطنطين يرى في هذه الكنيسة أبرز دعائم الدولة الموحدة ، وعد سلطته مستمدة من الله ، وقد أسس المدينة التي عرفت باسم (القسطنطينية) نسبة إليه سنة ٣٣٠ م ، في موقع ما كان يعرف بـ (بيزنطة) .

ذلك من ردود فعل عليها، لأن كل ذلك أسهم حقيقة في نسج خيوط العلاقات بين الشرق العربي والغرب الأوربي وأعطى هذا النسج ألوانه المختلفة والمتفاوتة على مر الزمان.

١ - الفتوح العربية في أوروبا :

تم في العقد الأخير من القرن الأول للهجرة فتح شبه جزيرة الأندلس على يد طارق بن زياد وموسى بن نصير، وانتقل همّ الفاتحين في أوائل القرن الثاني للهجرة إلى فتح بلاد الغال، فاجتازوا بجيوشهم جبال البيرينية الفاصلة بين بلاد الأندلس وبينها وتقدموا شمالاً إلى أن وصلوا إلى مدينة بواتيه التي جرت على مشارفها واقعة بلاط الشهداء سنة ٧٣٢م بقيادة عبدالرحمن الغافقي، وكان على رأس جيوش الفرنجة التي حشدت لمواجهتهم شارل مارتل جد الملك شارلمان، وكانت نتيجة المعركة مؤسفة، إذ توقفت بعدها حركة الفتح في هذه الجبهة ثم أخذت موجته تنحسر منذئذ إلى أن خرج العرب نهائياً من الأندلس نتيجة رد الفعل عبر قرون في سنة ١٤٩٢. وقد ذكر جرجي زيدان أنه لو فاز العرب في تلك المعركة «لانتشر الإسلام في فرنسا، ثم في سائر أوروبا. . ولانتشرت اللغة العربية في تلك القارة كما انتشرت في قارتي آسيا وأفريقيا وسائر العالم الإسلامي»^(١).

وقام الأغلبة في تونس بفتح جزيرة كورسيكا سنة ٨٠٩م، واستولوا من ثم على جزيرة سردينيا سنة ٨١٠م. ثم قام جماعة منفيين من الأندلس بالاستيلاء على جزيرة كريت. وقام الوزير الأغلبي القاضي أسد بن الفرات بقيادة أسطول عربي لفتح جزيرة صقلية، المنفذ الجنوبي لأوروبا الوسطى سنة ٨٢٧م، وتم فتح باليرمو فيها سنة ٨٣١م، واستقر العرب هناك، وكانت مدن إيطاليا المنقسمة فيما بينها تستعين أحياناً بالعرب ليحارب بعضها بعضاً، مما أتاح للعرب هناك التدخل في شؤون حكوماتها الداخلية، واستولوا على بعض أجزاء إيطاليا الساحلية، وامتدوا في بعض الأحيان إلى الداخل، حتى اضطروا البابا يوحنا الثامن سنة ٨٧٢م إلى أن يدفع الجزية لهم بعد

(١) انظر كتابه : تاريخ التمدن الإسلامي، ١/١٠٧.

أن هددوا مدينة روما نفسها . إلا أن تحالفا بين البابا ومدن إيطاليا المختلفة وإمبراطوري ألمانيا وبيزنطة أدى إلى إخراج العرب من إيطاليا إلى صقلية سنة ٩١٦ م، ثم استولى النورمنديون على صقلية نفسها في سنة ١٠٩١ م .

وكانت جزيرة صقلية هذه همزة الوصل التجارية بين شمال أفريقيا وأوربا، وكانت نقطة احتكاك حضاري على درجة عالية من الأهمية بين العرب والأوروبيين .

وكانت الأندلس نقطة أخرى للاحتكاك الحضاري بين العرب والأوروبيين، إذ كانت بمنزلة مركز إشعاع وتنوير لغربي أوربا الذي كان يستعمل اللغة اللاتينية آنذاك لغة للعلم والمعرفة . وقد أصبحت مدينة طليطلة، التي استولى عليها الأسبان سنة ١٠٨٥ م، مركزا هاما وحيويا لنقل العلوم وترجمة الفلسفة من العربية إلى اللاتينية، فصارت لذلك كعبة طلاب العلم من أنحاء أوربا الغربية والوسطى كافة . ومن كان لهم إسهام كبير في حركة النقل والترجمة هذه واشتهروا بها : المطران الفرنسي ريمون Raymond، والإيطالي جيراردو كريمون Gérard de Crémone الذي نقل وحده إلى اللاتينية أكثر من سبعين كتابا في شتى العلوم . كما كان هناك علماء آخرون، تعود انتهاءاتهم إلى بلدان أوروبية أخرى كالألمانيا وإنكلترا وغيرها، يعملون في ميدان الترجمة هذا، وقد أنجزوا كثيرا من الترجمات المفيدة، ولذا نجد مدينة طليطلة تشبه في مكانتها عند الأوروبيين مكانة بغداد في عهد ازدهارها العلمي إبان عصر المأمون خاصة، حين كانت مركزا لترجمة الآثار العلمية المحضنة المختلفة وغيرها من اليونانية والفارسية والسريانية وغيرها من اللغات الثقافية القديمة آنذاك إلى العربية^(١) . وظلت طليطلة قرابة أربعة قرون المركز الثقافي والديني الأول في شبه جزيرة الأندلس^(٢) .

وتم استيلاء الإسبان على الأندلس نهائيا بسقوط غرناطة نهائيا في يدهم سنة

(١) انظر Leclerc (L.), Histoire de la médecine arabe, 2ème éd, U.S.A., 1971, II, P. 345.

(٢) انظر مادة (طليطلة) في Tollie Encyclopédie du XXe siècle.

١٤٩٢م، وخرج العرب على أثر ذلك مضطرين منها إلى شمال أفريقيا والمشرق العربي، وظل من بقي منهم وهم قلة قليلة يعانون من آثار الاضطهاد والتعصب الديني الأعمى في ظل حكم إسباني غير متسامح، وتحولوا في نهاية الأمر إلى المسيحية بضغظ من محاكم التفتيش التي نصبت في كل مكان.

٢ - الحروب الصليبية وأثرها في أوروبا :

شجعت انتصارات الإسبان على العرب المسلمين في الأندلس، حين استولى الفونس السادس^(١) على طليطلة سنة ١٠٨٥م، وحين استولى النورمنديون على جزيرة صقلية سنة ١٠٩١م، على متابعة الحروب والحملات على ديار المسلمين في عقر دارهم، وبما زاد رغبة الأوربيين في ذلك انتصار السلاجقة سنة ١٠٧١م على البيزنطيين في موقعة ملاذكرد وتهديدهم القسطنطينية، مما دفع الإمبراطور ألكسيس الأول كومنينوس^(٢) إلى طلب النجدة من البابا أريانيوس الثاني^(٣)، فلقبي طلبه هذا

(١) ألفونس السادس : Alphonse VI عاش بين سنتي (١٠٤٠ - ١١٠٩م)، كان ملكا على ليون من سنة ١٠٦٥م، ثم استولى على قشتالة وغالبية، ثم التفت إلى طليطلة فانتزعها من يد العرب سنة ١٠٨٥م، واتخذها عاصمة للملكة.

(٢) الكسيس الأول كومنينوس : Alexis I Comnenus عاش بين سنتي (١٠٥٦ و ١١١٨م)، وهو إمبراطور على بيزنطة من سنة ١٠٨١م وكان مؤسس أسرة كومنينوس الحاكمة في الإمبراطورية البيزنطية.

(٣) البابا أريانيوس الثاني : Urbanus II عاش بين سنتي ١٠٤٢ و ١٠٩٩م، وتولى منصب البابوية بين سنتي ١٠٨٨ و ١٠٩٩. وقد تابع العمل الإصلاحية لأسلافه وحكم بالحرمان على هنري الرابع الألماني وفيليب الأول الفرنسي، وكان هو نفسه من أصل فرنسي، وأقدم، في مجمع كليرمون Clermont سنة ١٠٩٥، على اتخاذ إجراءات صارمة، إذ أعلن بدء الحرب الصليبية الأولى، بتوجيه نداء إلى الغرب حرضه فيه على نجدة الشرق المسيحي ضد الغزو التركي، فاستجاب له ألوف الرجال، لأن فكرة الفروسية آنذاك كانت تفرض على المحارب واجب الدفاع عن شعب الله ضد مضطهديه، وكانت الغاية المعلنة هي إنقاذ قبر المسيح وتأمين طريق الحج، واتخذت هذه الحرب الصليب شعارا لها، فنسبت إليه، وقد استغرقت جملة الحروب الصليبية ماينوف على قرنين من عمر الزمان، إذ بدأت سنة ١٠٩٥ انتهت سنة ١٢٩١. وكان عدد حملاتها تسعا كالتالي :

الأولى (١٠٩٥ - ١٠٩٩).

الثانية (١١٤٧ - ١١٤٩) وأخفقت أمام دمشق.

الثالثة (١١٨٩ - ١١٩٢) وكان سببها المباشر تحرير صلاح الدين مدينة القدس، بعد انتصاره =

هوى في نفس البابا الطموح إلى توحيد الكنيستين الغربية والشرقية بتقديم العون لبيزنطة، فدعا إلى عقد مجمع كليرمون برئاسة سنة ١٠٩٥م، وطلب إلى أحد الحجاج، الذين يدعون أن السلاجقة المسلمين قد آذوهم عندما كانوا يؤدون مناسك حجهم إلى الديار المقدسة، وكان يدعى بطرس الناسك، أن يتكلم في هذا المجمع، فقام وخطب فيه داعيا بحماسة إلى قيام حرب صليبية مقدسة لتخليص قبر السيد المسيح عليه السلام من أيدي المسلمين الكفرة على حد زعمه، فوافق المجمع على دعوته هذه، وصادف كل ذلك ميلا لدى نبلاء أوروبا الإقطاعيين الذين بطمعون في التوسع وكسب المغنم من بلاد المسلمين، فتحالفوا مع طبقة رجال الكنيسة في المصالح، وانضم إلى ركبهم طرف ثالث هو تجار الموانئ الأوربية على البحر الأبيض، وخاصة تجار الموانئ الإيطالية.

وتم بالفعل تحقيق ذلك بتسيير تسع حملات كانت تليي رغبتين أساسيتين: الأولى رغبة رجال الكنيسة من المتعصبين في تخليص بيت المقدس والأراضي المسيحية ذات القداسة من أيدي المسلمين وهيمنتهم. والثانية رغبة نبلاء أوروبا والمغامرين فيها والتجار في البحر عن الثروة والغنى والموارد والأسواق الجديدة التي تمددهم بالأموال والسلع.

= في وقعة حطين سنة ١١٨٧.
الرابعة (١٢٠٢ - ١٢٠٤) وكان هدفها مصر.
الخامسة (١٢١٧ - ١٢٢١) ضد مصر أيضا.
السادسة (١٢٢٨ - ١٢٢٩) وتمت إعادة السيطرة بها على القدس. إلى أن عادت إلى يد مصر سنة ١٢٤٤.
السابعة (١٢٤٨ - ١٢٥٤).
الثامنة (١٢٧٠) وكان هدفها تونس، ومات فيها لويس التاسع ملك فرنسا بالطاعون.
التاسعة والأخيرة في تلك السلسلة (١٢٩١) وقد أخفقت في انتزاع مدينة عكا من أيدي المسلمين.

ورأى المتبعين لتاريخ هذه الحملات أنها إذا ما كانت قد انتهت. من الوجهة العسكرية، إلى الاخفاق والخيبة، فقد كان لها أثر عميق في تطور العالم الأوربي، إذ عجلت تعجيلا غير مباشر تحرر المدن، وذلك باجبار السادة على بيع إقطاعهم للحصول على المبالغ اللازمة لتمويل هذه الحملات، وقد أتاحت كذلك معرفة فضل للعالم الآسيوي. وسهلت التبادلات التجارية، والفكرية، والفنية بين طرفي البحر الأبيض المتوسط.

مرت الفصيلة الأولى من الحملة الصليبية الأولى بالقسطنطينية، عاصمة البيزنطيين ومقر الكنيسة الشرقية، في طريقها إلى الديار المقدسة، فسلبتها ونهبها وخربتها وارتكبت المذابح والفواحش على اختلافها بحق أبناء دينهم أنفسهم، مبرهنين على الخلفية الحقيقية لحملاتهم كلها. وقد اتجهت هذه الحملة بعد ذلك شرقاً فأبادها السلاجقة إبادة كاملة. وأما الفصيلة الثانية من الحملة نفسها فقد تمكنت من الاستيلاء على مدينة القدس سنة ١٠٩٩ م.

وجاءت موقعة حطين سنة ١١٨٧ م حاسمة في تاريخ الحروب الصليبية تلك في المنطقة العربية، فقد دحر صلاح الدين الأيوبي فيها الصليبيين، وفتح القدس. وتوالى بعد ذلك الحملات الصليبية، إلا أنها كانت حملات واهنة ضعيفة، وكان سقوط عكا في يد الملك الأشرف ابن السلطان قلاوون نهاية مأسوية لمسرحية الحروب الصليبية في المشرق العربي كله، إذ أن الصليبيين عادوا إلى أوروبا يحملون معهم ذكريات مرة ودروسا صعبة من الشرق لأبناء جلدتهم وأخوانهم الأوروبيين. وقد ذكر الدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور في ذلك قائلا: «وهكذا دالت دولة الصليبيين في الشرق الأدنى، وظلت ذكريات الشام ومصر ولويس التاسع عالقة في أذهان الفرنسيين دون غيرهم، أو على الأقل أكثر من غيرهم من الشعوب الغربية التي أسهمت في الحركة الصليبية، ومن ذلك الوقت والفرنسيون يحرصون على بقاء صلتهم قوية بالشرق الأدنى والبلدان العربية - وبخاصة بلاد الشام - وينظرون إلى هذه المنطقة على أنها منطقة نفوذ لهم - على الأقل في المجال الحضاري - وذلك حتى كانت حملة نابليون على مصر والشام، فرأى الفرنسيون فيها إحياء لنفوذهم القديم في الشرق الأدنى على عصر الحروب الصليبية»^(١).

وكان من نتيجة هذه الحروب ازدياد معرفة الغرب الأوربي بالشرق العربي، إذ كانا قد ظلا في عزلة «حتى قامت الحروب الصليبية لتفتح عيون الغرب على الشرق، وتلقي ضوءاً ولو خافتاً على بعض البلدان الإسلامية وبخاصة مصر والشام، مما صار

(١) انظر كتابه : الحركة الصليبية، ص ١٢٦١.

له أبعد الأثر بالنسبة لتاريخ الشرق الأدنى فضلا عن مستقبل العلاقات بين الشرق والغرب»^(١).

ومن المسلم به لدى المؤرخين الغربيين أن فترة هذه الحروب قد رافقتها حركة تيقظ في أوروبا يدعوها بعضهم بـ (النهضة الأوربية في القرن الثاني عشر)، وهي نهضة مبكرة سبقت النهضة المشهورة بعد سقوط القسطنطينية بيد العثمانيين المسلمين، وكان لها أثر كبير في انتقال كثير من مظاهر الحضارة العربية الإسلامية إلى الغرب الأوربي في أكثر ميادين الحياة الاجتماعية والعمرانية والتنظيمية والعسكرية.

وقد لفتت هذه الحروب بعنف نظر الغربيين إلى الحضارة العربية وإلى الإسلام، ووجدوا تفاوتاً عظيماً بين وضعهم المتأخر وأوضاع المسلمين المتطورة والمتقدمة. وقد رافقت حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية هذه الفترة، فكان هنالك اتصال ساخن حربي في المشرق العربي، في حين أن المغرب العربي - والأندلس خاصة - شهد اتصالاً حريباً منقطعاً، مع سلام منقطع أيضاً عملت فيه مراكز الترجمة بنشاط كبير أفاد العقل الأوربي فوائد علمية جمة. وقد نقل بعض العائدين من المشرق العربي إلى أوروبا بعض المخطوطات العربية المتعلقة بالطب والفلسفة^(٢)، ومنهم من أتقن العربية في بلاد الشام. وامتد الاحتكاك بين الأوربيين الغزاة والعرب إلى ميدان الزواج والامتزاج العرقي، وليس بسيطاً البتة أن يدوم الاتصال بين هؤلاء الأوربيين والعرب أكثر من قرنين من عمر الزمان، من حدود سنة ١٠٩٥ م إلى سنة ١٢٩٠ م تقريباً، ومن غير أن يؤخذ العرب بجمال النساء الأوربيات القادسات مع أزواجهن أو المولدات على الأرض العربية نفسها في ظل الدول والممالك الصليبية التي أقاموها عليها.

٣ - النهضة الأوربية:

كان إحياء العلوم والآداب اليونانية والرومانية القديمة، وسقوط القسطنطينية

(١) م. ن.

(٢) ذكر أسامة بن منقذ في كتابه: الاعتبار، ص ٣٥ استيلاء الإفرنج على مكتبته المنقولة من مصر إلى الشام فقال: فهون علي سلامة أولادي وأولاد أخي وحرمتنا ذهاب ماذهب من المال، إلا ماذهب إلي من الكتب، فإنها كانت أربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة، فإن ذهابها حزازة في قلبي ما عشت.

بيد العثمانيين المسلمين، وتقلص سلطان الكنيسة، وظهور النزعات الفردية وحب المغامرة والحرية، والميل إلى الكشف الجغرافية، والحقائق العلمية الجديدة المذهلة، والإصلاحات الدينية المسيحية، واختراع الطباعة، وهجرة العلماء البيزنطيين مع مخطوطاتهم إلى إيطاليا خاصة، والتجارة مع الشرق، والحروب الصليبية، وحركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية، كل ذلك كان من أهم أسباب النهضة في أوروبا الغربية على وجه الخصوص. وكان التاريخ الفاصل بين عصر النهضة الأوروبية والعصر الذي يطلق عليه الأوربيون اسم (العصر الوسيط) هو سنة ١٤٥٣ التي شهدت سقوط القسطنطينية، عاصمة البيزنطيين على البر الأوربي المطل على مضيق البوسفور، بيد السلطان العثماني محمد الذي لقب أثر ذلك بـ (الفاتح). ونلاحظ أن الترجمات من العربية إلى اللاتينية، على وجه الإجمال، كانت تخدم حاجات عملية: كالعلوم الطبية، والصيدلة، وعلوم الطبيعة، والكيمياء، والفيزياء، والزراعة، والحيوان والبيطرة. أو كانت تخدم حاجات عقلية: كالفلسفة، والمنطق، والرياضيات، وغيرها. وهذا القانون المتحكم في حركة الترجمة من لغة متحضرة متطورة إلى لغة أخرى في طور النهوض والتفتح سائد في معظم حالات الاحتكاك بين حضارتين متفاوتتين في المستوى الحضاري، فالتناس يلجؤون عادة إلى ما يشتركون فيه جميعا، ويكون ذلك في الجوانب الموضوعية التي لا ترتبط بروح الجماعة أو عاطفتها ارتباطا كلياً، ولا تكون في الوقت نفسه تعبيراً عنها أو صورة لها. وعلى هذا الأساس، كانت هذه الترجمات تؤدي خدمات موضوعية للعلماء، وتسد ثغرات في صرح التفكير العلمي والعقلي الناشئ في أوروبا. وقد قام بهذه الترجمات عدد من كبار العلماء من أمثال ألبير الكبير الألماني (١٢٠٦ — ١٢٨٠م) أستاذ الفلسفة واللاهوت وأعظم علماء عصره في التاريخ الطبيعي، وروجر بيكون (١٢١٤ - ١٢٩٤م) العالم الإنكليزي الشهير، وغيرهما من كبار العلماء الأوربيين آنذاك.

وكانت الترجمات تتناول آثاراً منقولة من اليونانية إلى العربية لعلماء وفلاسفة وأطباء من اليونان، وكانت تتناول أيضاً آثاراً عربية خالصة لمؤلفين باللغة العربية في مختلف الاختصاصات والمعارف التي ذكرنا آنفاً ميادينها.

وقد أحصى الدكتور ليكليرك Leclerc في كتابه: (تاريخ الطب العربي)، عدد المؤلفات التي نقلت من العربية إلى اللاتينية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر فقط، فوجدها تزيد على ثلاثمئة ترجمة موزعة كالتالي (١):

١ - تسعون ترجمة تتعلق بالعلوم الفلسفية والفيزيائية، والطبيعية.

٢ - سبعون ترجمة تتعلق بالعلوم الرياضية، والفلكية.

٣ - تسعون ترجمة تتعلق بالعلوم الطبية.

٤ - أربعون ترجمة تتعلق بعلم النجوم، والكيمياء السحرية alchimie.

٥ - عشر ترجمات متنوعة.

ولاشك في أن عددا كهذا من الترجمات، وفي موضوعات متنوعة كهذه، سوف يحدث هزة في أفكار الغربيين تؤدي بهم إلى تنبيه العقول على واقع جديد، وتطلّعهم على آفاق رحبة لم يعرفوها من قبل، ويقر ليكليرك بفضل العلم العربي على أوروبا فيقول:

«شكل العلم العربي نفسه، هذه المرة، الأساس الذي يثري الأدب اللاتيني الذي أصبحت لغته هي اللغة العلمية في الغرب» (٢)

وُطِّلِعْنَا مراجعة يسيرة للقسم الثامن من الكتاب المذكور آنفا عن تاريخ الطب العربي، وهو بعنوان: (العلم العربي في الغرب)، بالتفصيل، على أن هذا العلم العربي قد انتقل عن طريق الترجمة، ويحدثنا عن الترجمات عموما، ثم يعطينا لمحة عن المترجمين وعما أنجزه كل منهم من ترجمات في حياته، ويقدم لنا أخيرا ثبوتا بأساء المؤلفين ومؤلفاتهم المترجمة إلى اللاتينية (٣).

ويرى إرنست رينان E. Renan أن «دخول النصوص العربية في الدراسات

(١) انظر كتابه: Histoire de la médecine arabe, 2ème éd, U.S.A., 1971, II, p. 526.

(٢) انظر: Op. cit., II, p. 366.

(٣) انظر: Op. cit., II, p. 341-526.

الغربية أدى إلى تقسيم التاريخ العلمي والفلسفي للعصر الوسيط إلى فترتين متميزة إحداهما من الأخرى تماماً^(١)، ويضيف إلى ذلك قوله : «في الفترة الثانية عاد العلم القديم أيضاً إلى الغرب، ولكن أكمل هذه المرة في الشروح العربية أو في المؤلفات الأصلية للعلم اليوناني التي كان الرومان يفضلون عليها المختصرات»^(٢)، إلى أن يقول على وجه العموم : «لم تكن الكتب الأولى المترجمة من العربية كتباً فلسفية، إذ ترجم قسطنطين الأفريقي وجريير Gerbert، وأديلار دوبات Adélar de Bath، وأفلاطون دو تيفولي Platon de Tivoli، كتباً في الطب والفلك والرياضيات، قبل أن يحل المراء بطلب معلومات فلسفية من زنادقة (كذابا) كالفارابي وابن سينا»^(٣).

وكان ريمون مطران طليطلة هو صاحب الفكرة الأولى الرئيسية في الترجمة، ولما كان مستشاراً أكبر لقشتالة من سنة ١١٣٠ إلى سنة ١١٥٠م، فقد كون حوله معهداً من المترجمين نجد على رأسه آنذاك كبير الشامسة دومينيك غونديسلافي Dominique Gondislavi، وكان عدد من اليهود يعمل تحت إمرته، مثل يحيى بن ديث Jean Avendéath ويحيى الإشيلي Jean de Séville كما أن بعض العرب كان يساعد في الترجمة أحياناً.

وكانت أولى محاولات الترجمة الفلسفية عن ابن سينا، وقام بها جيرار دو كريمون، وألفريد مورلي Alfred Morlay، ثم تناولا بعد ذلك أبحاثاً للكندي والفارابي، وبذلك «أصبحت كتباً هامة جداً في الفلسفة العربية معروفة منذ النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي لدى اللاتين»^(٤).

وكان نشاط التجارة الفكرية والسرعة التي كانت الكتب تنتشر بها من مميزات العصر الوسيط، حتى أن كتاباً مؤلفاً في المغرب أو القاهرة كان يعرف أحياناً في باريس وكولونيا في وقت أقل مما يتطلبه أي كتاب هام في أيامنا للانتقال من ألمانيا،

(١) انظر كتابه : Averroés et averroisme, 1852, p. 200.

(٢) Ibid. انظر :

(٣) انظر : Op. cit. p. 201.

(٤) Ibid. انظر :

عبر نهر الراين، إلى فرنسا^(١).

كانت إسبانيا، في الحقيقة، وخصوصاً طليطلة، هي المكان الذي تحققت فيه الصلات بين أوروبا والعرب المسلمين. وكان لكل من صقلية ونابولي، في إيطاليا، دور في هذه الصلات أيضاً، إذ «عمل المترجمون في هاتين النقطتين بحماسة متساوية واتبعوا طرقاً متشابهة»^(٢).

وكانت الترجمة تتم إما مباشرة من العربية إلى اللاتينية، وإما بطريق غير مباشرة من العربية إلى العبرية أو الأسبانية، ثم منها إلى اللاتينية، غير أننا نتحفظ كثيراً على هذه الطريق، ونرجح أن تكون قلة قليلة من الأعمال هي التي سلكته.

وكان ابن رشد — في نظر الأوربيين — هو ممثل الفلسفة العربية وشراح أعمال أرسطو في القرن الخامس عشر، وقد انتقلت فلسفته إلى الشعوب اللاتينية على يد ميشيل سكوت M. Scott، وروجر بيكون R. Bacon، وهرمان Hermann. ويبين رينان أهمية حركة الترجمة هذه في الثقافة الغربية فيقول: «لن يكون التاريخ الأدبي للعصر الوسيط كاملاً إلا حينما نجري — بحسب المخطوطات — إحصاء للكتب العربية التي كان جهابذة القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين يقرؤونها»^(٣).

وغير خاف علينا ما لتأثير هذه الترجمات عموماً في النهضة الأوربية، ذلك لأنها ظلت تقدم للغربيين حتى فترة متأخرة ثمارها الطيبة، كما أن حركة الترجمة إلى اللاتينية استمرت على تفاوت إلى أن بدأت هذه الحركة تتطور، تحت تأثير نشأة الدول القومية في أوروبا ونتيجة لحركة الاستشراق أو الاستعراب في القرون الخمسة الأخيرة، لتصب ترجماتنا في قوالب اللغات المحلية التي تفرعت من اللاتينية الأم، أو إلى اللغات القومية الأخرى التي لا تمت إلى اللاتينية بصلة سوى كونها لغة الثقافة العامة في أوروبا في العصر الوسيط وبدايات عصر النهضة

(١) انظر : Op. cit. p. 202.

(٢) انظر : Op. cit. p. 203.

(٣) انظر : Op. cit. p. 204.

الأوربية الحديثة .

وقد لخص المستشرق الفرنسي المشهور إدغار بلوشيه E. Blochet أثر العلم العربي وترجماته في الغرب الأوربي بقوله إن ما اصطلاح على تسميته بالنهضة الأوربية La Renaissance لم يكن ليكون لولا اتصال الأوربيين بالعرب المسلمين وحضارتهم ، وهو يُذكر بحماسة هؤلاء الأوربيين وهم يقبلون على دراسة هذا العلم العربي^(١).

٤ - الخطر العثماني على أوربا :

بعد أن تكونت نواة الدولة العثمانية في المنطقة الشرقية من آسيا الصغرى في حدود سنة ١٣٠٠ م ، أخذت تتوسع على حساب الدولة السلجوقية والإمبراطورية البيزنطية ، وظل خلفاء عثمان ، بالفعل ، يتبعون سياسة التوسع هذه حتى اجتازوا البوسفور إلى البر الأوربي ، وتوسعوا في بلغاريا وصربيا ، تاركين خلفهم القسطنطينية تنتظر مصيرها المحتوم الذي قدر لها سنة ١٤٥٣ على يد السلطان العثماني محمد الفاتح (١٤٨١م) ، وكان أسلافه قد أثاروا الرعب في أوربا فأطلقوا على ما يتهددهم من العثمانيين اسم (الخطر العثماني) الذي أدى إلى تحالف مقدس بين المجر (هنغاريا) والنمسا وألمانيا وفرنسا ضد العثمانيين ، إلا أن السلطان بايزيد هزمه في موقعة (نيكوبوليس) سنة ١٣٩٦ م ، ولكن تيمورلنك (م ١٤٠٥ م) ، الغازي التركي المسلم الشهير ، قام بعد احتلاله دمشق بالهجوم على العثمانيين وهزمهم قرب أنقرة سنة ١٤٠٢ م ، وأسر السلطان بايزيد نفسه الذي انتحر في السنة التالية ، مما أدى إلى حرب أهلية بين أبنائه على السلطة حتى سنة ١٤١٣ م ، وأدت هذه الحرب بالنتيجة إلى فقدان مناطق واسعة في البلقان قام باستعادتها فيما بعد السلطان محمد الأول (م ١٤٢١ م) ، وتوسع فيها أكثر من ذي قبل ، وتابع سياسته التوسعية فيها بعده خلفاؤه ، ومن أبرزهم : مراد الثاني (م ١٤٥١) ومحمد الثاني الذي لقب كما رأينا بـ (الفاتح)^(٢).

(١) انظر كتابه : Les sources orientales de la Divine Comédie, Paris, 1901, p. XI-XVI.

(٢) انظر : العرب والعثمانيون للدكتور عبدالكريم رافق ، ص ٣٨ - ٣٩ .

وقد مرت الدولة العثمانية بثلاثة أطوار^(١): طور القوة والصعود الذي امتد من بداية القرن الرابع عشر للميلاد إلى حدود سنة ١٥٦٦ التي انتهى فيها حكم السلطان سليمان القانوني، وكانت هذه الفترة تخيف الأوروبيين كثيرا. وطور التردد بين القوة والضعف، وهو يمتد من سنة ١٥٦٦ حتى وفاة السلطان سليم الثالث سنة ١٨٠٧. وطور الضعف والانحيار الذي يمتد من سنة ١٨٠٧ إلى سنة ١٩١٨ التي شهدت انحسار الأتراك إلى المجال الجغرافي الراهن بنتيجة خسارة الدولة العثمانية وحلفائها الحرب العالمية الأولى.

وبالإضافة إلى التوسع العثماني في أوروبا في الطور الأول، نجد العثمانيين يتوجهون إلى البلاد العربية ويستولون في عهد السلطان سليم الأول (م ١٥٢٠) - بعد توسعهم في غربي إيران وأرمينيا سنة ١٥١٥ على الشام سنة ١٥١٦ ثم على مصر سنة ١٥١٧ بعد إسقاط حكم المماليك فيهما، وعلى الجزائر سنة ١٥١٨، وأعلنت سائر البلدان والأقاليم العربية تبعيتها طوعا للباب العالي تباعا، يستثنى منها المغرب الأقصى الذي ظل خارج نطاق الهيمنة العثمانية على البلدان العربية.

وقد حاصر العثمانيون سنة ١٦٨٣ مدينة فيينا عاصمة النمسا، وكان هذا الحصار يمثل قمة الخطر العثماني على أوروبا وذروة التهديد الإسلامي لها، ثم أخذت دولتهم بعده تنحسر تدريجيا إلى أن انقرضت عقدها تماما إبان الحرب العالمية الأولى^(٢).

وإذا لم تكن الدولة العثمانية ذات حضارة رفيعة تنشرها التي هيمنت عليها، فإنها على الأقل كانت قوة ضاربة استطاعت أن تحافظ بها على قدرة الإسلام على الاستمرار والمجابهة، إذ أن السلطان سليم الأول استطاع أن يجعل لسلطانه هيئة الخلافة الإسلامية، وذلك لأنه عد نفسه ممثلا للمسلمين في العالم وحاميا لهم منذ تسلمه مفاتيح الحرمين ولقب نفسه بلقب (حامي الحرمين الشريفين)، وأضاف إليه لقب (الخليفة) في سنتي ١٥١٦ و ١٥١٧ بعد أن اصطحب معه إلى إستانبول من القاهرة آخر الخلفاء العباسيين وانتزع لقب الخلافة منه بوصفه أقوى رجل في الدولة، فصارت إستانبول بذلك مركز القوة الإسلامية حتى انهيار الدولة وإلغاء الخلافة الإسلامية

(١) م.س، ص ٤٣.

(٢) م.س، ص ٣٧.

رسميا على يد الجمهوريين الأتراك بزعامة مصطفى كمال (١٩٣٨م) في سنة ١٩٢٤ بعد أن ألغى نظام السلطنة سنة ١٩٢٣ .

وقد وقع عبء الدفاع عن أوروبا إزاء الخطر العثماني أصلا على عاتق أسرة هابسبورغ الكاثوليكية ، ويمثل الدور الخطير للنمسا في التاريخ الأوروبي ، وهو أحد المسوغات الرئيسية لوجود الإمبراطورية النمساوية ، في وقوف هذه الإمبراطورية وراء الحدود الجنوبية الشرقية لأوروبا ، مدافعة عن الحضارة اللاتينية والألمانية في وجه الإسلام^(١) .

ونشأ نتيجة لهذا الخطر العثماني على أوروبا مصطلح سياسي هو (المسألة الشرقية) وضعه السياسيون الغربيون وكانوا يعنون به تلك العلاقة القائمة على مختلف الصعد بين الإسلام والدول الشرقية التي تقوم عليه أو يتجسد فيها وبين المسيحية والدول الأوروبية التي تتجسد فيها^(٢) ، وكانت هذه المسألة أيضا تعني تلك السياسة الأوروبية المتبعة مع الدولة العثمانية للاستفادة منها وترويضها وتحجيمها والحد من فاعليتها تمهيدا لزعزعة كيائها وإضعافها والاستيلاء تدريجيا على ممتلكاتها والأقاليم الكبرى التابعة لها وتقسيمها غنيمة فيما بينها . فكانت هذه السياسة تتأرجح بين التحالف مع الدولة العثمانية والتحالف عليها بحسب الظروف . وكانت القوى الاستعمارية في أوروبا تتطلع بلهفة إلى اقتطاع أجزاء من هذه الدولة . وقد كتب غابريل مونو G.Driault في مقدمته لكتاب «المسألة الشرقية» الذي ألفه دريو E.Monod حول حقيقة هذه السياسة الأوروبية وجوهرها إزاء الدولة العثمانية فقال : «وقد تحالفت روسيا والنمسا معا على أن تصبح منطقة البلقان مستقلة ، لتشكل بالتالي حاجزا بينهما وبين الخطر العثماني ، فكان هذا التحالف حربا صليبية جديدة منتصرة هذه المرة»^(٣) .

وقد اهتمت فرنسا نتيجة لهذا الخطر العثماني الإسلامي أيضا وبوصفها أكبر الدول

(١) انظر : أصول التاريخ الأوروبي الحديث لهربرت فيشر، ص ٣٧٥ .

(٢) انظر : Driault (E.), la question de l'Orient, p. VIII .

(٣) انظر : Op. cit p. IX .

الممثلة للكاثوليكية، بتعليم بعض أبنائها اللغة التركية لغة الدولة القوية، كما اهتمت بتعليمهم اللغة العربية لغة الدين الذي تقوم عليه تلك الدولة وتدافع عنه، إضافة إلى كون العربية لغة حضارة عريقة ذات أثر كبير في العصر الأوربي الوسيط ومن أجل تخريج المترجمين بهاتين اللغتين، أسس كولبير^(١) Colbert الوزير الفرنسي المشهور زمن لويس الرابع عشر، مدرسة (فتيان اللغات) Jeunes de Langues التي كان لها مركزان في الدولة العثمانية: أحدهما في بيرا Péra قرب استانبول، والثاني في أزمير Smyrne، وهي ميناء يطل على بحر إيجه.

وإذا نظرنا إلى الصراع العثماني مع الغرب، في محاولة للتقويم من منظور شامل، فإننا سنجد صراعا خاسرا منذ البداية لأنه لم يعتمد اللغة العربية لغة للدولة العثمانية بوصفها ممثلة للإسلام والحاكمة باسمه طوال قرون في البلاد العربية خاصة، نظرا لكونها لغة استراتيجية للحضارة الإسلامية بغير نزاع. وكان هذا الخطأ خطأ قاتلا أدى بالعرب إلى التخلف عن ركب الحضارة وأدى بالمسلمين عموما إلى حالة من الخمول على الرغم من امتلاك العثمانيين لأقوى جيوش الأرض في مرحلة من مراحل تاريخهم. والأدهى والأمر من ذلك أن هؤلاء العثمانيين كانت لديهم نزعة خفية إلى تترك العرب خاصة وإلغاء اللغة العربية ثقافيا، وهذه سياسة غريبة جدا لا يفهم منها سوى القصور الدريع في رؤية الآثار السلبية التي ستظهر عمليا على نحو أو آخر في جسد الدولة العثمانية ومستقبلها.

٥ - التجارة الأوربية مع الشرق :

منذ أقدم العصور كانت القوافل التجارية البرية تعبر المنطقة العربية واصلت بين الشرق والغرب، كما أن السفن التجارية كانت تجوب البحر الأبيض المتوسط وترسو في موانئه على الشواطئ المحيطة به، وكانت تمخر عباب المحيط الهندي والخليج

(١) كولبير: هوجان - باتيست كولبير، من كبار رجال الدولة الفرنسية، عاش بين سنتي ١٦١٩ و١٦٨٣، تقلد عددا كبيرا من المناصب العليا زمن الملك لويس الرابع عشر، وكان من عظماء الوزراء المنظمين للدولة والإدارة ومؤسساها، وقد أحدث عددا من الأكاديميات العلمية، وكان من حماة الآداب والفنون ومشجعي أربابها على وجه العموم.

العربي وبحر العرب والبحر الأحمر. ونشأت في المنطقة العربية حضارات قوامها النشاط التجاري كاليمن وتدمر ومكة وغيرها.

ويذكر بلوشيه أنه منذ أقدم العصور إلى الأيام الأخيرة من العصر الوسيط كانت هنالك أربع طرق للاتصال التجاري بين الشرق وأوربا، تمتد كالتالي^(١):

الطريق الأولى: تنطلق من شواطئ الخليج العربي، وتسير مع مجرى نهر الفرات أو دجلة، وتجتاز هضبة القوقاز الضخمة، وتسير بعد ذلك في وادي نهر الفولغا Volga كله، ونهر الدون Duna، وفي جزء من مجرى نهر نيمن Niemen، إلى أن تصل إلى شواطئ بحر البلطيق في بروسيا، وتستمر من ثم إلى السويد والجزر البريطانية وإيرلندا.

الطريق الثانية: تنطلق من سواحل البحر الأسود خلال أودية أنهار الدنيبر والبوغ Boug ودينيستر Dniester ونيمن والفيستول Vistule، وكانت هذه الطريق تنتهي إلى النقاط السابق ذكرها آنفاً تقريباً.

الطريق الثالثة: تنطلق من دلتا نهر النيل وتخط رحالها على سواحل فرنسا، على مصب نهر الرون Rhone، ثم تتبع مجرى نهر السون Saone، وتسير مع مجرى نهر الراين ثم الموز Meuse أو السين Seine وروافده أو مجرى نهر اللوار Loire.

الطريق الرابعة: تنطلق أيضاً من دلتا نهر النيل وتخط على الساحل الغربي لخليج ليون Lion قرب مدينة ناربون Narbonne اليوم، وتتبع من ثم مجرى نهر الغارون Ga-ronne، ثم تصل إلى الساحل الغربي لفرنسا، حيث كان بالإمكان الوصول من هناك بحراً إلى إنكلترا وإلى إيرلندا.

ومن الملاحظ أن الطريقين الأولى والثانية كانتا تصلان ما بين المشرق العربي وأوروبا الشرقية والشمالية، في حين أن الطريقين الثالثة والرابعة تصلان هذا المشرق الغربي بوسط أوروبا وغربها وشمالها الغربي، وقد دلت على وجود هذه الطرق التجارية

(١) انظر كتابه: Les sources orientales de la Divine Comédie, Paris, 1901, p. 119-127.

اكتشافات أثرية تتمثل في النقود العربية والإسلامية والشرقية عموما، التي يعتقد أنها كانت تسقط من أحزمة التجار العرب والمسلمين والشرقيين الذين كانوا يسلكونها.

وهناك خطوط تجارية أخرى كانت تربط بين موانئ البحر الأبيض المتوسط العربية وموانئ أوربية. وعندما جاء عصر الكشوف الجغرافية البحرية وتقدمت وسائل النقل البحري والبحري، ازداد النشاط التجاري أكثر فأكثر بين الشرق عموما والغرب الأوربي خصوصا.

وكان اكتشاف رأس الرجاء الصالح أحد أسباب تطور الصلات العامة بين الشرق والغرب عن طريق الدوران حول أفريقيا، وكان فاسكو دي غاما^(١) هو الذي اكتشفه في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، في سنة ١٤٩٧م تحديدا. وكان هذا التحول في طرق التجارة البحرية ضربة قاصمة للتجارة المارة عبر البحر الأحمر بمصر متجهة إلى ساحل البحر المتوسط فأوروبا، وكان أيضا ضربة قوية للتجارة المارة ببلاد الشام عبر الخليج العربي مما أدى إلى انحطاط الأوضاع الاقتصادية وضعف الموارد المالية في مصر والشام، مما أدى إلى ضعف الدولة المملوكية التي كانت تقوم بدور الوسيط التجاري بين الشرق والغرب على وجه العموم، فأدى ذلك إلى ضعفها العسكري الذي تمثل سريعا في هزيمة جيوشها أمام العثمانيين الذين كانوا آنذاك في أوج قوتهم العسكرية المتمثلة في الجيش الانكشاري.

وإذا كانت الدول الأوربية قد فرحت كثيرا لاتصالها المباشر بالشرق مستغنية عن الوساطة التجارية العربية التي كانت تكلفهم باهظا، فقد أدركوا سريعا ما يكلفهم طول الطريق التجارية البحرية الجديدة من متاعب وصعوبات جمة ومخاطر لا تحصى، وفكروا بحل ذلك عن طريق الاستيلاء المباشر على المناطق المفصلية والاستراتيجية العربية، إلا أن دخول العثمانيين الأقوياء حال دون التنفيذ السريع

(١) فاسكو دي غاما: Vasco de Gama بحار برتغالي عاش بين سنتي ١٤٦٩ و ١٥٢٤، وقد تجاوز سنة ١٤٩٧ رأس الرجاء الصالح، واتبع الساحل الشرقي لأفريقيا، ثم وصل إلى ساحل مالابار، وبلغ كلكتا سنة ١٤٩٨، ووقع أميرها معاهدة تجارية مع البرتغال، وتوفي في الهند.

لأحلامهم الاستعمارية هذه، وأجلها آمادا متفاوتة انتظارا لفترات ضعف هذه الدولة وعجزها عن الردع والحسم في مثل هذه المناطق المنوي الاستيلاء عليها. ونظرا لأن المنطقة العربية عموما ذات موقع استراتيجي هام للتجارة الدولية والمواصلات بين الشرق والغرب بفضل موقعها المتوسط في العالم القديم، وبعد الكشف الجغرافية للعالم الجديد، فقد لفتت إليها أنظار الطامعين والمستعمرين، وجرى التنافس بين دولهم عليها، ومن ذلك ماجرى بين فرنسا وبريطانيا من تنافس على احتلال مصر فقد حاول الفرنسيون احتلالها بحملة نابليون سنة ١٧٩٨، بهدف قطع طريق الهند على الإنكليز، فقام هؤلاء بدورهم بأكبر نصيب في القضاء على هذه المحاولة وفي إجلاء المحتلين الفرنسيين من مصر بالتعاون مع العرب والعثمانيين، وذلك بتشجيعهم ومدهم بالسلاح وبدخلهم المباشر أيضا (كما فعل أمير البحر نلسون في خليج أبي قير، إذ حطم الأسطول الفرنسي الراسي فيه تماما). ثم عادت بريطانيا نفسها سنة ١٨٠٧ فأنزلت حملة بقيادة فريزر محاولة احتلال مصر، إلا أن حملتها أخفقت في تحقيق هذا الحلم أمام مقاومة المصريين الشعبية في رشيد. ثم انضحت المطامع الاستعمارية في تشجيع الفرنسيين لخدوي مصر على شق قناة السويس لتصل البحر الأحمر بالبحر المتوسط واختصار طريق رأس الرجاء الصالح اختصارا هائلا أمام التجارة عبر هذه القناة، وتم تنفيذ المشروع خلال عشر سنوات بجهود الكادحين المصريين وعرقهم ودمهم، وافتتحت القناة للملاحة سنة ١٨٦٩. ولم تلبث بريطانيا طويلا حتى تدخلت إلى جانب فرنسا في الشؤون المالية والاقتصادية والإدارية لمصر، إلى أن لاحت الفرصة المواتية للإنكليز بالاتفاق مع الفرنسيين على إطلاق يدهم في مصر مقابل إطلاق يد الفرنسيين في تونس في وقت واحد لوضع العثمانيين أمام الأمر الواقع الذي لا يستطيعون مواجهته ومنع حدوثه نظرا للضعف العسكري والانهيار الإداري اللذين كانت الدولة العثمانية تعاني منهما. فكان احتلال الإنكليز العسكري لمصر سنة ١٨٨٢ بعد مقاومة وطنية ضعيفة، فأمنت بريطانيا لنفسها طريق التجارة مع الهند، ومنتت سلطانها في بلدان الشرق التي كانت خاضعة لها خضوعا مباشرا.

وطوال العصر العثماني كان لفرنسا علاقات تجارية هامة مع الموانئ الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط، وتعززت أكثر باحتلالها الجزائر ثم بعد ذلك تونس. ولا تزال هذه العلاقات قائمة ومزدهرة إلى اليوم مع مختلف البلدان العربية المطلة على البحر المتوسط.

٦ - الازدهار الصناعي الأوربي والتوسع الاستعماري على حساب الشرق :

مع نهوض الطبقات الوسطى الصناعية والتجارية في المدن الواقعة في الغرب الأوربي، ومع تفتح وعي هذه الطبقات وازدياد سيطرتها في ظل النظام الإقطاعي البالي الذي فقد أسباب التلاوم مع الظروف الاقتصادية المتطورة الجديدة واختلال موازين القوى، نشبت صراعات بين البرجوازية ممثلة الطبقات الجديدة الناهضة ذات السلطان المالي والاقتصادي والتأثير الثقافي، وبين طبقة الملك والنبلاء ممثلة النظام الإقطاعي الذي لم يبق منه سوى المظاهر البراقة والقشور الفارغة من المضمون ومن الرسالة الثقافية الملائمة لمتطلبات المجتمع المتبلور في ظل الظروف المستجدة.

وقد أدت هذه الصراعات إلى تحطيم النظام الإقطاعي القديم والمهلل وبروز البرجوازية الصناعية والتجارية في المدن قوة بديلة له، وكانت الثورة الفرنسية في ١٤ تموز من سنة ١٧٨٩ الحد الفاصل بين عصرين تاريخيين عريقين اقتصاديا وسياسيا. وبتسليم البرجوازية مقاليد السلطة ازدهرت الحياة الاقتصادية في ميادين الصناعة والتجارة والزراعة والعمران، وأسهم في هذا الازدهار تلك الاختراعات العلمية المتوالية في أواخر القرن الثامن عشر وخلال القرن التاسع عشر. وكل ذلك أدى إلى زيادة الإنتاج وإطراد سرعته في بلدان الغرب الأوربي الصناعية، مما أدى إلى تضيق الأسواق المحلية بالمنتجات وتكدس فائض وفير منها كان يحث أصحاب رؤوس الأموال الصناعية إلى التطلع إلى تصريفه خارج حدود بلدانهم بالبحث عن أسواق جديدة.

وقد شجعت الكشوف الجغرافية والمغامرات الفردية على ازدياد عوامل جديدة وكان من حصيلة كل ذلك اطلاع الأوربيين على أراضي بلدان وأقاليم جديدة غنية

بالمواد الأولية الهامة التي يمكن استغلالها بغير مقابل لإمداد المصانع الأوربية بكثير مما تحتاج إليه من هذه المواد لتصنيعها، كما أن تصريف المنتجات في أسواق عالمية كان مهمة ملحة عند الرأسماليين الصناعيين الذين تحالفوا مع الرأسماليين التجاريين، لما لهذه العملية من مردود كبير في ميدان الأرباح وتراكم رؤوس الأموال بين أيديهم جميعا .

ولتحقيق هذا الهدف المزدوج : الحصول على المواد الأولية رخيصة الثمن وتصريف فائض الإنتاج الصناعي الكبير، قامت الدول الأوربية التي تسير أمورها الطبقات الرأسمالية الصناعية والتجارية، التي تمتلك وسائل الإنتاج ومقالييد السلطة معا، بتسيير أساطيلها وجيوشها إلى مختلف بقاع العالم، وخصوصا منطقة الشرق المتثملة بقارتي آسيا وأفريقيا، فتشكل نتيجة لهذه الحركة النشطة ما أطلق عليه إصلاح (الحركة الاستعمارية) الأوربية Colonialisme .

وكان التنافس الاستعماري بين الدول الأوربية الغربية وراء سلسلة من الحروب غير الإنسانية في مختلف البلدان التي تعرضت للاحتلال الأجنبي، وكانت حروب التنافس هذه تقع بين هذه الدول حتى في عقر دارها .

وكانت بريطانيا قد برزت أكبر قوة استعمارية منذ بداية حركة الاستعمار، وظلت تحمل هذه الصفة حتى العدوان الثلاثي على مصر سنة ١٩٥٦ . وترجع أسباب ذلك إلى قوة أسطولها البحري من جهة وإلى سياستها الدرائعية النفعية الماكرة من جهة ثانية . وكانت فرنسا تليها في هذا الميدان، ثم تأتي دول أخرى كإسبانيا والبرتغال وهولندا . وكان الصراع بين هذه الدول الاستعمارية المتنافسة يؤدي غالبا إلى ربح بعض الممتلكات والمستعمرات أو خسارتها من حين إلى آخر .

وقد تعرضت بعض سواحل المنطقة العربية المطلة على البحر الأبيض المتوسط لهجمات السفن الإسبانية والبرتغالية، وخصوصا سواحل المغرب والجزائر، وكان من نتيجة ذلك احتلال أسبانيا بعض المناطق في شمالي المغرب (كالريف المغربي وطنجة وسبتة ومليلة)، وفي جنوبية (منطقة الصحراء أو ما كان يعرف بساقية الذهب) . كما

تعرضت سواحل جزيرة العرب الجنوبية والشرقية لهجمات برتغالية مبكرة، حتى كانت المنافسة البريطانية للبرتغال فيها منذ سنة ١٨٣٩ .

ولم تقع المنطقة العربية الخاضعة للسلطان العثماني في ظل الاحتلال الاستعماري إلا بعد أن ضعفت قوة الدولة العثمانية المركزية وعجزت عن حماية الأطراف البعيدة من ولاياتها . وكان هذا الضعف قد دب في كيان الدولة العثمانية منذ مطلع القرن التاسع عشر . ولعل المحاولة الفرنسية التي جرت لاحتلال مصر وانتزاعها من السلطان العثماني كانت المحك العملي لاختبار حقيقة هذا الضعف، وكان من نتائج ذلك فيما بعد تجرؤ فرنسا على احتلال الجزائر القريبة منها سنة ١٨٣٠ واحتلال تونس المجاورة لها سنة ١٨٨١ ، والمغرب سنة ١٩١١ ، وأخيرا سورية سنة ١٩٢٠ .

وأما بريطانيا فقد احتلت مصر في سنة ١٨٨٢ ، ثم العراق سنة ١٩١٤ ، وبعد ذلك فلسطين والأردن سنة ١٩١٧ .

وسيطرت إيطاليا على ليبيا فقط سنة ١٩١١ .

ومن الطبيعي أن تصبح العلاقات بين المنطقة العربية والدولتين الكبيرتين المستعمرتين نشيطة نشاطا كبيرا وعلى كل المستويات ، لأن هذا النشاط نشاط تفاعل واتصال مباشر، أي اتصال تأثر وتأثير عن كثب .

٧- النهضة العربية الحديثة :

يرى أكثر مؤرخي العصر الحديث أن النهضة العربية بدأت مع نزول الحملة الفرنسية على مصر بقيادة الجنرال نابليون بوناپرت سنة ١٧٩٨ وامتدت من ثم عبر البر إلى بلاد الشام ، وتحديدا إلى مدينة عكا ، واستمرت في مصر حتى سنة ١٨٠١ . وعلى هذا المذهب تكون النهضة العربية في العصر الحديث من عمر الثورة الفرنسية إلا بضع سنين . ولعل في هذه النظرة أو هذا المذهب صوابا كثيرا ، ذلك لأن الصراع الدولي الذي جرى بين أربعة أطراف : إذ كان الفرنسيون من جهة، والعرب والعثمانيون والإنكليز من جهة ثانية، أحدث هزة كبيرة في نفوس العرب في كل من

مصر والشام معا وهما قاعدة الأمة العربية على طول التاريخ . وإذا أضفنا ذلك إلى الصراع المحلي الذي جرى على السلطة ، بعد خروج الفرنسيين ، بين محمد علي باشا قائد القوات العثمانية التي أرسلتها الدولة لمحاربة الفرنسيين ، والماليك الحكام التقليديين لمصر قرابة ثلاثة قرون من الزمان وكانوا متنفذين وأصحاب الإقطاع في مصر بعد سقوط سلطانهم بدخول العثمانيين إلى مصر ، وزعماء الشعب الوطنيين في مصر ، إذا أضفنا هذا الصراع على السلطة بين هذه الفئات الثلاث ، فإننا نرى نشوء وعي عند الناس في مصر لحقائق كثيرة : منها إدراكهم مبالادهم من أهمية ومكانة عند الطامعين . ومنها إدراكهم مدى ضعف العثمانيين وعجزهم عن مقاومة الغزو الغربي لبلادهم وعن حمايتها . ومنها إدراكهم عجز الماليك المتنفذين في طول البلاد وعرضها عن صد الغزاة وفي الدفاع عن مزارعتهم الخصبة : مصر . واكتشفوا أن العثمانيين والماليك بالتالي لا يستحقون التبعية ولا الطاعة وأن عليهم أن يتخلصوا من نير سيطرتهم عليهم وتولي زمام أمورهم بأنفسهم ، ولذا قام المصريون فعلا بتنظيم المقاومة عن بلادهم ضد الفرنسيين وتحملوا الأعباء والتضحيات وحدهم طوال فترة الاحتلال . وقاموا بعد جلائهم بالمطالبة بأن يكون لهم حق اختيار حاكمهم وتقرير نسبة الضرائب التي تفرض عليهم ، وبأن تكون المشورة لهم ليعمل برأيهم المعبر عن مصالحهم الحقيقية ، ولتحقيق كل هذه الطموحات والأحلام ساند المصريون زعماءهم في اختيارهم قائدا ذكيا وداهية استطاع أن يتقمص بإخلاص كل ما يصبون إليه وأملهم بتحقيقه لهم ، ألا وهو محمد علي باشا قائد الحملة العثمانية التي جاءت إلى مصر لمقارعة البقايا المضطربة من الحملة الفرنسية ، إذ أعجب به المصريون الوطنيون وطالبوا به واليا عليهم من قبل السلطان العثماني ، فوافق السلطان على ذلك ، وكانت بداية الرحلة مع أسرة محمد علي هذه التي ستتقلب أداة طيعة بيد الأطماع الخارجية في مصر وخيراتها .

عمل محمد علي ، منذ تسلمه زمام الأمور في مصر ، على تحقيق هدفين اثنين :

الأول : أن يفرد بمقاليد الحل والربط في مصر ، ويكون الحاكم المطلق فيها ، ملغيا بالتالي فكرة الشورى والتعاون مع الزعماء الوطنيين الذين لم يلبث ان صفاهم أو

أبعدهم عن طريقه . وفي نطاق هذه التوجه قام بتصفية المالك المطالبين بالسلطة تصفية دموية فيما عرف بـ (مذبحة القلعة) .

الثاني : أن يبنى جيشا قويا ضاربا في المنطقة يكون أداة طيعة جدا في يده لدعم سلطته من جهة ، وتحقيق مشروعاته الطموحة في بناء دولة عربية قوية في المنطقة . ولم يكن ممكنا أن يتم بناء مثل هذا الجيش القوي إلا إذا كان يقوم على أسس حديثة وعلمية تسير تطور العصر وطبيعته ، ولذلك اهتم بالتسليح الحديث للقوات ، وتأسيس كليات عسكرية تخرج جيشا عارفا بأصول الحرب والقتال وفنونها ، إلى جانب بناء مصانع للسلاح والذخيرة ، وإنشاء دار صناعة (ترسانة) للسفن الحربية في البحر لتكوين أسطول بحري قوي في البحر الأبيض والبحر الأحمر معا . وكانت مدارس الجيش تشتمل على مختلف الاختصاصات العلمية والتطبيقية . وقد استعان محمد علي في كل ذلك بإرسال بعثات دراسية إلى عدد من البلدان الأوروبية الغربية ، ولاسيما إيطاليا في بداية الأمر ثم فرنسا منذ سنة ١٨٢٥ بنصيحة من رئيس الجراحين في الجيش ، وهو الطبيب الفرنسي كلوت بك^(١) Clot Bey ، فكانت أول بعثة توجهت إلى فرنسا تلك التي ضمت بين أفرادها الشيخ رفاعه الطهطاوي ، صاحب الكتاب الشهير: (تخليص الإبريز في تلخيص باريز) الذي وصف فيه جميع مظاهر الحياة الفرنسية في باريس خلال فترة بعثته هناك من أجل تدريب الجيش وتعليمه ، بها في ذلك حركة الاستعراب التي رآها ورأى القائلين عليها وكانت له مع بعض أعلامها أحاديث وصدقات .

ولعل محمد علي في طموحه وتطلعاته التي ذكرناها أنفا كان مقلدا ذكيا وسريعا لنموذجين غربيين هما : التجربة الإمبراطورية النابليونية المخففة في مصر والشام ثم التجربة نفسها ثانية ولكن على المسرح الأوربي . والتجربة البحرية الانكليزية التي أثبتت جدواها وفعاليتها من خلال حركة الاستعمار الواسعة التي كان نجاحها الأول يعزى إلى قوة الأسطول البحري البريطاني بالدرجة الأولى .

(١) انظر، أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي للدكتور محمود فهمي حجازي ، ص ١٣ .

وتم لمحمد علي بالفعل ما أراد من تأسيس أسطول بحري قوي وجيش بري ضارب ، ومن توفير خبرات علمية وكفاءات إدارية جيدة في مختلف الشؤون ، وظهر أثر ذلك عمليا في حروبه مع الوهابيين في منطقة الحجاز ، وفي فتحة السودان وبلاد الشام ، وفي تحديه الدولة العثمانية التي كان جنديا لها يوما ما ، وفي إجبارها على مصالحةته والإقرار له بولايته على مصر وتوريثها أبناءه من بعده .

وإذا عدنا إلى الآثار التي تركتها الحملة الفرنسية في نفوس المصريين وإلى الانطباعات التي طبعتها في عقولهم وعواطفهم ، وجدنا ذلك في ميادين شتى : ففي الميدان العسكري أطلعت الحملة المصريين على أنواع حديثه من الأسلحة ، وعلى أساليب حربية جديدة ، وعلى تنظيمات وألبسة جديدة لم يكونوا يألونها من قبل . وفي الميدان الاجتماعي نجد الحملة تصطبح معها أسر الضباط والجنود ، وتحمل أزياء أهل فرنسا وعاداتهم وتقاليدهم ، وتعد أنواعا من الأطعمة واللوانا من الحلويات ، وضربا من المشروبات التي لم يعهدها المصريون قبلهم ، إلى غير ذلك من النواحي الاجتماعية العامة . وفي الميدان العلمي كانت الحملة تصطبح معها عددا من الاختصاصيين والعلماء في مختلف العلوم مع أدواتهم ومعداتهم ومختبراتهم وأجهزتهم المختلفة ، وقد لفتت تجاربهم وأعمالهم فضول المصريين وأثارت في عقولهم تساؤلات كثيرة ، وهم يستغريون ما لم يعتادوا عليه : ومن ذلك مثلا ماسجله المؤرخ المصري المعاصر للحملة ، عبدالرحمن الجبرتي ، عن دهشته من بعض التجارب الكيميائية في بعض المختبرات الفرنسية ، إذ يقول : «ومن أغرب ما رأيته في ذلك المكان أن بعض المتقدمين لذلك أخذ زجاجة من زجاجات موضوع فيها بعض المياه المستخرجة ، فصب منها شيئا في كأس ، ثم صب عليها شيئا من زجاجة أخرى ، فعلا الماء ، وصعد منه دخان ملون حتى انقطع ، وجف ما في الكأس وصار حجرا أصفر ، فقلبه على البرجات حجرا يابسا أخذناه بأيدينا ونظرناه . ثم فعل كذلك بمياه أخرى فجمدت حجرا أزرق ، وبأخرى فجمدت حجرا أحمر ياقوتيا . وأخذ مرة شيئا قليلا جدا من غبار أبيض ووضعه على السندال وضربه بالمطرقة بلطف ، فخرج له

صوت هائل . . انزعجنا منه ، فضحكوا منا»^(١) .

وكان بصحبة الحملة عدد من علماء الآثار والتاريخ والجغرافيا ، وقد عملوا جميعا على دراسة موقع مصر ومناخها وبيئتها ومواردها وآثارها الشاخصة وحياتها العامة في شتى الميادين ، وصنفوا من المادة التي جمعوها والملاحظات التي دونوها والنتائج التي توصلوا إليها كتابهم الشهير (وصف مصر) Description de L'Égypte ، وكانت نتائج الحملة عظيمة في ميدان علم الآثار ، وخاصة ما كان من فك رموز الكتابة المصرية القديمة المعروفة بـ (الهيروغليفية) التي كانت مدونة على حجر رشيد الذي حمل مع العائدين إلى فرنسا ، والذي فك رموزه عالم الآثار الفرنسي شامبلون^(٢) Champollion .

وكان الفرنسيون قد حملوا معهم إلى مصر مطبعة تطبع النشرات والبلاغات والتعليقات والأوامر والبيانات ، باللغات الفرنسية والعربية والتركية ، بحسب الحاجة . كما أسس ناهليون مؤسسة علمية في القاهرة لا تزال إلى اليوم وهي تؤدي خدمات هامة في ميدان الاستعراب ودراساته ، أطلق عليها اسم (معهد مصر) Institut d'Égypte .

وكان المستشرقون والمستعربون الفرنسيون المرافقون للحملة بصفة مترجمين وباحثين قد اكتشفوا لأول مرة وجود اللهجة العامية المصرية لغة للتفاهم بين السكان ، إلى جانب الفصحى التي كانت تستعمل أحيانا في أوساط المثقفين والمثقفين ، فأدهشهم وجود هذين المستويين للغة العربية في هذا القطر ، إلا أنهم اكتشفوا الظاهرة نفسها فيما بعد إبان مشاركتهم في الحملة الفرنسية على الجزائر ، إذ وجدوا لهجة عامية بين أوساط الشعب تختلف عن اللهجة العامية المصرية ،

(١) انظر كتابه : عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، ٣٥١ / ٤ .

(٢) هو جان - فرنسوا شامبلون ، وقد عاش بين سنتي ١٧٩٠ و ١٨٣٢ ، وكان عالم مصريات ، وقد أوصله شغفه باللغة القبطية إلى فك رموز الكتابة الهيروغليفية واكتشاف الكتابة الهيروغليفية ، وقد درس حجر رشيد وإحدى المسلات المصرية مع النص الأثري المطابق للنص الهيروغليفي على قاعدة تلك المسلة ، وعرض نتائجه على أكاديمية النقوش والآداب في رسالة إلى السيد داسييه Dacier تتعلق بأبجدية الأصوات الهيروغليفية .

فاكتشفوا اختلاف اللهجة العربية العامية من قطر عربي إلى آخر، إلى جانب اكتشافهم الأول للازدواجية بين الفصحى والعامية في هذه الأقطار^(١). وقد دفعهم ذلك إلى الاهتمام بتعليم اللهجات العامية المشرقية والمغربية في مدرسة اللغات الشرقية الحية بباريس بعد عودتهم، لما في ذلك من فائدة عملية لهم في مجال الاتصال والتعامل وغير ذلك من الفوائد.

ولاشك في أن بدايات النهضة العربية الحديثة قد انطلقت من هذه الفترة في جميع ميادين الحياة الاجتماعية والعقلية والعلمية والعسكرية، نظرا لأن محمد علي باشا لم يقطع حبل التواصل مع الغرب الأوروبي بعد جلاء الفرنسيين عن مصر، بل وسع نطاق هذا التواصل وعزز التعاون معه من أجل بناء الجيش القوي الذي كان يعدّه أداة لتحقيق ما يصبو إليه من طموحات في المنطقة العربية. إلا أن هذا التواصل لم يستمر على نسق واحد وثابت وإنما كان يتعرض بسبب العوامل المتحركة فيه إلى فترات نشاط وقوة وإلى فترات فتور وضعف.

وكان إنشاء الصحف وتوطيد حركة الطباعة والإقبال على نشر التراث المخطوط والعناية بدروسه، بالإضافة إلى نشر الكتب التي ترجمها المبعوثون العائدون للمدارس التي افتتحها محمد علي في مصر، من أبرز العوامل الفاعلة في هذه النهضة. وقد أدت الترجمة على وجه الخصوص دورا عظيما في تفتح الوعي على آخر ما توصل إليه الغرب الأوروبي من تطور في شتى الميادين، فكانت الجسر الذي تعبر عليه العلوم والآداب وعموم الأفكار والمؤثرات إلى المجتمع العربي الناهض. ويحدثنا بعض الباحثين عن السياسة التي اتبعها محمد علي في مجال الترجمة مع الموفدين العائدين إلى مصر من الدول الغربية التي تخرجوا فيها فيقول: «وضعوا في القلعة، وسلم كل منهم كتابا بالفرنسية ليترجمه في مادة تخصصه، على ألا يرح القلعة إلا بعد أن يتم ترجمته. ولما ترجمت الكتب دفع بها إلى المطبعة الأميرية^(٢) ببولاق، ثم وزعت على المدارس..»

(١) أنظر: Colin (G.S.), L'arabe vulgaire, in: 150e de l'École des Langues Orientales, (١) أنظر: Colin (G.S.), L'arabe vulgaire, in: 150e de l'École des Langues Orientales, Paris, 1948, p. 106.

(٢) وقد أنشئت هذه المطبعة على غرار المطبعة الملكية في باريس.

وقد رؤى إنشاء مدرسة الألسن^(١)، بناء على اقتراح من رفاة الطهطاوي، لتدرس فيها اللغات الفرنسية والتركية والإيطالية والإنكليزية^(٢) ولا نظن محمد علي كان مخطئا في اتباع هذه السياسة مع المبعوثين الذين تلقوا العلم، كل في اختصاص ما، من ينابيعه في دول الغرب الأوربي، بل كان سياسيا حكيما ومحنكا في هذه السياسة القسرية للترجمة لأنه كان مدركا أبعادها الاستراتيجية في تحديث المجتمع وتطوير نهضته من سباته العميق والإسهام في تقدمه وفتحته على أسس نيرة راسخة. ولو اتبعت هذه السياسة في مختلف الأفطار العربية اليوم، مع المبعوثين العائدين من جامعات العالم ومعاهد في شتى الاختصاصات، لانت أكلها على أحسن وجه^(٣) ولعل التجربة اليابانية في هذا المجال برهان ساطع لا يقبل الجدل على أهميتها ونجاحها، علما أن هذه التجربة قد تكون بشكل أو بآخر مستمدة من التجربة المصرية نفسها التي لم يقبض لها الاستمرار طويلا في هذا النهج السديد.

وكانت المطبعة الأميرية ببولاق، خلال هذه الفترة وماتلاها، من أهم المطابع ودور النشر، وقد أسهمت في نشر كثير من أمهات كتب التراث المخطوطة، وخصوصا تلك الكتب التي كانت مقررة على طلبة العلم في الأزهر، مما يتناول اللغة والأدب والفقه والسير والتفسير والبلاغة والحديث، وكلها كتب أساسية في ثقافتنا العربية القديمة التي لا بد من الاستناد إليها في انطلاقتنا الجديدة نحو ثقافة عربية معاصرة.

وكان المستعربون الغربيون في أوروبا قد نشروا أمهات الكتب العربية من التراث القديم محققة تحقيقا علميا دقيقا، وكانت هذه الكتب المطبوعة تشتري من أوروبا

(١) وقد تم إنشاؤها على غرار (مدرسة اللغات الشرقية الحية) في باريس، وهي المدرسة التي تعلم لغات الشرق المختلفة، وقد تحدث عنها الطهطاوي وعن أساتذتها في كتابه (تخليص الإبريز في تلخيص باريز) بإعجاب كبير.

(٢) انظر: تاريخ الأدب العربي المعاصر للدكتور إبراهيم أبو الخشب، ص ٧٧-٧٨.

(٣) إذ من الملحوظ عموما أن الغالبية المطلقة من الموفدين العائدين من البلدان الأجنبية شرقا وغربا، لا يترجمون طوال حياتهم العلمية، في الجامعة، أي كتاب جاد ذي أهمية جوهرية في اختصاصاتهم بل إنهم يتقاعسون حتى عن ترجمة أطروحاتهم العلمية الأكاديمية التي نالوا بها الدرجات العلمية التي يحملون ألقابها.

وتدخل إلى مصر والشام على أيدي العلماء والمثقفين في فترة النهضة الأولى وما تلاها، فكان عمل المستعربين هذا، في إحياء التراث ودفعه إلى النور، دعماً كبيراً لنهضتنا الفكرية عموماً، وهذا فضل يسجل لهم، وإن لم يكن القصد منه أساساً إفادتنا نحن العرب، إذ لم يكن علماء المشرقيات أو جمعياتهم ومجامعهم يقصدون خدمتنا بل خدمة العلم والأفكار التي يريدون بثها، ليتخذ بعضهم من كتب أسلافنا مادة تنفعهم في موضوع قد يرون غير رأينا فيه أو غير ذلك من المقاصد. ولكن مهما كانت النيات فقد استفاد العرب والعربية من هذه المهمة التي انبعثت من ديار الغرب»^(١).

٨ - أغراض الاستعراب الفرنسي :

كانت الصلات بين الشرق العربي والغرب الأوربي تتخذ أشكالاً شتى بحسب الظروف السائدة في كلا الطرفين، عبر الفترات التاريخية المختلفة، وأهم مايمكن ذكره من أشكال هذه الاتصال :

١ - الشكل الصدامي الحربي الذي يتلبس أنوياً دينية تارة واقتصادية تارة أخرى، ويتمثل هذا الشكل في التوسع اليوناني ثم الروماني، وفي الفتوح العربية الإسلامية، وفي الحروب الصليبية طويلة الأمد، ثم في حركة الاستعمار وردود الفعل القومية والوطنية عليها، ثم في قيام الكيان الصهيوني الاستيطاني بدعم عام من الغرب على حساب الحقوق الشرعية والطبيعية للعرب في فلسطين عبر التاريخ.

٢ - الشكل التجاري، وهو دائم متصل في مختلف الأدوار التاريخية.

٣ - الشكل السياسي المتمثل في السفارات المتبادلة قديماً وحديثاً بين دول الشرق ودول الغرب.

٤ - الشكل العلمي الثقافي المتمثل في حركة الترجمة من اليونانية إلى العربية في القديم، ثم في الترجمة من العربية إلى اللاتينية أولاً، ثم إلى سائر اللغات القومية في أوروبا بعد ذلك، ثم أخيراً في الترجمة من اللغات الغربية الحية اليوم إلى العربية أو من

(١) انظر مقالة : أثر المستعربين من علماء المشرقيات في الحضارة العربية لمحمد كرد علي، في مجلة المجمع العلمي العربي (مجمع اللغة العربية اليوم) بدمشق، مج ٧، ١٩٢٧، ص ٤٤٠.

اللغة العربية اليوم إليها . كما يظهر لنا هذا الشكل من الاتصال في حركة انتقال المخطوطات العربية في العصور المختلفة التي تلت تنبه الغرب على أهمية العرب وحضارتهم وتأثيرهم فيهم حاضرا ومستقبلا ، كما كان لهم من تأثير في القديم . ويظهر أيضا في حركة انتقال الكتب المطبوعة اليوم بين الطرفين . . ولهذا الاحتكاك الثقافي أهمية بالغة في نقل التأثيرات وتعميقها . ولا يغيب عنا إدخال البعثات الدراسية الموفدة إلى الغرب أو البعثات التي كان الغرب يرسلها إلى البلدان العربية في نطاق هذا الشكل من الاتصال العلمي والثقافي الفعال .

ولعلي أجد ، بعد كل هذا مسوغا للقول إن الصلات لم تقتصر على شكل واحد من هذه الأشكال في فترة تاريخية واحدة ، بل كانت هذه الأشكال جميعا تمتزج امتزاجا كليا ، وتتعاون في تشكيل نسيج متداخل من العلاقات بين الشرق العربي والغرب الأوروبي على وجه العموم .

وإذا قصرنا الحديث هنا على الصلات التي قامت بين العرب والفرنسيين منذ دخول العرب إلى الأندلس ومحاولتهم من ثم فتح فرنسا التي كانت تعرف آنذاك ببلاد (الغال) ، ثم تلك الصلات التي قامت بين العرب وفرنسا الصليبية ، ثم فرنسا عصر النهضة ، ثم فرنسا الثورة ، ثم فرنسا الاستعمارية ، ثم فرنسا المعاصرة ، فلإننا نجد هذه الصلات داخلة تحت شكل من هذه الأشكال المذكورة آنفا أو تحتها جميعا .

في الميدان الحربي قام العرب بغزو فرنسا (بلاد الغال) ، وتوغلوا فيها توغلا كبيرا ، ثم توقفوا ، وانحسروا إلى ما وراء جبال البيرينيه الفاصلة بين فرنسا وإسبانيا اليوم ، إذ تصدى شارل مارتل ^(١) Charles Martel بالجيوش التي تمكن من حشدها في وقعة بواتيه ، التي سماها العرب بلاط الشهداء ، سنة ١١٤ هـ ، بقيادة عبدالرحمن

(١) شارل مارتل : أمير فرنجي ، عاش بين سنتي ٦٨٥ و ٧٤١ م ، وهو ابن بيبان ديرستال Pépin D'Herstal ، وقد أصبح سييدا لأوسترالزيا A ustralie ونوستريا Neustrie ، وقام بحملات واسعة على جرمانيا وفرنزا Frisa للغزو والتبشير ، وهو الذي أوقف في بواتيه Poitiers ، سنة ٧٣٢ م ، حركة الفتح الإسلامي ، وضمن لنفسه تبعية مقاطعات أكييتين Aquitaine وبورغونيا Pépin Le Bref والبروفانس La Provence ، ونظم قبل موته أمر خلافته بين ابنه كارلومان Car- Ioman وبيبان القصير Pépin le Bref

الغافقي الذي استشهد يومها في تلك الوقعة . وكانت بعدها متناوشات خفيفة دائمة بين العرب والغاليين ، إلى أن نشبت الحروب الصليبية التي كان لفرنسا ضلع كبير في إشعال فتيلها والدعوة إليها وقيادتها وتجهيز جيوشها بالمال والعتاد والسلاح . ثم تلاشت هذه الحروب ، إلى أن تجدد الاتصال الحربي الفرنسي بعد الثورة بالعرب في حملة نابليون على مصر مع أفول شمس القرن الثامن عشر وبزوغ شمس القرن التاسع عشر . ثم استفحل هذا الاتصال الحربي بالتوسع الاستعماري الفرنسي في البلدان العربية الذي امتد من احتلال الجزائر سنة ١٨٣٠ إلى نيل هذا القطر العربي استقلاله التام عن فرنسا سنة ١٩٦٢ .

وفي الميدان التجاري ، نجد الصلات متينة إجمالاً وعلى امتداد العصور بعد الفتح العربية الإسلامية بين فرنسا والبلدان العربية .

وفي الميدان السياسي ، حدث اتصال بين فرنسا والمنطقة العربية تمثل في انتشار القنصليات والسفارات ، ولإزالة مثل هذا الاتصال قائماً إلى يومنا هذا .

وفي الميدان العلمي الثقافي ، حدث اتصال مبكر بين فرنسا والأندلس ، إبان حكم العرب لها وازدهار حضارتهم فيها ، ثم ازداد هذا الاتصال بعد تفكك أوصال دولة الخلافة فيها إلى دويلات الطوائف والإمارات الصغيرة ذات الصبغة الاقطاعية ، إذ تراجعت هذه الدويلات وازدهرت شيئا فشيئا تحت ضربات الأسبان المدعمن من قبل فرنسا ضمن إطار الحروب الصليبية في المشرق العربي وامتدادا لها . ولما سقطت طليطلة بيد الملك الفونس السادس ، سنة ١٠٨٥ م ، أصبحت كنوز الحضارة العربية ، المتمثلة بالمكتبات الضخمة المتخمة بالمخطوطات العربية ، في متناول الغزاة ، وسرعان ما تشكلت لجان لترجمة هذه الكنوز ونقلها إلى اللغة اللاتينية ، فكان لذلك مركز منظم على شكل معهد ، وكان القِيَم على تنظيم العمل فيه ريمون ، مطران المدينة الذي كان من أصل فرنسي ، مما جعل طليطلة في غضون بضعة عقود من الزمان كعبة طلاب العلم والمعرفة من كل أنحاء أوروبا ، ومن فرنسا على وجه الخصوص . وكانت فرنسا تفيد مما كان أبناؤها يقومون به من أعمال ترجمة

عن العربية إلى اللاتينية . كما كانت تفيد أيضا من الأعمال التي كان جيرانها من الإيطاليين والألمان والإسبان والإنكليز يترجمونها عن العربية خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد إلى اللغة اللاتينية ، قبل أن يفتنوا إلى ضرورة ترجمتها إلى لغاتهم القومية الحية التي يفهمها عامة الناس يومذاك .

وكانت الفترة التي تلت انحسار الحروب الصليبية عن المنطقة العربية ثم شهدت ضربات المغول المفجعة وقيام دولة المماليك ، بداية عصر الركود العقلي والسياسي والفكري والحمود الاقتصادي عامة ، وراحت المجتمعات العربية تنغلق عن العالم الخارجي المحيط بها ، وتفشت الأمية في جماهير الناس ، وعم ظلام الجهل والتخلف من الآفاق . ورافق كل هذا الهبوط خروج العرب نهائيا من الأندلس سنة ١٤٩٢ ، ثم تعرضت المنطقة العربية في نهاية المطاف لغزو العثمانيين الذين لم يكن همهم غير جمع الضرائب وبناء الجيش الانكشاري وتدعيم سلطانهم في الأستانة ، من غير نظر إلى مصالح الرعية الحقيقية وحققها في التقدم والازدهار والتفتح العقلي المستمر . وهكذا حافظ العثمانيون ، ومن حيث يشعرون أو لا يشعرون ، على حالة الركود والتخلف والتفوق على الذات واجترار ألوان من الثقافات والأفكار والعقائد السقيمة التي ترعرعت في ظلام الجهل والأمية وضيء الأفق . ونحن نرى إن الدولة العثمانية كانت تفتقر إلى النظرة الاستراتيجية للأمور في إدارتها الولايات العربية الخاضعة لسلطانها ، مما جعل منها دولة قوة وحرب في المقام الأول لا دولة حضارة وعقل . ولهذا كان نظامها عاجزا عن تطوير الحياة العامة في الدولة والمجتمع لتلائم التطور الذي كان يجري في أوروبا بسرعة مذهلة على الطرف المقابل من البحر المتوسط ، بسبب روح النهضة التي دبت في أوصال أوروبا تلك ، ونتيجة الإقبال على العلوم والكشف واعتماد العقل حكما على الأمور ، هذا بدوره أدى إلى الكشف الجغرافية والعلمية وإلى جملة المخترعات الآلية . وأسهم حب المغامرة والتحرر من كل سيطرة ، والميل إلى الفردية والتمرد والاستقلال ، في دخول عالم جديد من الحرية . وأدى تغير النظرة إلى الأشياء عند الأوروبيين بإحياء الآداب والفنون القديمة ، وتعلم الفلسفات ، وقيام حركات الإصلاح الديني ، وتطور وسائل الإنتاج وتغير العلاقة بين الطبقات

الاجتماعية، إلى نشاط عظيم وواسع في المجتمعات الأوربية كان يحركها بقوة لتستيقظ وتنهض من سباتها العميق والطويل الذي كانت تغط فيه من قبل، لنتفتح أعينها على نور الحياة. وفي المقابل كان كل شيء، على الطرف العربي، يدعو إلى الكسل والخمول والانغماس في الأوضاع العامة المتردية والانسجام معها من غير التفكير في تغييرها والخلاص منها.

وانقلبت بهذا موازين القوى رأساً على عقب، ففقدت المنطقة العربية، التي كانت تحتل في بداية الأمر من الحركة الاستعمارية بقوة الدولة العثمانية الحاكمة، كل مقومات التواصل الحضاري، ولو في حده الأدنى، فكانت المواجهة بينها وبين الدول الاستعمارية العربية التي احتلتها بعد ضعف الدولة العثمانية المركزية ثم انحسارها عن المنطقة العربية، أمراً في غاية الصعوبة، نظراً لعدم توفر قوة ذاتية تعتمد عليها.

وبعد أن كانت أوربا قاطبة ترهب الدولة العثمانية، صرنا نسمع الحديث عما يسمى (المسألة الشرقية) التي تعني السياسة الأوربية العدوانية ضد الدولة العثمانية والولايات الخاضعة لها، لإضعافها واقتسام ممتلكاتها. واتبعت فرنسا، على وجه الإجمال، سياسة عدوانية مع هذه الدولة، بعد أن كانت تتبع في فترة من الفترات سياسة ودية حسنة معها، وأصبح مصطلح (الرجل المريض) في عالم السياسة الغربية علماً على الدولة العثمانية في طورها الأخير طور الضعف والانحلال.

ولما كانت المصالح الفرنسية متزايدة في المنطقة العربية، فقد كان من المتوقع أن توجه فرنسا اهتمامها المعرفي لكشف أسرار الحضارة العربية الإسلامية التي استطاعت أن تنتشر وتثبت أقدامها في هذه الرقعة الجغرافية الواسعة المطلّة على البحر المتوسط من الشرق والجنوب.

والمدخل المؤدي إلى عالم هذه الحضارة العربية هو بلا ريب اللغة العربية وكل ما كتب بها من آثار عبر التاريخ منذ ظهور الإسلام. ولذا اهتم الفرنسيون بتعليم بعض أبنائهم هذه اللغة، من أجل الاطلاع على مخطوطاتها وآثارها القديمة والحديثة المكتوبة بها، والمعروف أن الناس يلجؤون إلى تعليم أبنائهم لغة قوم من الأقوام لسبب

من ثلاثة : للافادة من ثقافتهم وعلومهم ومعارفهم وآدابهم وفنونهم على وجه العموم ، أو للتسلط عليهم والاستفادة المادية منهم واستغلالهم ، أو للتعاون معهم وإقامة علاقات متوازنة على قدم المساواة معهم . ولعل دوافع بعض الفرنسيين إلى تعلم العربية كانت عمليا مزيجا من هذه الأسباب جميعا .

كانت العربية تقف في المرتبة الثانية ، بعد اللغة التركية ، في عهد لويس الرابع عشر . وفي عهد الثورة الفرنسية ، أسست مدرسة اللغات الشرقية ، وكان على رأس هذه اللغات على الإطلاق اللغة العربية الفصحى والعامة من أجل خدمة المصالح التجارية والسياسية مع العرب والمنطقة العربية ، وتلتها في هذه المدرسة من حيث الأهمية اللغة التركية ، ثم اللغة الفارسية .

وكانت لنا ، بالمقابل ، اهتمامات باللغة الفرنسية وغيرها من اللغات الأوربية في عصر النهضة العربية ، لما لها من أهمية في نقل العلوم والثقافة إلى لغتنا . وكانت البعثات الموفدة إلى الغرب الأوربي ، منذ عهد محمد علي ، مؤشرا إلى حاجتنا الماسة إلى علوم الغرب ومعارفه المتقدمة ، لتتفتح عقولنا وتزدهر مجتمعاتنا في مختلف الميادين ، بعد طول سبات وتخلف .

وقد أطلق الغربيون على من يدرس اللغات الشرقية وحضاراتها وكل ما يمت إليها في الماضي والحاضر بصلة اسم (مستشرق)^(١) Orientaliste ، وأسموا حركتهم في هذا المجال (الاستشراق)^(٢) Orientalisme . إلا أن هذا الاستشراق لم يكن مسرحه واحدا ، ولم تكن لغته واحدة ، لأنه كان يمتد من أقصى الشرق (اليابان ، وكوريا ، والصين ، وفييتنام ، والفيليبين ، وأندونيسيا) إلى المغرب العربي وجميع أرجاء أفريقيا . ولذا فقد كانت في حركة الاستشراق هذه تخصصات باللغات أو الحضارات الكثيرة في هذا الشرق ، وكان هنالك تسمية خاصة بكل حضارة أو لغة . وهكذا عُرف المختص بالدراسات العربية باسم (مستعرب)^(٣) Arabisant .

(١) انظر هذا المصطلح في : Larousse du XXe siècle .

(٢) انظر هذا المصطلح في : Ibid .

(٣) انظر هذا المصطلح في : Ibid .

ومع ازدياد اتصالات الفرنسيين بالشعوب الشرقية في آسيا وأفريقيا، وحتى في أوزبكا الشرقية، أخذت دائرة الاهتمام اللغات الشرقية تتوسع، وكان الهدف من ذلك خدمة المصالح الفرنسية في مجال انتشار تلك اللغات.

وفيا يلي ثبت باللغات التي أدرجت في برامج التدريس في مدرسة اللغات الشرقية الحية في باريس، وهي إحدى المؤسسات التعليمية البارزة في هذا الميدان. ونلاحظ في هذا الثبوت تاريخ إدخال كل لغة منها حتى سنة ١٩٤٧، ولابد لهذا التاريخ من أن يعطينا فكرة عن المصالح الكامنة وراء إدخالها^(١):

١ - العربية (١٧٩٥).

٢ - التركية (١٧٩٥).

٣ - الفارسية (١٧٩٥).

٤ - الأرمنية (١٨١٢).

٥ - اليونانية العامية أو الحديثة الحية (١٨١٩).

٦ - العربية العامية المشرقية (١٨٢١).

٧ - الهندستانية (١٨٣٠).

٨ - الصينية (١٨٤٣).

٩ - الماليزية (١٨٤٤).

١٠ - اليابانية (١٨٦٨).

١١ - الأنامية (الفيتنامية) (١٨٦٩).

(١) انظر كتاب الذكرى المئة والخمسين لتلك المدرسة : Cent cinquantaire de l'École des Langues Orientales, Paris 1948.

وكذلك مقالة ميراميل A. Mirambel

L'orientalisme d'hier et d'aujourd'hui, in: Revue de l'E.L.O., t.I, 1964 p.8

- ١٢ - الروسية (١٨٧٦).
- ١٣ - الرومانية (١٨٨٨).
- ١٤ - السيامية (١٨٩٩).
- ١٥ - البربرية (١٩١٣).
- ١٦ - الصربوكرواتية (١٩٢٠).
- ١٧ - البولونية (١٩٢١).
- ١٨ - التشيكية (١٩٢١).
- ١٩ - اللغات السودانية (١٩٢١).
- ٢٠ - الأمهرية (١٩٢٦).
- ٢١ - الملقاشية (١٩٢٦).
- ٢٢ - الفنلندية - الأوغرية^(١) finnois - ougrien (١٩٣١).
- ٢٣ - البلغارية (١٩٣٢).
- ٢٤ - الكمبودية (١٩٤٧).

وقد ازداد عدد هذه اللغات زيادة كبيرة منذ سنة ١٩٤٧ إلى اليوم تبلغ الضعف تقريبا، ويبلغ عدد سكان العالم الذين يتكلمون بهذه اللغات أكثر من نصف سكان الأرض، وليس هناك لغة هامة في العالم ألا وهي ممثلة في مدرسة اللغات الشرقية الحية هذه^(٢).

(١) اسم يطلق على أسرة من اللغات مرتبطة بالمجموعة الأورالية - الألطائية (نسبة إلى الطاي، وهي هضبة جبلية في آسيا الوسطى في الاتحاد السوفييتي) التي تشمل الفنلندية، والمهنغارية، والأستونية ولغات شتى في الاتحاد السوفييتي، والألطائية تطلق على مجموعة من اللغات التركية والمغولية تكون أسرة لغات.

(٢) انظر: Mirambel (A), L'Ecole des Langues Orientales de Paris et Les études d'orientalisme, in Revue de L'enseignement supérieur, 1957, n2, p.116.

وهكذا نجد حركة الاستشراق في فرنسا مرتبطة ارتباطا وثيقا بمصالحها المنتشرة بين شعوب الشرق المختلفة وبلدانها . وقد ازداد اهتمام الفرنسيين باللغة العربية مع ازدياد اهتمامهم بالعلاقات والمصالح المتبادلة بينهم وبين البلدان العربية المختلفة على امتداد الوطن العربي الكبير.

ولم يقف الاهتمام بالعربية عند الفرنسيين وحدهم وإنما نجد اهتماما عالميا بها حتى كانت اللغة الخامسة المعترف بها دوليا بين لغات الأمم المتحدة، كما أن حرب ٦ تشرين الأول ١٩٧٣ مع إسرائيل لفتت انتباه العالم إلى وزن العرب الدولي وأظهرت أن ترتيبهم معا، إذا توحدت كلمتهم في إطار التضامن العربي، يمكن أن يكون في المرتبة السادسة بين القوى الكبرى في العالم، ولذا نشهد إقبالا شديدا على تعلم لغتنا بين دول الشرق والغرب على حد سواء وذلك لخدمة مصالحهم الثقافية والمادية في المنطقة العربية ذات الأهمية الاستراتيجية والاقتصادية المتميزة في العالم الحديث .



الفصل الثاني

المخطوطات العربية في فرنسا

«إننا لنعجب حين نرى غزارة التأليف في الحضارة الإسلامية، بحيث إن عدد الكتب فاق عدد كتب أية حضارة قديمة غيرها»
آدم ميتز

لم يعرف الشرق العربي فن الطباعة إلا في وقت متأخر، إذ دخلت المطبعة إلى الدولة العثمانية في أواخر القرن السابع عشر للميلاد، ودخلت إلى مصر مع حملة نابليون، ولم تدخل إلى الشام إلا في أواسط القرن التاسع عشر وأواخره. ولذا كانت الكتب المخطوطة والمنسوخة في دكاكين الوراقين بأيدي النساخين هي وحدها وسيلة الناس إلى الثقافة والعلم والقراءة، وهي الوعاء الذي كانت تسجل فيه الأفكار منذ بداية حركة التدوين عند العرب بعد الإسلام، تلك الحركة التي بدأت عمليا بتدوين الوحي الإلهي، وظل الأمر كذلك إلى أن دخلت المطابع إلى البلاد العربية تباعا، على استحياء في مطلع الأمر ثم تزايدت وكثرت إلى ما نشاهده اليوم على مختلف الصعد . .

وبدخول فن الطباعة بالآتم الحديثة والمتطورة باستمرار، بدأ الباحثون والناشرون بطباعة الكتب المخطوطة على هذه الآلات وبأعداد كبيرة من النسخ وبسرعة عظيمة، وبأسعار أقل بكثير من أسعار المخطوطات، وبكتابة أبقى من الكتابة اليدوية وأسهل للعين عند القراءة وأيسر تناولا .

كما أن هذه المطابع أخذت تنشر ثمرات الجهود الجديدة في التأليف والترجمة وغير ذلك . ولما كانت المخطوطات بحالتها الأولية مادة ساذجة لا يمكن الاستفادة منها بيسر وسهولة، فقد اضطر الناس إلى تحقيق نصوص هذه المخطوطات القديمة والتثبت من صحتها مع شرحها وفهرستها قبل طبعها للاستفادة من محتوياتها على خير وجه ممكن، وهذا كله أدى إلى انتشار عادة القراءة وبناء المكتبات الخاصة في البيوت .

وكان رجوع المستشرقين إلى هذه المخطوطات أمرا لازما من أجل فهم ما جاء فيها من معارف مختلفة تتعلق بحضارة العرب ، ولذا كان عليهم أن يجمعوها من مختلف الأماكن والمواضع التي تتوفر فيها ، وبشتى السبل التي تتاح لهم سواء أكانت مشروعة أم غير مشروعة . وفيما يلي حديث عن الجوانب الهامة التي تربط بين هذه المخطوطات والمستعربين الفرنسيين حصرا :

١ - بدايات الاهتمام بالمخطوطات العربية في فرنسا وأسبابه :

ارتكب الصليبيون خطأ كبيرا عندما سيروا جيوشهم إلى المشرق العربي لمحاربة العرب والإسلام فيه ، وهم يجهلون كل شيء تقريبا عن الأخلاق الإسلامية ، وقد عبر بعض الباحثين الغربيين عن ذلك بقوله : «قامت الشعوب بالحرب ، ولكن - كما هو الأمر دائما - من غير البحث عن فهم لحياة الخصم الروحية والاجتماعية والمادية ، وهكذا لم يكن لدى الغربيين عن الشرق غير صورة مبهمه جدا كانت غارقة غالبا في ضباب الجهل»^(١)

وقد تلقن الفرنسيون هذا الدرس القاسي باشتراكهم مع الأوربيين الآخرين في هذه الحروب ، وخلاصة هذا الدرس أن «الحملة المسيحية الأولى إلى الأرض المقدسة وإلى مصر جاءت من غير خطة مدروسة جيدا ، ومن غير معرفة شيء عن أخلاق الشعوب التي ذهبوا لقتالها أو عن تسليحها»^(٢) ، «وقد برهنت النكبات المتوالية التي صبت فوق الصليبيين أنه لا يمكنهم الانتصار على هؤلاء المسلمين إلا إذا قلدوا تكتيكهم العلمي واستراتيجيتهم الماهرة»^(٣)

وبعد أن كان المحاربون يعتقدون ، تحت تأثير الخرافات والأساطير المنتشرة بينهم عن الشرق وأهله ، أن أحدهم قادر أن يهزم منفردا فرقا أو جيوشا من المسلمين ، ثبت لهم الواقع المر البعيد عن الدونكيشوتية الغبية^(٤) .

(١) انظر : Élisséeff (N.), Thèmes et motifs des Mille et Une Nuits, Beyrouth, 1949, p.6.

(٢) انظر : Blochet (E.), Les sources orientales de la Divine Comédie, Paris, 1901, p.160.

(٣) انظر : Op.cit., p.161.

(٤) انظر : Ibid.:

وقد ذكر المستشرق الفرنسي بلوشيه إقبال الغرب الأوروبي على معرفة الشرق العربي معرفة واقعية من خلال السبل الحقيقية المؤدية إليها، بعد قرابة قرن من انتهاء الحروب الصليبية، فقال: «عما لا يقبل الجدل أن إندفاعاً شديدة إلى الدراسات الشرقية قد تمت في القرنين الثالث عشر والرابع عشر. وكانت شبيهة بالحركة التي جرت في نهاية القرن الثامن عشر وفي القرن التاسع عشر، على أثر اكتشاف كتب الهند وفارس الدينية، وعلى أثر نفوذ الغبار عن الحضارتين الكبيرتين للفراعنة وملوك بابل على وجه الخصوص...»^(١) ويضيف إلى ذلك قوله عن تلك الاندفاعات المبكرة في الغرب إلى دراسة الشرق: «انطفأت تلك الحركة أو تحولت بعد القرن الرابع عشر، لأن العصر لم يكن يتعاطى العلم النظري الخالص، ولأن عصر النهضة الاغريقية – اللاتينية أبعدت دراسة الاستشراق إلى الدرجة الثانية من الاهتمام»^(٢)

وهكذا حاول الفرنسيون أن يتعرفوا أخلاق العرب والشرقيين وعاداتهم وتقاليدهم وماهم من معارف وثقافات، وكان المفتاح لمعرفة العرب وحضارتهم هو بالدرجة الأولى اللغة العربية التي يمكنهم بها أن يتعرفوا الآثار المكتوبة، ولهذا اتجه الغريون عامة، والفرنسيون خاصة، إلى جمع أعداد من المخطوطات التي تتفاوت في قيمتها وموضوعاتها من فترة إلى أخرى، من المشرق العربي إلى أقصى المغرب العربي، ومن مختلف البلاد الإسلامية الأخرى التي تتوفر فيها مكتبات كبرى ومخطوطات عربية، وكانوا يرسلونها إلى بلدانهم دفعة إثر أخرى. وقد جند لهذا الغرض رهبان مبشرون، وتجار، وجواسيس، ودبلوماسيون، وسفراء في العالم العربي والإسلامي، ورحالة، وسواح، ومستعربون كلفوا خصيصاً بهذا العمل.

وإن نحن ألقينا نظرة متفحصة على فهراس المخطوطات العربية التي أحصاها المستعرب الألماني المشهور كارل بروكلمان^(٣) C. Brockelmann، في مطلع الجزء الأول من كتابه الضخم الهام: (تاريخ الأدب العربي)، فإننا سنقف مذهوشين إزاء

(١) انظر: op.cit., p.162.

(٢) انظر: op.cit., p.163-164.

(٣) كارل بروكلمان: من كبار المستعربين الألمان وأعزهم إنتاجاً وأوسعهم اطلاعاً وعلمياً، عاش بين سنتي ١٨٦٨ و ١٩٥٦.

اتساع دائرة انتشار المخطوطات العربية في الغالبية العظمى من كبريات المكتبات المعروفة في العالم التحضر، بالإضافة إلى غزارتها الملحوظة لدى المتبعين، ويدل هذا العدد الكبير من الفهارس في ثبوت بروكلمان - وقد أصبح اليوم قديما نوعا ما بالنسبة إلى ما استجد من فهارس لمكتبات أو لمخطوطات لم يدركها بروكلمان نفسه ولم يطلع عليها - على ضخامة التراث العربي المخطوط الذي يقف وراءها.

وفي فرنسا كان الوزير الشهير كولبير يكلف بعض المعتمدين في الشرق بالبحث عن المخطوطات العربية لتزويد مكتبة الملك لويس الرابع عشر بها، فكانت تشتري من العاصمة العثمانية إستنبول، التي كانت مكتباتها العامة والخاصة تعج بالمخطوطات العربية المجلوبة إليها من الولايات العربية المختلفة، وكانت تجمع أيضاً من بعض المدن العربية الكبيرة. ومن ذلك تلك البعثة التي أرسلها كولبير برئاسة فانسلين Wansleben أو فانسليب G.B. Vansleb إلى المشرق العربي، فطافت في المدن الرئيسية في البلدان العربية ما بين سنتي ١٦٧١ و١٦٧٥، ثم عادت إلى فرنسا حاملة معها ثروة طيبة من هذه المخطوطات العربية^(١).

وقام بتي دولا كروا Petis de la Croix بجمع عدد من المخطوطات خلال رحلاته وجولاته في آسيا. وقام بمثل ذلك أيضا بول لوكا P. Lukas أثناء رحلاته إلى الشرق العربي. وقد أرسل، سنة ١٧٣٠، قسان فرنسيان، كل على حدة، إلى الشرق للبحث عن المخطوطات والتحف، وهما: سفان Sevin وفورمون Fourmont. وكان بعض هؤلاء الرحالة والزائرين للشرق يعقدون علاقات صداقة مع بعض أهل البلاد التي يمرون بها، أو يقيمون فيها، فكانت هذه الصداقات تعينهم على طلب بعض المخطوطات العربية والشرقية بعد عودتهم من هذه البلاد.

وكان كولبير يزود أيضاً مكتبته الخاصة بالمخطوطات العربية، وربما خضعت عملية شراء المخطوطات من الشرق لأهواء المشرفين على مكتبة الملك ورغباتهم، فنرى

(١) انظر افتتاحية زوتنبرغ H. Zotenberg لفهرس المخطوطات العربية في المكتبة الوطنية بباريس الذي كان قد وضعه المستعرب دوسلان من قبل.

مثلا على ذلك لتولييه Le Tellier، مطران ريمس Reims، والأمين العام لمكتبة الملك، الذي كان يكن مقنا شديدا للمخطوطات الشرقية، ولم يكن يحمل للأدب الشرقية عموما ذلك الاهتمام الذي كان عند سلفه في هذه الوظيفة، ولذا يشعر المرء في عهده بضعف الرغبة في اقتناء هذه المخطوطات الشرقية^(١)

وكان غالان^(٢) Galland قد ذهب إلى الشرق، وأقام فيه، وتنقل في أرجاء المنطقة العربية حين كان مرافقا لدونوانتل de Nointel سفير فرنسا إلى الباب العالي سنة ١٦٨٠، ثم أرسله كل من الوزيرين كولبير ولسوفوا Louvois إلى الشرق في مهمة محددة هي البحث عن المخطوطات الشرقية القيمة، ومنها العربية، بغية جمعها وشرائها لصالح مكتبة الملك أو لمكتبتيها الخاصتين بهما، ففعل ذلك، وجمع لنفسه أيضا عددا من المخطوطات العربية، كان من أبرزها مخطوطات لقصص ألف ليلة وليلة التي قام بترجمتها إلى اللغة الفرنسية لأول مرة تلك الترجمة الشهيرة التي كانت لها تأثيرات كبيرة في آداب الغرب وفنونه وأخلاقه العامة.

وكوّن ثيفنو Thévenot لنفسه مجموعة من المخطوطات العربية عن طريق الشراء سنة ١٧١٢. وحمل بنوا دوماييه B. de Maillet معه من الشرق عددا من المخطوطات سنة ١٧٣٨، حين كان يشغل وظيفة قنصل عام ووظيفة مفتش على المؤسسات الفرنسية في الشرق العربي.

وطرأ بعد قيام الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ تطور جديد على جمع المخطوطات الشرقية والعربية وتنظيمها، ذلك لأن أول ما قامت به الثورة دمج مكتبات الأديرة، وجمع ما فيها من كنوز المخطوطات المختلفة في باريس. وحصلت فرنسا على مجموعة قيمة من المخطوطات العربية أثناء حملة نابليون على مصر.

(١) انظر Zotenberg (H.), op.cit., P.I. حيث يصرح غالان بهذا الاتجاه.

(٢) أنطوان غالان : أحد مشاهير المستعربين الفرنسيين، عاش بين سنتي ١٦٤٦ و ١٧١٥، تعلم العربية في معهد فرنسا (كوليج دو فرانس)، رافق سفير فرنسا في تركيا، وقام برحلة خاصة إلى الشرق العربي على نفقته، وكان أول من ترجم قصص (ألف ليلة وليلة) إلى الفرنسية، لتذيع عن ترجمته تلك جملة من الترجمات إلى اللغات الغربية الرئيسية، فطارت شهرته لذلك في الأفاق.

ثم ازدادت حركة جلب المخطوطات العربية إلى فرنسا نشاطا في القرن التاسع عشر على أيدي العسكريين، كوزير الحربية الفرنسي الذي نقل مخطوطات عربية متنوعة من الجزائر سنة ١٨٣٢ بعد احتلالها. وعلى أيدي أطباء كالدكتور كلوت بك الذي كان يدرس الطب في المدارس التي أحدثها محمد علي باشا في مصر.

وفي سنة ١٨٣٣، حصلت فرنسا على قرابة ألف وخمسمائة مخطوط، كان أسلان دو شرفيل A. de Cherville المعتمد القنصلي بمصر قد جمعها.

وما بين سنتي ١٨٤٧ و ١٨٥٧، شغل شارل شيفر Ch. Schefer عددا من الوظائف في العالم الإسلامي، إذ عين أولا في وظيفة مترجم أول في سفارة فرنسا باستنبول. وكان لذلك أهميته في تمكن هذا المستشرق، الذي يتقن العربية والتركية والفارسية، من جمع عدد كبير من المخطوطات بهذه اللغات الثلاث الرئيسية في منطقة الشرق الأوسط، ودخلت إلى المكتبة الوطنية بباريس بعد وفاته باسم (مجموعة شيفر)^(١). وفي هذه المجموعة يقول بارييه دو مينار B. de Meynard، رئيس الجمعية الآسيوية بباريس، إنها كانت ثمرة بحث متواصل بلا انقطاع طيلة ما يقرب من نصف قرن في مصر والشام وفي الإمبراطورية العثمانية وفارس والهند الإسلامية^(٢). وقد عمل شيفر بعد عودته إلى باريس من الشرق مديرا لمدرسة اللغات الشرقية الحية.

٢ - ازدياد المخطوطات العربية مع ازدهار عملية الجمع :

يمكننا، من خلال حديثنا السابق، أن نضع علامات تاريخية فاصلة تميز مراحل الاهتمام الفرنسي بالمخطوطات العربية ويجمعها الذي أخذ يزداد باطراد الحاجة إلى الاتصال بالمنطقة التي تتكلم باللغة العربية، من أجل فهم حضارتها بالاطلاع على آثارها التي خلقتها عبر العصور المختلفة من تاريخها. وسنحاول فيما يلي إحصاء عدد

(١) انظر افتتاحية بلوشيه للفهرس الذي صنعه لهذه المجموعة : Catalogue de la collection de : manuscrits orientaux arabes, persans et turcs, par Schefer.

(٢) من نص رسالة موجهة إلى مدير المكتبة الوطنية بباريس سنة ١٨٩٨ ورد في : op.cit., P.III.

المخطوطات العربية في فرنسا إبان كل مرحلة منها بحسب ما ورد في افتتاحية زوتنبرغ Zotenberg التي كتبها لفهرس دوسلان de Slane هذه المخطوطات في المكتبة الوطنية بباريس:

المرحلة الأولى:

وتمتد من بداية القرن الثامن الميلادي، الذي شهد دخول العرب إلى الأندلس، إلى نهاية القرن الحادي عشر للميلاد. ولا نجد في هذه الفترة أي اهتمام جدي من الغرب الأوروبي عموماً، من الناحية الفكرية، بالشرق أو باللغة العربية.

المرحلة الثانية:

وتشمل القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين: وفيها كان الفرنسيون يفيدون من التراث العلمي العربي في ترجماته اللاتينية التي أنجزها علماء فرنسيون أو غربيون من مختلف بلدان أوروبا الغربية والوسطى. وفي هذه الفترة تركز نشاط حركة الترجمة في مدينة طليطلة Tolide بأسبانيا، وفي بعض مدن إيطاليا. وهذا يعني أن المخطوطات العربية لم تكن تقرأ بعد من قبل الفرنسيين. وقد شهد هذان القرنان الحملات الصليبية على قلب العالم الإسلامي: مصر والشام. وكان لهذه الحملات أثر كبير في تعريف الغربيين على المنطقة العربية وحضارتها المزدهرة بالقياس على حالتهم الحضارية المتخلفة آنذاك.

المرحلة الثالثة:

وتمتد من بداية القرن الرابع عشر الميلادي إلى نهاية الربع الثالث من القرن السابع عشر: ونشهد خلال هذه الفترة تقدماً ملحوظاً في جمع المخطوطات العربية، فقد دُكر وجود ست مخطوطات عربية في مكتبة قصر بلوا Blois على نهر اللوار. وأما مكتبة قصر فونتينبلو Fontainebleux على نهر السين، فقد كانت تحتوي على أربعين مجلداً شرقياً من بينها بعض المجلدات العربية المخطوطة. وكانت مكتبة الملكة كاترين

دوميديتشي^(١) Catherine de Médicis تحتوي، بحسب ما ذكر الجرد الذي أجري لها سنة ١٥٨٩، على خمس مخطوطات عربية فقط. ولم يزد هذا العدد من المخطوطات حتى سنة ١٦٦٨، بل إن قسما منه تعرض للتلف أو الضياع والفقدان. وصنع فهرس لمكتبة الملك، سنة ١٦٤٥، لم يذكر أكثر من تسع مخطوطات عربية.

وهكذا يتبين لنا أنه لم تكن في فرنسا، حتى نهاية النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادي، غير قرابة عشرين مخطوطة فقط. وهذا يدل دلالة قاطعة على عدم الاهتمام الجدي بالآثار العربية المخطوطة من قبل الفرنسيين. ونجد فوكيه Foucquet بعد ذلك بقليل يشتري عبر تجارة الكتب خمس مخطوطات عربية تضاف إلى العدد السابق ذكره.

المرحلة الرابعة:

وتمتد من بداية النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي إلى قيام الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩: ومنذ هذه الفترة بديء بتلقي مخطوطات مشتاة من بلدان المشرق العربي. إذ كان كولبير يرسل المبعوثين - كما رأينا - أو يكلف بعض المعتمدين في القنصليات الفرنسية في المشرق، وخصوصا في إستنبول والمنطقة العربية، لجمع المخطوطات العربية والشرقية، والمعروف أن هذا الوزير كان وراء مشروع إقامة مدرسة فتيات اللغات التي تعلم اللغات العربية والتركية والفارسية لعدد من الطلاب الفرنسيين، لأنه كان يخطط بذلك لخدمة مطامع بلاده التجارية والسياسية أو الاستعمارية على وجه التحديد.

وقد تمكنت بعثة فانسليين، المار ذكرها من قبل، من أن تجمع لمكتبة الملك قرابة

(١) كاترين دو ميديتشي: ملكة فرنسا، من أصل إيطالي، عاشت بين سنتي ١٥١٩ و ١٥٨٩، تزوجت سنة ١٥٣٣ من ملك فرنسا المقبل هنري الثاني الذي حكم من سنة ١٥٤٧ إلى سنة ١٥٥٩، وأنجبت له عشرة أولاد، وقد أصبحت، بعد وفاة زوجها، وصية على العرش إلى أن تولى ابنها هنري الثالث السلطة سنة ١٥٧٤. وكانت قد أظهرت، خلال عهد وصايتها، أنها ذات مزايا سياسية عظيمة.

ستمئة وثلاثين مخطوطة شرقية كان عدد العربية منها اربعمئة وثلاثين . وقد أحصى بطرس دياب (أوبيير ديبى P. Dipy كما عرف في فرنسا) في الجرد الذي أجراه سنة ١٦٧٧ قرابة ثمانمئة وسبع وتسعين مخطوطة عربية .

وفي سنة ١٦٦٨ تم نقل مئة وأربع وتسعين مخطوطة عربية من مكتبة الكريدينال مازاران^(١) إلى مكتبة الملك ، كما نقل إليها أيضا مئتان وسبع وأربعون مخطوطة عربية أخرى من مكتبة جليبرغولن G. Gaulmin .

ثم توقفت عملية الحصول على المخطوطات منذ سنة ١٦٨٢ إلى نهاية القرن السابع عشر، إذ لم تسجل — خلال هذه الفترة — زيادة هامة في عدد هذه المخطوطات .

وفي سنة ١٧٠٠ ، تم الحصول على ثمان مخطوطات تقريبا، وأضافت مجموعة ثيفنو إلى هذا العدد قرابة ست وتسعين مخطوطة سنة ١٧١٢ ثم أضافت إليها تركة غالان سنة ١٧١٥ قرابة خمس عشرة مخطوطة أخرى . ثم زاد عدد المخطوطات سنة ١٧١٩ قرابة ثمان مخطوطات من مكتبة فيليبير دولامار Ph. de La Marre . وكانت حصيلة رحلة بول لوكا إلى الشرق ثلاثا وعشرين مخطوطة . وحصل القس سفان ، المبعوث إلى الشرق في سنتي ١٧٢٩ و ١٧٣٠ ، على مئتي مخطوطة عربية من إستنبول ، ثم تلقى بعد عودته إلى فرنسا عددا آخر منها كان معارفه في تركيا يرسلونها إليه .

وحصلت مكتبة الملك سنة ١٧٣٢ على تركة كولير من المخطوطات العربية ، وكان عددها مئة وثمان وثمانين مخطوطة . وحمل دوماييه ، القنصل الفرنسي في الشرق ،

(١) الكريدينال مازاران : رجل دولة فرنسي ، عاش بين سنتي ١٦٠٢ و ١٦٦١ ، ينحدر من أسرة صقلية متواضعة ، دخل في خدمة فرنسا سنة ١٦٣٩ بعد حصوله على الجنسية ، وعين سنة ١٦٤٢ كريدينالا ، وحل بعد قليل محل الكريدينال ريشليو Richelieu ، ثم توفي الملك لويس الثالث عشر بدوره سنة ١٦٤٣ ، فنصبته آن النمساوية Anne d'Autriche ، التي أصبحت وصية على العرش وكانت تحبه ، وزيرا أول عندها ، فأثار ذلك حسد النخبة المهمة من الحاشية ، إلا أنه قام بمجموعة من الأعمال في الداخل والخارج أرسى بها أسس عظمة عصر لويس الرابع عشر .

قراءة أربع وأربعين مخطوطة عربية .

وأصبح العدد الاجمالي للمخطوطات العربية سنة ١٧٣٨ ، بحسب الفهرس الذي وضع لها ونشر في العام التالي ، ألفا وستمئة وثلاثا وثمانين مخطوطة .

ومن سنة ١٧٣٩ إلى سنة ١٧٨٩ ، أي طيلة نصف قرن من الزمان ، لم نلاحظ غير زيادة طفيفة على العدد الاجمالي الأنف ذكره .

ولا يفوتنا ، هنا أن نذكر أنه منذ نهاية الحروب الصليبية في حدود سنة ١٢٩٠ حتى الثورة الفرنسية ، لم ينقطع اهتمام رجال الدين المسيحي في الأديرة عن جلب المخطوطات العربية لتحقيق غايات دينية أو علمية أو لغوية ما ، وسوف نرى أن كثيرا من الأديرة ، التي وضعت الثورة يدها على مكتباتها ، كانت تضم بين كتبها أعدادا من المخطوطات العربية ، التي ربما تعلق أكثرها بالشؤون الدينية المتعلقة بمسيحيي المشرق العربي ، إلا أن عدد هذه المخطوطات لم يحدد بدقة في المصادر التي عدنا إليها بشأنها . وهي على أي حال تزيد عدد المخطوطات العربية في مكتبات فرنسا عامة .

المرحلة الخامسة :

وتتخذ من الثورة الفرنسية ١٧٨٩ إلى السنة التي بدأ فيها نشر فهرس دوسلان للمخطوطات العربية في المكتبة الوطنية La Bibliothèque Nationale بباريس ، أي إلى سنة ١٨٨٣ : وأول ما نلاحظ ، في مجال جمع المخطوطات العربية في فرنسا خلال هذه الفترة ، قيام حكومة الثورة بجمع كل ما تضمنه أديرة فرنسا وكنائسها من هذه المخطوطات ، في إطار عملية واسعة النطاق لجمع المخطوطات عموما في تلك المكتبة الوطنية المركزية في فرنسا . وقد دمج الحاصل من هذا الجمع بما استولى عليه الثوار من مكتبات ملوك فرنسا ووزرائهم على اختلاف ثقافتهم ومشاربهم ، وكانت هذه المكتبات تنمو منذ زمن بعيد وتزدهر بما يتوفر لها من إمكانيات مادية وفيرة وقدرة على استجلاب المخطوطات من كل مكان . ولم يلبث اسم هذه المكتبة المركزية أن أصبح في زمن إمبراطورية نابليون (المكتبة الامبراطورية Impériale) ، ثم أصبح اسمها مع عودة الملكية (المكتبة الملكية Royale) ، إلى أن عاد اسمها الأول ، أي

المكتبة الوطنية، بعد قيام النظام الجمهوري (الجمهورية الثانية بين سنتي ١٨٤٨ و١٨٥٢)، ثم الجمهورية الثالثة منذ سنة ١٨٧٠ التي قامت على أثر الحرب مع ألمانيا وعرفت بحرب السبعين، ولا تزال المكتبة تحمل هذه التسمية إلى يومنا هذا).

كان عدد المخطوطات التي جمعت من مكتبات الأديرة بفرنسا ثلاثمئة وخمسين مخطوطة، منها ثلاثمائة من مكتبة دير سان جرمان دي بري St-Germain des Prés وحدها، مما يؤكد لنا عدم دقة هذا الإحصاء على وجه العموم، إذ لا يعقل أن يشتمل دير واحد منها على هذا العدد الكبير في حين أن سائر الأديرة لا تحتوي على غير خمسين مخطوطة منها.

وأما نزول الحملة الفرنسية في مصر وامتدادها إلى بلاد الشام فقد كانت حصيلة أكثر من ثلاثمئة وعشرين مخطوطة كان معظمها عربيا، وقد جمعت بعناية فائقة من قبل علماء المشرقيات الذين كانوا يرافقون نابليون، ومنهم: بارادي دو فنتور Paradis de Ventoure الذي توفي هناك بعد فك الحصار عن عكا^(١)، وأميدي جوبير Amédée Jaubert، ومارسيل Marcel.

وجاء احتلال الجزائر - منذ سنة ١٨٣٠ - ليدفع عجلة الدراسات العربية في فرنسا أشواطاً بعيدة إلى الأمام، لأن الجزائر أصبحت مصدراً ثرا للحصول على المخطوطات العربية خاصة. ونجد وزير الحرية الفرنسية نفسه قد افتتح عمليات الحصول على هذه المخطوطات وإرسالها إلى بلاده سنة ١٨٣٢، فكانت الدفعة التي نقلها إلى المكتبة الوطنية (الملكية) بباريس تبلغ ثمان عشرة مخطوطة.

وكانت مجموعة دو شرفيل التي جمعت من مصر تشتمل على قرابة ألف وخمسمئة مخطوطة، ومعظمها مخطوطات عربية، وقد أرسلت إلى فرنسا سنة ١٨٣٣، وكان لهذه الدفعة الكبيرة أهميتها الخاصة في تنمية مقتنيات فرنسا من هذه المخطوطات، ودلالة هذا العدد الكبير منها هي أن الاهتمام بالدراسات العربية قد اتخذ اتجاهاً جاداً

(١) وقد أشار إليه الجبرتي في يومياته: مظهر التقديس في زوال دولة الفرنسيين، ١/ ١٧٣ باسم (متنورة) وذكر أنه كان ترجمان بونابرت ويعرف التركية والعربية.

وجديدا في فرنسا، ولعل أهم ما شجع على هذه النقلة الواسعة (معهد فرنسا) الذي أنشأه نابليون في القاهرة إبان الحملة، بالإضافة إلى العلاقات الحسنة التي قامت بين فرنسا ومحمد علي باشا في تلك الفترة التي أعقبت تمكن محمد علي من وضع يده على مقاليد الأمور في مصر بقوة.

وكان الطبيب الفرنسي كلوت بك قد نقل إلى فرنسا سنة ١٨٦٦ قرابة ثمان عشرة مخطوطة، وكان سنة ١٨٢٥ رئيسا لجراحي الجيش المصري ومدرسا في مدرسة الطب التي أنشأها محمد علي^(١). وأضاف أوجين بوجاد Eug. Boujade إلى ذلك سبع عشرة مخطوطة أخرى في سنة ١٨٦٧.

ولا تأتي سنة ١٨٨٣ حتى يبلغ عدد المخطوطات العربية في المكتبة الوطنية وحدها، بحسب فهرس دوسلان الذي طبعه زوتنبرغ، قرابة ثلاثة آلاف مجلد وأربعة مجلدات، ويحتمل أن يكون كثير من هذه المجلدات قد احتوى كل منها على أكثر من مخطوطة في الوقت نفسه. يضاف إلى هذا العدد قرابة أربع مائة وتسع وأربعين مخطوطة جلبت إلى المكتبة الوطنية بعد توقف العمل في الفهرس المذكور آنفا وقيل نشره.

ولم تكن المكتبة الوطنية الوحيدة التي تضم مخطوطات عربية في باريس أو فرنسا، إذ يمكننا أن نضيف إليها المكتبة التابعة للمدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية على سبيل المثال. وكانت هذه المدرسة قد أنشئت أولا في نطاق المكتبة الوطنية بباريس سنة ١٧٩٥، ولكن التوسع الذي فرض عليها هناك بزيادة عدد اللغات من جهة، وعدد الطلاب من جهة أخرى، أدى إلى نقلها إلى مكان آخر في المدينة بعيد عن المكتبة الوطنية التي كانت محتوياتها من المخطوطات والمطبوعات موضوعة تحت تصرف أساتذة اللغات الشرقية وطلابهم في المدرسة، فدفع هذا البعد إلى إنشاء مكتبة خاصة بهذه المدرسة تضم كتباً مطبوعة ومخطوطة بمختلف اللغات الشرقية

(١) انظر: أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي للدكتور محمود فهمي حجازي، ص ١٣ ويروي أن الطبيب كلوت بك هذا هو الذي أقنع محمد علي بتحويل البعثات المصرية إلى فرنسا.

التي تدرس فيها، ومن بينها اللغة العربية، وكان الحصول على هذه الكتب المخطوطة يتم إما بالشراء أو بتلقي الهبات التي كانت تقدم لها من داخل فرنسا وخارجها^(١).

ونضيف إلى هذه المكتبة تلك المكتبات الخاصة بكبار المستعربين وهواة جمع الكتب والأديرة، فقد كانت هذه المكتبات تغص أحيانا بالمخطوطات، ومن جملتها المخطوطات العربية. فالمستعربون، مثلاً، في القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين كان بإمكانهم الحصول على ما شاؤوا من مخطوطات عربية من مختلف البقاع وبأي وسيلة من أجل خدمة دراساتهم وبحوثهم، أو للقيام بتحقيق هذه المخطوطات ونشرها، أو من أجل ترجمتها إلى اللغة الفرنسية. وكان بعض هؤلاء المستعربين يوصي بمكتبته الخاصة التي جمعها طوال حياته إما لمكتبة مدرسة اللغات الشرقية، وإما للمكتبة الوطنية. ونجد مثلاً على ذلك ما فعلته زوجة المستعرب هرتويغ ديرنبورغ H. Derenbourg من تقديم مكتبة عمل زوجها، بعد وفاته، إلى مدرسة اللغات الشرقية التي كان أستاذاً فيها إلى أن مات سنة ١٩٠٩، وكان هذا التصرف بناء على وصية منه بذلك^(٢).

ولنقرأ السطور التالية التي نقتبسها من رسالة بعث بها دومينار، رئيس الجمعية الأكسيوية ببائيس في ٢١ تموز من سنة ١٨٩٨، بعد وفاة شارل شيفر بشهور، إلى رئيس المكتبة الوطنية ببائيس عن مجموعة مخطوطات شيفر:

«إذا كانت المصادفة المأسوف لها قد خطفت منا قبل أربعين سنة مجموعة إيتين كاترمير Et. Quatremère الجميلة، لصالح المكتبة الملكية في ميونخ، فإن لدينا ثقة تامة اليوم في التحرر المستنير للبرلمان، ونحن نرجو بشدة ألا يسمح بتبعثر مجموعة كوّنّا عالم فرنسي... لتذهب وتنمي المكتبات الأجنبية أو رفوف الهواة غير المبالين بالفوائد الحقيقية للعلم والفن. وبكم يتعلق الدفاع عن هذه القضية التي هي أيضاً

(١) انظر Carrière (A.) Notice historique sur l'École Spéciale des Langues Orientales Vivantes, in: Mélanges orientaux, Paris, 1883, P.XLV.

(٢) انظر: Meuvret (C.), La Bibliothèque, in: 150e de l'E.L.O., Paris, 1948, p.404.

قضية المكتبة الوطنية ، أضعها بين يديكم مع يقيني أنكم ترغبون في دعمها بقوة لدى السيد وزير التعليم العام والفنون الجميلة»^(١)

وقد وضع ورثة شيفر ، بالفعل ، مجمل المخطوطات الشرقية التي جمعها طيلة حياته تحت تصرف المكتبة الوطنية في سنة ١٨٩٩^(٢) . وكانت هذه المجموعة تحتوي على زهاء سبعمئة وواحد وتسعين مجلدا عربيا وتركيا وفارسيا ، منها أربعمئة وست مخطوطات عربية تقع في مئتين وستة وسبعين مجلدا ، وهي منتقاة انتقاء متقنا ، والمعروف أن شيفر كان مدرسا للفرسية في المدرسة ، ثم عمل مديرا لها من سنة ١٨٦٧ إلى سنة ١٨٩٨ التي توفي فيها .

ونضيف إلى ذلك المكتبة التي تمتلكها الجمعية الآسيوية ، وهي تشتمل على كتب ومخطوطات عربية أيضا . وهناك مكتبة جامعة ستراسبورغ التي تحتوي على مخطوطات عربية كذلك . إضافة إلى احتمال وجود مخطوطات قليلة أو كثيرة في مكتبات الجامعات الفرنسية المختلفة أو في مكتبات خاصة بأساتذة هذه الجامعات أو في مؤسسات علمية لم يحصر بعد ما تملك من هذه المخطوطات العربية .

المرحلة السادسة :

ونتمتد من سنة ١٨٨٣ إلى سنة ١٩٧٥ : وفيها أضافت فرنسا مجموعات جديدة من المخطوطات العربية ، وخاصة بعد احتلالها تونس سنة ١٨٨٢ ثم مراكش (المملكة المغربية) سنة ١٩١٤ ، ثم سورية سنة ١٩٢٠ .

ولا شك في أن النهضة العربية قد أظهرت للمثقفين ورجال العلم والمسؤولين في بلادنا تلك الأهمية التي تتمتع بها المخطوطات المتوفرة في مختلف المكتبات الخاصة والعامة في أقطارنا مدنا وقرى . وهذا الوعي لقيمة المخطوطات أدى إلى الدعوة إلى حفظها وعدم التفريط بها في بيع أو إهداء أو غيرها من أساليب فقد المخطوطات

(١) انظر الافتتاحية التي كتبها بلوشيه للفهرس الذي صنعه لمجموعة شيفر هذه : Catalogue de la collection de manuscrits orientaux arabes, persans et turcs, par Schefer, p.IV-V.

(٢) انظر : P.V. op.cit.,

وهدها، وكان من أبرز هؤلاء الدعاة الأستاذ الرئيس محمد كرد علي الذي كان يرى أن «من المصائب التي أصيبت بها الكتب أن بعض دول أوروبا ومنها فرنسا وحكومات جرمانيا وبريطانيا والعظمى وهولنده وروسيا أخذت تجمع منذ القرن السابع عشر كتباً تبتاعها من الشام بواسطة وكلائها وقناصلها والأساقفة والمبشرين من رجال الدين. وكان القوم، ولاسيما بعض من اتسموا بشعار الدين ومن كان يرجع إليهم أمر المدارس والجوامع، بلغ بهم الجهل والزهد في الفضائل أن يفضلوا درهما على أنفس كتاب... حدثني الثقة أن أحد سماسرة الكتب في القرن الماضي كان يغشى منازل بعض أرباب العرائم في دمشق ويختلف إلى متولي خزائن الكتب في المدارس والجوامع، فيتاع منها ما طاب له من الكتب المخطوطة بأثمان زهيدة... وبقي هذا سنين يتتاع الأسفار المخطوطة من أطراف الشام... رحل بها إلى بلاده، فأخذتها حكومته منه وكافأته عليها»^(١)

ولذا صارت مهمة الفرنسيين صعبة في الحصول على المخطوطات العربية من بلدان المشرق العربي، إذ أخذت دار الكتب الوطنية بمصر تفرص على ما لديها منها، وكذا صارت تفعل دار الكتب الظاهرية بدمشق التي قام إلى جانبها الغربي المجمع العلمي العربي سنة ١٩١٩، أيام الاستقلال الأول في ظل الحكم الفيصلي، وسلمت رئاسته لمنشئه الأول والساعي في تأسيسه الأستاذ الرئيس محمد كرد علي.

وقد أحسنت جامعة الدول العربية صنعا عندما قامت هيئاتها الثقافية بالاهتمام بفهرسة المخطوطات العربية في البلدان العربية، وبمحاولتها استرداد ما لدى الدول الأجنبية من هذه المخطوطات في مكتباتها، ولما كان من العسير جدا الحصول على أصولها المخطوطة نفسها في تلك الدول الأجنبية، الحريصة بدورها على مقتنياتها منها، لإعادتها إلى الوطن الأم، فقد اتجهت جامعة الدول العربية إلى الحصول على هذه المخطوطات ولكن بطريقة التصوير الوثائق (المكروفلم) لأهم ما تصل إليه أيدي الخبراء العرب في هذا الميدان من مخطوطات، بل إن هذه الطريقة امتدت إلى المكتبات.

(١) انظر كتابه: خطط الشام، ٦/ ١٩٨ - ١٩٩.

العربية نفسها لتجميع صور لمخطوطاتها تجميعا مركزيا في موضع واحد يوضع تحت تصرف الباحثين مباشرة وترسل منه نسخ لها لمن يرغب فيها من الباحثين العرب على مستوى الوطن العربي . وقد صنعت لهذه المخطوطات المصورة فهارس تساعد الباحث في الرجوع إليها عند الحاجة .

وهكذا حدث تحول في إمكانيات الحصول على المخطوطات العربية من قبل الدول الأجنبية ، ومن بينها فرنسا ، وصارت مؤسساتها العلمية والثقافية تعتنز على الأصل المخطوط بالحصول على صور مكروفلمية لها ، وتعمل الجهات المسؤولة في مكبتها على طلب مقابل أو بديل لما يصور عندها من مخطوطات في بعض الأحيان من أجل إغناء مقتنياتها من المخطوطات العربية .

ونستطيع القول بهذا أن المخطوطات الأصلية لم تعد موضوعا للاقتناء المباشر والتداول والتبادل ، لأنها صارت ملكا تاريخيا للمؤسسات الثقافية الوطنية التي لا تفرط بها ، لما لها من قيمة فنية وأثرية إلى جانب قيمتها العلمية والادبية .

ومما يسهل العمل على الباحثين تطور وسائل النسخ والتصوير ودقتها الفنية في هذا المجال إلى حد إظهار أنعم التفاصيل وأصغرها إذا تم هذا التصوير بفلم ملون مثلا ، وقد خففت هذه الحقيقة من الاندفاع وراء الحصول على المخطوطات الأصلية ، وأسهم في هذا التخفيف أيضا أن عددا لا يستهان به منها قد رأى النور عن طريق النشر والتوزيع على أوسع نطاق ممكن .

ويزيد عدد المخطوطات العربية اليوم في المكتبات الفرنسية المختلفة ، والتي جمعت عبر المراحل التاريخية المختلفة التي مر بنا عرضها ، على سبعة آلاف مخطوطة يعود تاريخ نسخها إلى عصور تاريخية مختلفة ، فمنها ما يعود إلى القرن العاشر الميلادي (أي الرابع الهجري) ، ومنها ما يعود إلى القرن الثامن عشر الميلادي (أي الثاني عشر الهجري) قبل انتشار الطباعة والمطابع في البلدان العربية على وجه العموم .

وقد اهتم فهرس دوسلان بذكر تاريخ نسخ كل مخطوطة ، وتاريخ مولد مؤلفها

أو وفاته ، ولهذا قيمته في توثيق المخطوطة وبيان العصر الذي ألفت فيه أو الذي نسخت فيه .

٣ - موضوعات المخطوطات العربية في فرنسا :

إذا استثنينا المخطوطات العربية التي تتناول بالذكر الأناجيل وسير القديسين وتاريخ العقيدة واللاهوت وغير ذلك من الشؤون الدينية المسيحية ، وهي التي يبدأ دوسلان بإحصائها في فهرسه تحت رمز A ، فإننا نجد دوسلان هذا يحصي في فهرسه هذا المخطوطات العربية الإسلامية تحت رمز B . وهذه هي تقسيمات دوسلان لموضوعات المخطوطات العربية تحت الرمز B ، أذكرها كما وردت في مطلع الفهرس لما فيها من فائدة كبيرة في تبيان موضوعات واحدة من أهم مجموعات المخطوطات العربية في المكتبة الوطنية بباريس خاصة وفي فرنسا عامة :

- ١ - القرآن .
- ٢ - تفاسير القرآن .
- ٣ - الأحاديث .
- ٤ - الفقه .
- ٥ - علم الكلام .
- ٦ - التاريخ .
- ٧ - السيرة .
- ٨ - علم الكون والجغرافيا .
- ٩ - الموسوعات .
- ١٠ - الفلسفة .
- ١١ - الأخلاق العامة .
- ١٢ - الإدارة .
- ١٣ - الرياضيات .
- ١٤ - الميكانيك .
- ١٥ - الموسيقى .

- ١٦ - الفلك .
- ١٧ - التقويم .
- ١٨ - النجوم .
- ١٩ - العلوم الخفية (السحر والكيمياء السحرية . .) .
- ٢٠ - التاريخ الطبيعي .
- ٢١ - الزراعة .
- ٢٢ - البيطرة وعلم الخيل .
- ٢٣ - الفروسية والطرده وفن الحرب .
- ٢٤ - الطب .
- ٢٥ - كتب في المجون والجنس .
- ٢٦ - الشعر :
- (أ) الدواوين والقصائد .
- (ب) المجموعات والمختارات .
- ٢٧ - القصص الخيالية :
- (أ) الحكايات والخرافات الحكيمية والقصص المختلفة .
- (ب) القصص والروايات .
- (ج) قصص الفروسية .
- (د) المقامات .
- ٢٨ - الأمثال والحكم .
- ٢٩ - فقه اللغة :
- (أ) بشكل عام .
- (ب) النحو .
- (ج) المعاجم .
- ٣٠ - البلاغة .
- ٣١ - الانشاء .
- ٣٢ - العروض .

٣٣ - كتب المصادر (الببليوغرافيا) .

ولا شك في أن قراءة متأنية لهذا الجدول المذكور أعلاه تبين لنا جملة الموضوعات التي تدور عليها المخطوطات العربية في فرنسا على وجه الإجمال ، وهي تصور في الوقت نفسه تلك الاهتمامات التي كانت تشغل بال علماء الاستعراب والمسؤولين السياسيين معا خلال المراحل التاريخية المختلفة التي شهدت جمع هذه المخطوطات .

فالمخطوطات العربية الإسلامية ذات الطابع الديني دليل على رغبة العلماء والسياسيين في معرفة الإسلام الذي ظهر ديناً في جزيرة العرب ، ثم حمل العرب لواءه بعد أن آمنوا به وخرجوا ينشرونه بالدعوة شرقاً وشمالاً وغرباً ، وعلى أساسه أقاموا دولة قوية واسعة نشأت في ظلها حضارة إنسانية راقية امتدت آثارها إلى العصر الحديث ، وكان لها دور في تغيير تاريخ العالم ورسم خريطته ، ودفعت إلى النهضة الأوربية .

وكانت الرغبة في هذه المعرفة وراء البحث عن سر هذه القوة التي يتمتع بها الإسلام حتى اليوم . وكانت بوادر هذه المحاولة لتعرف الإسلام وحضارته قد ظهرت مع الحروب الصليبية وحملاتها على الديار المقدسة خاصة والشام ومصر عامة ، وكان كثير من قادة الصليبيين ورعاياهم يعرفون شيئاً أو أشياء عن العرب والإسلام ، ومن ذلك أن الصليبي الفرنسي رينو دو شاتيلون Renaud de Chatillon سيد الكرك «كان يعرف العربية وقواعدها ، وكان يقرأ كتب التاريخ الإسلامي وكتب الحديث النبوي»^(١)

وكان لسقوط القسطنطينية بيد العثمانيين المسلمين سنة ١٤٥٣ وتهديدهم المباشر لأوروبا من الشرق دور هام في التوجه إلى دراسة الإسلام وفهمه . وزاد رغبة الفرنسيين في معرفة الشرق العربي كذلك استيلاء العثمانيين على البلدان العربية في النصف

(١) انظر. Blochet (E.), Les sources orientales de la Divine Comédie, Paris, 1901, p.157.

الأول من القرن السادس عشر الميلادي، وحاجة فرنسا الماسة إلى خدمة مصالحها التجارية عن طريق معرفة لغات الشرق الأوسط والأدنى الرئيسية، وهي: العربية والتركية والفارسية.

وأما المخطوطات ذات الموضوعات التاريخية فلعلها كانت تمثل رغبة الفرنسيين في معرفة تاريخ العرب كما كتبوه بأيديهم. والمعرفة التاريخية بلا شك ضرورة هامة لكل دراسة تتعلق بدين أو مذهب أو مجتمع أو أمة أو أدب، لأن التاريخ هو الذي يضع كل شيء في سياقه العام من التاريخ أو الزمان الذي حدث فيه. وبهذا تعرف نسبة الظواهر والوقائع بعضها إلى بعض.

وتعد المعرفة الجغرافية متممة أيضا للمعرفة التاريخية، لأن الجغرافيا تدرس المجال الحيوي للأمة والبيئة الطبيعية التي شهدت تطورها فيها، كما أن الشخصيات التي صنعت أحداث التاريخ إنما كانت تتحرك ضمن ذلك المجال وتحيا في تلك البيئة، ولذا لم يفت الفرنسيين أن يهتموا بالكتب العربية المخطوطة ذات الموضوعات الجغرافية لما تقدم لهم في أثنائها من معلومات طيبة عن جغرافية البلدان العربية والعالم الإسلامي، أو حتى العالم القديم كما رآه ووصفه أو تصوره الجغرافيون العرب والمسلمون. أضف إلى ذلك أن هذه الكتب كانت تتناول أيضا كثيرا من الجوانب الاجتماعية التي لها صلة بالأخلاق والعادات والتقاليد والأزياء والأطعمة والأشربة، كما تتناول بالوصف أحيانا بعض الآثار والأوابد القديمة أو بعض القضايا الدينية والتاريخية، وربما تطرقت كذلك إلى شيء من اللغات واللهجات. وهذا كله أدى إلى نشأة دراسات خاصة عند المستعربين الفرنسيين وغيرهم عرفت باسم (الأدب الجغرافي العربي).

وكانت المخطوطات العربية اللغوية التي دارت حول النحو والبلاغة والعروض والمعاجم تمثل رغبة الفرنسيين في معرفة الأداة الحضارية الأولى التي انسكبت فيها أو منها الأفكار في مختلف نواحي المعرفة الإنسانية، وأعني بها اللغة العربية، لأنها لسان الإسلام التي استعملها العرب والموالي (وهم المسلمون من غير العرب) في مؤلفاتهم

فكانت أداة التعبير عن آدابهم وعلومهم وفنونهم المختلفة .

وجاءت المخطوطات المتعلقة بموضوعات أدبية مختلفة ، كالشعر ودواوينه ومجموعاته ومختاراته ، أو النثر الفني كالقصص والمقامات والأمثال والحكم ، تعبيراً عن رغبة هؤلاء الفرنسيين في معرفة روح الأمة التي تمثل أكثر ما تتمثل في مطلق الأحوال في آثارها الأدبية شعراً ونثراً فنياً على حد سواء .

ووقعت المخطوطات المتعلقة بالفلسفة في دائرة اهتمام المستعربين الفرنسيين للإمام بما لدى المسلمين من فلسفة خاصة بهم ، أو للاطلاع على ما نقلوا إلى لغتهم من الفلسفة اليونانية القديمة عن طريق الترجمة مع ما أضافوا إليها من بنات أفكارهم على أيدي فلاسفتهم الذين تعمقوا في دراسة تلك الفلسفة . والهدف من وراء ذلك ، كما هو ظاهر ، رصد حركة الأفكار في المجتمعات الإسلامية . ومثل ذلك يقال في المخطوطات المتعلقة بعلم الكلام عند العرب .

ونرى المخطوطات العربية ذات الموضوعات العلمية والعقلية : كالرياضيات ، والطب ، والطبيعات ، والكيمياء ، والفلك ، والزراعة ، والحيران ، والبيطرة ، تحتل حيزاً كبيراً بين المخطوطات عامة ، وهذا يشكل دليلاً على رغبة الفرنسيين في الاطلاع على الحياة العلمية والعقلية في إطار الحضارة العربية ، وهي جانب مهم من جوانب تلك الحضارة ، وللإفادة من محتوياتها قدر الإمكان كما كان أسلافهم من قبل يفعلون في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد مع أخذ الفارق بين العصور بعين التقدير .

يضاف إلى ذلك اهتمام الفرنسيين بموضوعات فنية واجتماعية أخرى تتمثل في المخطوطات ذات الموضوعات التالية : الموسيقى ، وفن الحرب ، والفروسية ، والطرز ، وما أشبه ذلك ، لما فيها من فوائد عملية مباشرة ، إلى جانب الفائدة النظرية .

وكان للمخطوطات المتعلقة بالإدارة وشؤونها أهمية خاصة في فهم شؤون الإدارة في الدول العربية ومجتمعاتها ، وفي الاستفادة منها قليلاً أو كثيراً في تطوير الإدارة الفرنسية ونظمها إن كان ذلك ملائماً للعصر .

٤ - أنشطة المستعربين الفرنسيين وجهودهم حول المخطوطات العربية :

يمكننا أن نلخص جهود المستعربين التي بذلت حول المخطوطات العربية وخدماتها في الجوانب التالية :

- ١ - البحث عن هذه المخطوطات وجمعها ونقلها إلى فرنسا .
- ٢ - حفظ هذه المخطوطات .
- ٣ - وضع فهراس تنظم الإفادة منها .
- ٤ - تحقيق بعضها ونشره .
- ٥ - نشر اقتباسات من بعض هذه المخطوطات أو خلاصات لها بغية تعريفها .
- ٦ - ترجمة بعض هذه المخطوطات إلى الفرنسية .
- ٧ - نسخ بعض هذه المخطوطات أو تصويرها .

وقد مر بنا، فيما سلف، ما كان المستعربون يقومون به في مجال النقطة الأولى من هذه الأنشطة، كما يمكن أن نلمس اهتمامهم بتنفيذ النقطة الثانية وهي حفظ هذه المخطوطات وصونها من التلف بكل الوسائل المتاحة لهم من خلال إقبالهم على اقتنائها والحرص على عدم التفریط بها .

وكان المستعربون قد فطنوا إلى أهمية النقطة الثالثة، وهي فهرسة المخطوطات العربية في مكتباتهم الخاصة والعامة، للإفادة منها والرجوع إليها بأيسر كلفة، مع تعرف أوصافها من خلال نبذة قصيرة عن كل مخطوطة في مثل هذه الفهارس التي يضعونها لها . وكان أول فهرس للمخطوطات العربية في فرنسا هو ذاك الذي وضعه بطرس ديساب الحلبي، سنة ١٦٦٧، لمكتبة الملك . ويروى أنه قام بوصف المخطوطات العربية التي كانت تحتوي عليها مكتبة الوزير كولبير، ويقال إنه لم يكن وحده في هذا العمل، وإنما شاركه في إنجازه آخرون، إلا أن هذا الفهرس لم يكن تاماً .

وأنجز المستشرق دريلو d'Herbelot والقس رينودو Renaudot، سنة ١٦٩٠، ملخصات مجموعة ومنسقة كوّنت المجلد الأول من الفهرس العام لمخطوطات مكتبة

الملك ، وكان موضوعها المخطوطات العربية في تلك المكتبة^(١) .

وقام باروت الشامي Barout ، الذي كان مترجما في مكتبة الملك ، سنة ١٧١٥ ، بجرد فهرس جديد للمكتبة يشمل المخطوطات العربية والتركية والفارسية ، ولكنه لم يتمه .

ولما صار بالإمكان طبع الفهرس الذي يوضع للمخطوطات ، شرع الماروني يوسف الأشقر ، الذي كان يعرف بالـ Achcar والـ Ascary عند الفرنسيين ، في وضع وصف للمخطوطات المجتلبة حديثا ، وللمخطوطات العربية والسريانية السابقة ، وذلك سنة ١٧٣٥ . وتم نشر فهرس للمخطوطات الشرقية سنة ١٧٣٩ شمل فيما شمل عمل كل من دربلو والقس رينودو معا .

وصنع إلزيار دو سنكسي Alzéar de Sanxay ، مبشر الأخوية الكبوشية ، فهرسا لمخطوطات مكتبة سيغييه Séguier مستشار الملك لويس الثالث عشر ثم الرابع عشر .

وقام سلفستر دو ساسي S. de Sacy ، بعد حريق مكتبة دير سان جرمان أثناء أعمال العنف الثوري سنة ١٧٩٤ ، بوضع جرد للمخطوطات الشرقية فيها ومن جملتها المخطوطات العربية .

وقد صنع فهرس لمجموعة دو شرفيل في القاهرة سنة ١٨٢٥ ، وعندما دخلت هذه المجموعة في المكتبة الوطنية صنع لها دو سلان فهرسا آخر .

ولما كثرت المخطوطات العربية ، وحدث ما يشبه الارتباك في العودة إليها في المكتبة الوطنية ، عمد المسؤولون فيها إلى وضع فهرس جديد شامل ومطبوع ليكون أداة عمل بين أيدي العلماء والباحثين من المستعربين أساتذة وطلابا على حد سواء . وكلف هؤلاء المسؤولون المستعرب الإيطالي المعروف ميشيل أماري^(٢) M. Amari

(١) انظر ما كتبه زوتنبرغ في افتتاحيته لفهرس المخطوطات العربية الذي وضعه دوسلان .

(٢) عاش بين سنتي ١٨٠٦ و ١٨٨٩ ، وتعلم العربية على يد المستعرب الفرنسي رينو ، وقد تقلب في عدد كبير من المناصب السياسية والأكاديمية في إيطاليا .

بوضع مثل هذا الفهرس ، فأخضع التراث العربي في المكتبة لمراجعات دقيقة ووضع عددا كبيرا من الملخصات والنبد خلال عدد من السنين ، ولكن الموت لم يمهله حتى ينجز ما كان قد بدأ به ، إذ اختطفه سنة ١٨٥٩ ، فتوقف العمل ، إلى أن تابعه بالهمة نفسها المستعرب هرتويغ ديرنيورغ سنة ١٨٦٧ ، ولكنه توقف عن متابعته سنة ١٨٧٠ ، فقامت إدارة المكتبة الوطنية بتكليف المستعرب الفرنسي ماك غوكان دوسلان Mac Guckin de Slane ، وهو من أصل إيرلندي ، بمهمة متابعة العمل في هذا الفهرس سنة ١٨٧٢ ، فتم العمل به بوضع الملخصات التي تصف كل ما يتعلق بالخطوط ، وذلك بإعطاء المعلومات التالية : قياس قطع ورق المخطوطة طولاً وعرضاً بالاستيمتر ، وعدد الأسطر في الصفحة الواحدة وسطياً ، وتاريخ نسخها ، واسم الناسخ إن كانت منسوخة عن مخطوطة سابقة ، واسم المؤلف إن كانت تلك المخطوطة مكتوبة بخطه ، مع تاريخ وفاته ، وعدد ورقات المخطوطة ، مع إثبات الأسطر الأولى من هذه المخطوطة وشيء من خاتمها ، مع إعطاء وصف مقتضب لمضمونها أو موضوعها ، والإشارة إلى حالتها العامة إن كانت سليمة أو أصابها شيء من العطب أو الخرم أو النقص ، إلى غير ذلك من المعلومات الدقيقة التي كانت تتطلب صبراً ودقة ومنهجية فائقة في العمل . وكانت حصيلة جهد دو سلان جاهزة للطبع حين تخطفه الموت أيضاً سنة ١٨٧٨ . وقد أعطى هذا العمل الجديد المتكامل تسلسلاً جديداً لأرقام المخطوطات التي كانت قد أعطيت لكل منها من قبل . وكان وصفه للمخطوطات العربية دقيقاً مفيداً كل الفائدة بحسب ما ذكرنا . وظل هذا الفهرس الفريد مخطوطاً إلى أن كلف المستعرب زوتنبرغ بإخراجه للنور مطبوعاً لتعم فائدته ، فتم نشره فعلاً ما بين سنتي ١٨٨٣ و ١٨٩٥ .

نلاحظ من خلال هذا الاستعراض المتسلسل زمنياً أن الفهارس والجروود التي وضعت للمخطوطات العربية كانت تزداد دقة وشمولاً وكمالاً مع تقدم الزمان وتطور البحث ، ولم تقتصر الفهرسة على مخطوطات مكتبات ملوك فرنسا التي تحولت إلى المكتبة الوطنية ، وإنما كانت تشمل أيضاً مكتبات خاصة أو مكتبات لمؤسسات علمية أخرى .

وقد نشر في فرنسا سنة ١٩٠٠ فهرس المخطوطات العربية والفارسية والتركية التي تضمها مجموعة شيفر، وكان بلوشيه قد وضعه لها، ثم أدخلت هذه المجموعة في المكتبة الوطنية سنة ١٨٩٩ بعد وفاة صاحبها كما ذكرنا من قبل.

ووضع بلوشيه نفسه فهرسا آخر للمخطوطات العربية التي اقتنتها المكتبة الوطنية ما بين سنتي ١٨٨٤ و ١٩٢٤، أي خلال أربعين سنة، وقد شمل هذا الفهرس وصف زهاء ألفين وثلاثين وثلاثين مخطوطة عربية، وتم نشره في باريس سنة ١٩٢٥، فجاء متما للفهرس دوسلان المذكور آنفا، وهو مفيد جدا للباحثين.

ونشر غريغو R. Griveau، في مجلة (الشرق المسيحي) La revue de l'Orient Chrétien، ما بين سنتي ١٩٠٩ و ١٩١٢، فهرسا للمخطوطات العربية المسيحية التي اقتنتها المكتبة الوطنية بعد وضع فهرس دوسلان.

وقام جورج فايدا G. Vajda بوضع فهرس للمخطوطات العربية التي أدرجت سهوا في المكتبة الوطنية بباريس بين المخطوطات التركية والفارسية والعبرية، فكان متما كذلك لعمل دو سلان، ونشره سنة ١٩٥٣.

ووضع الأب أبانيس Abbanés، في مرسيليا، فهرسا عاما للمخطوطات الشرقية، ومنها العربية، وتم نشره في باريس سنة ١٨٩٢.

وصنع غوليوس أوتنغ G. Otting، سنة ١٨٧٧، فهرسا للمخطوطات العربية في جامعة ستراسبورغ.

وصنع لامبريشت Lambrecht، سنة ١٨٩٧، فهرسا للمخطوطات العربية في مكتبة المدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية.

ووضع فايد أيضا فهرسا للمخطوطات العربية في المكتبة التابعة للجمعية الآسيوية بباريس، ونشره في مجلة هذه الجمعية المعروفة باسم (المجلة الآسيوية) Journal Asiatique سنة ١٩٥٠.

ونلاحظ فيها سلف أن عددا من قاموا بوضع فهراس للمخطوطات العربية في

المكتبات الفرنسية المختلفة لم يكونوا فرنسيين صلبية وإنما كانوا دخلاء على الجنسية الفرنسية، من مثل: الشاميين بطرس دياب وباروت الأشقر، والإيطالي أماري، والاييرلندي دو سلان.

ولم يكن مجال الفهرسة محصورا، عند المستعربين الفرنسيين، على فهرسة المخطوطات العربية المتوفرة في المكتبات الفرنسية المختلفة التي رأيناها حتى الآن، وإنما امتد نشاطهم الفهرسي ليشمل وضع فهرس للمخطوطات العربية في مكتبات خارج فرنسا: سواء أكانت هذه المكتبات في بعض البلدان العربية أم بعض البلدان الأجنبية الأخرى.

ومن ذلك أن المستعرب الفرنسي ديرنبورغ ذهب إلى مكتبة قصر الإسكوريال Es-curial قرب مدريد بإسبانيا، في مهمة رسمية، لفهرسة ما فيها من مخطوطات عربية، فصنع لها فهرسا من جزئين نشر الأول منها سنة ١٨٨٤، وكان يتناول موضوعات النحو والبلاغة والشعر والآداب والمعاجم والفلسفة. ونشر الثاني سنة ١٩٠٣، وكان يتناول موضوعات الأخلاق والسياسة. وقد أكمل ليفي - بروفنسال Lévi - Provençal فهرسة هذه المخطوطات في المكتبة نفسها سنة ١٩٢٨، وكانت حصيلة ذلك جزءا ثالثا متما للجزئين الأولين. ثم نشر رينو Renaud، في سنتي ١٩٣٩ و ١٩٤١، فهرسا مكملًا لهذه الفهارس استنادا إلى بعض المذكرات التي خلفها ديرنبورغ نفسه.

وأما في البلدان العربية، فقد قام المستعرب رنيه باسيه R. Basset في الجزائر، بوضع فهرس لمخطوطات جلفا، نشره سنة ١٨٨٤ في نشرة (المراسلات الأفريقية) Le Bulletin de la Correspondance Africaine.

ووضع فانيان E. Fagnan فهرسا للمخطوطات العربية والتركية والفارسية في المكتبة الوطنية بمدينة الجزائر، ذيله بعناوين الكتب وأسماء المؤلفين والنسخ، ونشره في سلسلة الفهرس العام لمخطوطات المكتبات العامة في فرنسا سنة ١٨٩٣ في المجلد الثامن منها.

ثم وضع أوغست كور A. Courf فهرسا للمخطوطات العربية في المكتبات الجزائرية الرئيسية ، ونشره في الجزائر سنة ١٩٠٧ .

كما قام زنيه باسيه كذلك بوضع فهرس لمخطوطات مكتبة آل عظم في القيروان بتونس ، ونشره في نشرة (المراسلات الأفريقية) سنة ١٨٨٤ أيضا .

وقام روا B. Roy بنشر فهرس للمخطوطات التاريخية المحفوظة في مكتبي جامع الزيتونة (العبدلية والأحمدية) ، كما وضع كذلك فهرس المخطوطات والمطبوعات في مكتبة الجامع الكبير بتونس ، ونشره في تونس سنة ١٩٠٠ .

ووضع باسيه كذلك ، في مراكش ، فهرسا للمخطوطات العربية في مكتبي فاس ، ونشره في الجزائر سنة ١٨٨٣ .

ونشر جورج سالون G. Salmon فهرسا لمخطوطات إحدى المكتبات الخاصة في مدينة طنجة ، في مجلة (المحفوظات المراكشية) Archives Marocaines وذلك في سنة ١٩٠٥ .

ووضع ميار Mayard فهرسا للمصنفات المغربية في مدينة طنجة نشر في مجلة (العالم الإسلامي) La Revue du Monde Musulman في ستي ١٩١٧ و ١٩١٨ .

ووضع ديستان Destaing فهرسا للمخطوطات العربية في غربي أفريقيا ، ونشره في (المجلة الأفريقية) La Revue Africaine في السنوات ١٩١١ و ١٩١٢ .
و ١٩١٣ .

ونشر ليفي - بروفنسال أيضا ، في باريس سنة ١٩٢١ ثم في الرباط سنة ١٩٢٢ ، فهرسا للمخطوطات العربية في مدينة الرباط .

ووضع بلاشير R. Blachère ورينو فهرسا للمخطوطات العربية المستجدة في المكتبة العامة للمحمية الفرنسية بمراكش ، ونشراه في ستي ١٩٢٩ و ١٩٣٠ في مجلة (هسبيرس) Hespéris .

ونشر رينو كذلك فهرسا للمخطوطات العربية المتعلقة بالطب في مكتبة الرباط
ايضا، ونشره في نشرة الجمعية الفرنسية لتاريخ الطب سنة ١٩٢٣ .

كان هذا حديثا وافيا تقريبا عن نشاط الفهرسة الذي قام المستعربون في فرنسا
بتغطيته، وأما عن النقطتين الرابعة والسادسة من الجهود التي بذلها هؤلاء
المستعربون، وأعني بهما: تحقيق المخطوطات العربية وترجمتها، فقد كان لهم فيها باع
طويل، ويمكننا أن نقول بحق أنهم كانوا يتفوقون في ميدان تحقيق هذه المخطوطات
حتى وقت متأخر على كثير من محققينا العرب الذين تتلمذوا عليهم في العصر
الحديث ولكن هؤلاء التلاميذ سرعان ما لحقوا بأساتذتهم في هذا الميدان وضارعوهم
فيه ثم سبقوهم وانتزعوا راية التحقيق من أيديهم نهائيا تقريبا بعد أن توفرت للعرب
المحدثين كل الوسائل والإمكانات المطلوبة في نطاق هذا النشاط العلمي: من
جامعات تخرج أجيالا من الباحثين والدارسين المحققين المختصين، ومن توفر
المطابع العربية ذوات الحروف الجيدة والإخراج الجميل، ومن حاجة ماسة إلى إحياء
التراث العربي المخطوط حرصا عليه من الاندثار، ومن ازدهار الثقافة العربية
والإقبال على المطالعة والقراءة بشغف بانتشار التعليم المستمر والدائب على مختلف
الصعد بين أبناء العربية ونشوء أجيال جديدة متعطشة لكل فروع المعرفة القديمة
والحديثة .

وأما الأمر الذي يسر للمستعربين القيام بمثل هذا النشاط فهو وجود هذه
المخطوطات العربية تحت أنظارهم وفي متناول أيديهم في مكتبات بلدانهم أو مكتبات
المستعمرات التي يسيطرون عليها أيام الاستعمار الفرنسي لبعض البلدان العربية،
إضافة إلى وجود الرغبة الملحة لكشف العالم العربي وتوثيق الصلة به خدمة للمصالح
السياسية والاقتصادية والثقافية في آن واحد .

وكانت كنوز المخطوطات العربية قد لفتت الانتباه، منذ زمن بعيد، وأثارت
الاهتمام بمعرفة محتوياتها والإفادة منها . ففي سنة ١٧٨٥ كان الملك لويس السادس
عشر يفكر في تنفيذ مشروع هام يقوم على ترجمة كل مافي المكتبة الملكية من مخطوطات

شرقية، ومن بينها العربية، للاطلاع على ما فيها من معرفة يمكن أن تثرى الثقافة الفرنسية وتدفعها إلى الامام^(١). غير أن الزمن لم يمهله لتحقيق هذا المشروع الطموح، فطوي إلى أن جاء بعد ذلك مستشرقون ومستعربون كثيرون قدموا جهودهم منفردين أو متعاونين جزئيا في السبيل نفسه.

ويمكننا القول إن طباعة المخطوطات العربية قد سارت ببطء شديد ما بين سنتي ١٦٩٦ و١٧٧٩، أي طوال ما يقرب من تسعين سنة، حتى أنه لم ينشر خلالها سطر واحد باللغة العربية^(٢). غير أن الأمور انقلبت رأسا على عقب بعد ظهور المستعرب سلفستر دو ساسي الذي فتح بابا واسعا بها نشر من مخطوطات عربية لمن يريد سلوك هذا السبيل. فقد نشر في سنة ١٨٢٢ مقامات الحريري بمقدمة عربية، ونشر معها شرحا مختارا من مختلف الشروح القديمة لها. وكان قد نشر من قبل، سنة ١٨٠٦، كتاب (مختارات عربية) تتكون من ثلاثة أجزاء، متنا وترجمة، أطلق عليها عنوانا عربيا نصه: (الأنيس المفيد للطالب المستفيد)، مع بعض التعليقات. كما نشر نص (الفيه ابن مالك)، ومعلقة لبيد، وكتاب (كليلة ودمنة). فجاءت هذه الأعمال فاتحة عهد جديد مهم للمخطوطات العربية في فرنسا. إذ أخذت عمليات نشر المخطوطات العربية بعد ذلك تتوالى باطراد، ونشرت مختارات منها على نطاق واسع وفي شتى الموضوعات حتى بلغ عددها من الكثرة حدا يحتاج إلى دراسة خاصة به وحده مع ترجمات لأغلب مانشر منها.

ويبدو لنا، في المقابل أن المستعمرين، على وجه العموم، قد اتجهوا في السنوات الأخيرة إلى ترجمة المخطوطات العربية واعتنوا بها أكثر من عنايتهم بتحقيق نصوصها، تاركين للمحققين العرب أن يصلحوا ويحولوا في ميدانهم الأصيل^(٣)، إذ أن ميدان المستعمرين الأكثر أصالة هو الترجمة بلا شك، وهم أقدر عليها بطبيعة الحال من أي مترجم عربي لها إلى لغتهم مهما أوتي من مقدرة على إتقانها.

(١) انظر: Dugat (G.), Histoire des orientalistes de l'Europe, Paris, 1868, I, p. XXVI.

(٢) انظر: Carrière (A.), op.cit., p. III.

(٣) استقينا هذه المعلومة من نص رسالة كان قد بعث بها إلى المستعرب الفرنسي المشهور شارل بيلار بتاريخ ١٩٧٦/٢/١٠.

ولم تكن عملية نشر المخطوطات العربية أو ترجمتها تجرى عشوائيا بلا ضابط لها أو ناظم، بل كانت هنالك ضوابط وقواعد نشأت منذ أن بدىء بنشر هذه المخطوطات أو ترجمتها، ثم تطورت مع الزمن وترسخت وشاعت بين المستعربين، حتى أثبتتها جميعا المستعربان الفرنسيان ريجيس بلاشير وجان سوفاجيه J. Sauvaget في كتيّب نشر في باريس سنة ١٩٥٣، ليكون دليل عمل يهتدي به المستعربون عامة والناشئون منهم خاصة، ومن أجل توحيد المنهج المتبع والمصطلح المستعمل فيما بينهم. فجاء هذا الكتيّب على صغره ذروة تدل على نضج هذين النشاطين عند هؤلاء المستعربين، وعنوانه: (قواعد تحقيق المخطوطات العربية وترجمتها)^(١) Régles pour éditions et traductions de textes arabes.

ولم يكن المستعربون، في الواقع، يكتفون بنشر النص المخطوط أو ترجمته، وإنما كانوا يكتبون له مقدمات يحاولون فيها دراسة مضمون المخطوطة التي ينشرونها أو يعرفون بها وبمؤلفها وبمنهج تأليفها، وكانوا يضيفون على النص هوامش توضيحية لما فيه من إشارات تحتاج إلى توضيح، وكانوا يصنعون لهذا النص فهراس متنوعة تسهم في كشف محتوياته والإفادة من مادته قدر المستطاع، وتسهل عمل الباحثين فيه، وكانت هذه الفهارس تثبت في آخر النص عادة.

وإذا ما استثنينا، هنا، ذكر المخطوطات العربية ذوات الطابع الأدبي واللغوي، التي نشرها المستعربون الفرنسيون، نظرا لأننا سنتطرق إليها في فصل لاحق، فإننا سنحاول فيما يلي أن نلم بشيء من أبرز ما نشر المستعربون الفرنسيون من مخطوطات عربية أو ترجموا في مختلف الموضوعات البارزة التالية على سبيل التمثيل لها لا الحصر.

أ- في الإسلام

اعتنى المستعربون بنص القرآن الكريم، فترجموه مرارا إلى اللغة الفرنسية، ومن أبرز ترجماته إليها:

(١) وقد ترجمناه إلى العربية بالعنوان المذكور أعلاه مع إضافة عنوان فرعي توضيحي تحته هو (وجهة نظر الاستعراب الفرنسي) وتم نشره في دار الفكر بدمشق ودار الفكر المعاصر ببيروت سنة ١٩٨٨.

١ - ترجمة دوريه du Ryer (باريس ، ١٦٣٤) .

٢ - ترجمة سفاري Savary (باريس ، ١٧٨٣) .

٣ - ترجمة كازيميرسكي Kasimirsky (باريس ، ١٨٤٥) .

٤ - ترجمة ماردروس Mardrus (باريس ، ١٩٢٦) .

٥ - ترجمة مونتيه Montet (باريس ، ١٩٢٩) .

٦ - ترجمة بلاشير (باريس ، ١٩٤٩ - ١٩٥٠) .

وكانت كل ترجمة من ترجمات القرآن هذه تعاد طباعتها مرارا .

وفي مجال سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، قام ديفرجيه Desvergers باستخلاص ما ذكره منها أبو الفداء في تاريخه ، ونشره متنا وترجمة في باريس سنة ١٨٣٧ .

وترجم برون Perron (قصة المعراج) ونشرها سنة ١٨٥٤ ، كما نشر هو نفسه كتاب (المختصر في الفقه) لخليل بن إسحاق مع ترجمته في سبعة أجزاء بين سنتي ١٨٤٨ و ١٨٥٤ .

ونشر وليم مارسيه W. Marçais كتاب (التقريب والتيسير) للإمام النووي متنا وترجمة مع الشرح ، سنة ١٩٠٠ . وترجم كذلك (جامع الأحاديث) للامام البخاري في أربعة مجلدات ، وقد عاونه في الجزءين الأول والثاني هوداس Houdas ، وتم النشر بين سنتي ١٩٠٢ و ١٩١٤ .

ب - في التاريخ :

١ - كتاب (السلوك لمعرفة دول الملوك) للمقرئزي : وقد نشره كاترمير متنا وترجمة مع تعليقات غنية متنوعة ، في أربعة مجلدات ، بين سنتي ١٨٣٧ و ١٨٤٥ .

٢ - مقدمة ابن خلدون : وقد نشرها كاترمير أيضا متنا وترجمة ، ثم أعاد دوسلان

نشرها وترجمتها في ثلاثة مجلدات سنة ١٨٧٢ .

٣- مقدمة تاريخ بغداد للخطيب البغدادي : وقد نشرها جورج سالمون متنا وترجمة في باريس سنة ١٩٠٤ .

٤- تاريخ فتح الإنديس لابن القوطية : وقد نشره هوداس ، ثم قام بنشر مختارات منه مع ترجمتها في باريس سنة ١٨٨٩ .

٥- كتاب (الخطط) للمقريزي : وقد نشره ثلاثة مستعربين فرنسيين في سبعة أجزاء على التوالي ضمن منشورات المعهد الفرنسي في القاهرة ، فشر بوريان الجزء الأول سنة ١٨٩٥ والثاني سنة ١٩٠٠ . ونشر كازانوف الجزء الثالث سنة ١٩٠٦ والرابع سنة ١٩٢٠ . ونشر فييت الأجزاء الخامس والسادس والسابع بين سنتي ١٩١١ و ١٩٢٧ متنا وترجمة .

٦- كتاب (البدء والتاريخ) لابن مطهر المقدسي : وقد نشره هوار Cl. Huart متنا وترجمة في ستة أجزاء بباريس بين سنتي ١٨٩٩ و ١٩١٩ .

٧- مروج الذهب للمسعودي : وقد نشره دومينار متنا وترجمة في تسعة مجلدات ، وعاونه في الثلاثة الأولى منها دو كورتي de Courteille ، في باريس بين سنتي ١٨٦١ و ١٨٧٧ .

٨- كتاب (الروضتين) لأبي شامة : وقد نشره دو مينار أيضا متنا وترجمة سنة ١٨٨٨ .

٩- الفخري لابن الطقطقي : وقد نشره ديرنيورغ بالتعاون مع أمار Amare متنا وترجمة .

١٠- تاريخ حلب لابن العديم : ترجمه بلوشيه سنة ١٩٠٠ .

١١- فتوح شمالي أفريقيا والأندلس لابن عبدالحكم القرشي : وقد نشره غاتو Gateau متنا وترجمة في (كراسات تونس) Cahiers de Tunis بين سنتي ١٩٣١ و ١٩٣٢ .

- ١٩٣٩ . ثم أعاد تحقيقه ونشره مع الترجمة منقحا وفي مجلد واحد سنة ١٩٤٨ .
- ١٢ - مذكرات الأمير عبدالله آخر ملوك غرناطة : وقد نشرها ليفي - بروفنسال متنا وترجمة بين سنتي ١٩٣٦ و ١٩٤٠ .
- جـ - في الجغرافيا :
- ١ - نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للإدريسي : وقد نشره بخرائطه جوير - Jau bert متنا وترجمة في جزئين بباريس بين سنتي ١٨٣٦ و ١٨٤٠ .
- ٢ - تقويم البلدان لأبي الفداء : وقد نشره كاتمرير بالتعاون مع ديرنبورغ ودو سلان سنة ١٩٤٠ .
- ٣ - المسالك والممالك للبكري : وقد نشره دو سلان متنا وترجمة في باريس سنة ١٨٥٧ .
- ٤ - تحفة النظار في غرائب الأمصار لابن بطوطة : وقد نشره سانغيتي - San guinetti على نفقة الجمعية الآسيوية بباريس في أربعة أجزاء متنا وترجمة ، مع جزء إضافي للفهارس (الطبعة الأولى بين سنتي ١٨٥٣ و ١٨٥٨ ، والطبعة الثانية بين سنتي ١٨٦٩ و ١٨٧٩ ، والطبعة الثالثة بين سنتي ١٨٩٣ و ١٨٩٥) .
- ٥ - المسالك والممالك لابن خرداذبة : وقد نشره دومينار متنا وترجمة سنة ١٨٦٥ .
- ٦ - رحلة ابن جبير : وقد ترجمها غودفروا - Gaudefroy Démonbynes ديمومين ونشرها بين سنتي ١٩٥٣ و ١٩٥٦ .
- ٧ - كتاب (البلدان) لليعقوبي : ترجمه فييت ونشره في منشورات المعهد الفرنسي بالقاهرة سنة ١٩٣٧ .
- د - في الفلسفة :
- ١ - قصة حي بن يقظان : وقد نشرها ليون غوتيه L.Gauthier متنا وترجمة في الجزائر سنة ١٩٩٠ ، وفي بيروت سنة ١٩٣٦ ، وفي باريس سنة ١٩٣٧ .

٢ - الكشف في مناهج الأدلة لابن رشد : وقد ترجمه غوثيه أيضا ونشره في باريس سنة ١٩٠٥ .

هـ - في الفلك :

١ - جامع المبادئ والغايات في علم الميقات لأبي علي المراكشي : وقد نشره لوي سيديو L.Sédillot متنا وترجمه في جزئين في سنتي ١٨٣٤ و ١٨٣٥ .

٢ - مقدمة كتاب (الكواكب الثابتة) لأبي الحسين الرازي : وقد نشرها متنا وترجمه كوسان دوبرسفال Caussin de Perceval سنة ١٨٣١ .

و - في الرياضيات :

١ - كتاب (خلاصة الحساب) لبهاء الدين العاملي : وقد نشر ترجمته مار Marre في باريس سنة ١٨٦٤ .

ز - في الزراعة والطبيعية والحيوان والنبات :

١ - كتاب (الفلاحة الأندلسية) لابن العوام : وقد نشره موليه Mullet في ثلاثة أجزاء بين سنتي ١٨٦٤ و ١٨٦٧ .

٢ - ملخص في الطبيعيات عن القزويني : وقد نشره موليه أيضا سنة ١٨٥٤ .

٣ - كتاب (الصناعتين في تربية الخيل) لأبي بكر البيطار : وقد ترجمه برون في ثلاثة أجزاء بين سنتي ١٨٥٢ و ١٨٦١ .

٤ - كتاب (كشف الأسرار عن حكم الطيور وأؤها) لابن غانم القمدي : وقد نشره دو تاسي de Tassy متنا وترجمه في باريس سنة ١٨٢١ .

٥ - قسم الحيوان من (رسائل إخوان الصفاء) : وقد ترجمه دو تاسي أيضا سنة ١٨٦٤ .

ح - في الطب :

١ - كتاب (الطب النبوي) لجلال الدين أبي سليمان داود : وقد نشر ترجمته برون سنة ١٨٦٠ .

- ٢ - أقسام من كتاب (التصريف) للزهراوي : وقد ترجمها ليكليرك سنة ١٨٦١
- ٣ - كتاب (الجلدي والحصبة) للرازي : وقد ترجمه ليكليرك أيضا بالتعاون مع لينوار سنة ١٨٦٦ .

٤ - كتاب (الحاوي في علم التداوي) لنجم الدين الشيرازي : وقد نشره غيغ Guigue متنا وترجمة في بيروت سنة ١٩٠٣ .

وما ذكرناه آنفا من مخطوطات عربية حققت أو ترجمت ليس سوى غيض من فيض مما نشره المستعربون الفرنسيون أو ترجموه من تراثنا العربي الغني والواسع في مختلف ميادين المعرفة النظرية والعملية .

وقد كان لنشر أمهات المخطوطات العربية في فرنسا خاصة وأوروبا عامة نشرا محققا ، أثر عميق في إحياء تراثنا وإظهاره للنور على أوسع نطاق ممكن للإفادة منه ، وقد أدى ذلك إلى تطوير نهضتنا الحديثة ودفعها إلى الأمام أشواطاً بعيدة . ويرى الأستاذ الرئيس محمد كرد علي أنه «لولا عناية المستعربين بإحياء آثارنا لما انتهت إلينا تلك الدرر الثمينة التي أخذناها من طبقات الصحابة ، وطبقات الحفاظ ، ومعجم ما استعجم ، وفتوح البلدان ، وفهرست ابن النديم ، ومفاتيح العلوم ، وطبقات الأطباء ، وأخبار الحكماء ، والمقدسي ، والاصطخري ، وابن حوقل ، والهمذاني ، وشيخ الریوة ، وابن جبير ، وابن بطوطة ، إلى عشرات من كتب الجغرافية والرحلات التي فتحت أمامنا معرفة بلادنا في الماضي ، وبها وقفنا على درجة حضارتها . ولولا أحيائهم تاريخ ابن جرير وابن الأثير وأبي الفداء واليعقوبي والدينوري والمسعودي وابن أبي شامة وابن الطقطقي وحزرة الأصفهاني وأمثالهم ، لجهلنا تاريخنا الصحيح ، وأصبحنا في عماية من أمرنا ، ولو جئنا نعدد حسنات دواوين الشعر أو كتب الأدب والعلم التي أحيوها لطلال بنا المطال»^(١)

وقام المستعربون الفرنسيون بأنشطة أخرى أيضا حول المخطوطات العربية

(١) انظر مقالة : أثر المستعربين من علماء المشرقيات في الحضارة العربية لمحمد كرد علي ، في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، مج ٧ ، ١٩٢٧ ، ص ٤٥٥ .

وخدمتها، كنسخ مخطوطات معينة منها لأهميتها أو لتعذر الحصول عليها مباشرة، وهذا النشاط داخل في النقطة السابعة التي رأيناها آنفا. وقد كانوا يكلفون بهذه المهمة أحيانا بعض العرب من أمثال ميشيل صباغ المصري الذي ارتبط اسمه بمدرسة اللغات الشرقية الحية بباريس منذ سنة ١٨١٠ إلى سنة وفاته ١٨١٦ بصفة (ناسخ للمخطوطات العربية المستعارة من المكتبات الأخرى من خارج فرنسا).

وكان دوساسي قد كتب إلى وزير الداخلية في ٣ أيلول من سنة ١٨٠٧ رسالة يقول فيها: «منذ زمن طويل وأنا أرغب في أن تضع الحكومة في خدمتها ناسخا للغات الشرقية، ولا سيما العربية...»، ويشهد في الرسالة نفسها بجمال خط ميشيل صباغ ويثني على معارفه الأدبية الجيدة، ويذكر أن زميله لانغليس Langlès يشاطره الرغبة في استخدامه في هذا المجال، ويبدو أن الوزير استجاب لهذا المطلب، ولذا يجد المرء مجموعة من المخطوطات العربية المنسوخة بخط ميشيل هذا، وهي لا تزال محفوظة إلى اليوم في المكتبة الوطنية بباريس^(١).

ويمكننا، مع ذلك، أن نعترف هنا بندرة قيام المستعربين الفرنسيين أنفسهم بمثل هذه المهمة. غير أن ذلك لا يعني أن القيام بها كان معدوماً، ويعود سبب ذلك إلى صعوبة النسخ على كاتب غير عربي، كما يعود إلى إمكانية الحصول على المخطوطة المطلوبة بمختلف السبل من غير معاناة مشقة نسخها. حتى إذا تعذر أمر الحصول عليها، لكونها محفوظة وفي نسخة وحيدة، كان بالإمكان تكليف واحد من النساخ العرب بهذه المهمة للحصول على نسخة منها مقابل أجر معين، ويشترط في مثل هذه الحالة أن يكون خط الناسخ جميلاً وواضحاً كما رأينا آنفاً. إلا أن هذه الطريقة في تحصيل المخطوطات واقتنائها قد أهملت بعد تطور وسائل التصوير المختلفة هذا التطور السريع والهائل، إذ أصبح من الممكن الحصول على صورة كاملة وواضحة تماماً في وقت قصير وبتكاليف زهيدة نسبياً، وقد أصبح في مقدور الباحث أن يحصل على نسخة مصورة بأي طريقة يريد من أي مخطوطة في المكتبات العربية

(١) انظر: Carrière (A.), op.cit., p.XXI.

والعالمية . وكانت هذه الطريقة ناجعة في محاولة جامعة الدول العربية لاستعادة نسخ المخطوطات العربية من مختلف المكتبات الأجنبية في العالم لتوضع في النهاية تحت تصرف الباحثين العرب في كل مكان كما رأينا من قبل .

وأما ما يتعلق بمراجعة المخطوطات العربية ووضع خلاصات موجزة عن موضوعاتها وما تتضمنه من أفكار رئيسية - وهذا مضمون النقطة الخامسة من الجهود التي يقوم بها المستعربون الفرنسيون لخدمة المخطوطات العربية كما ذكرناها آنفا - فقد كان واضعو الفهارس يهتمون به على وجه الخصوص ، لأنهم كانوا يهدفون إلى وضع هذه المخطوطات تحت أنظار الباحثين كما هي وبأكبر قدر من الدقة والوضوح ، بغية عثورهم بسرعة على مبتغاهم منها أو على الموضوع الذي يريد كل منهم العمل في نطاقه .

وكان بعض المستعربين الفرنسيين ينشرون في بعض الصحف الاستشراقية العامة أو الاستعرابية الخاصة ، نبذاً واقتباسات من بعض المخطوطات تعطي فكرة عن هذه المخطوطات التي يتناولونها بالتعريف ، لتشجيع بعض الباحثين على خوض غمار تحقيقها ونشرها أو ترجمتها ، لشعورهم بفائدة ما تحتوي عليه ، ومن ذلك ما كان دوساسي يقدم من نبذ واقتباسات مختلفة ، منها على سبيل المثال ما يدور حول :

١ - كتاب (الكواكب السائرة في أخبار مصر والقاهرة) .

٢ - كتاب (البرق الياني في الفتح العثماني) .

٣ - كتاب (بلوغ المرام في تاريخ دولة مولانا بهرام) .

٤ - كتاب (الإعلام بأعلام بيت الله الحرام) .

وكثير من هذه النبذ والاقتباسات كان يتناول المخطوطات العربية التي تحتوي عليها المكتبة الوطنية بباريس ، في سلسلة هامة تدعى (نبذ واقتباسات) Notices et extraits .

وبهذا نكون قد ألمنا إلمامة شاملة بما يتعلق بالمخطوطات العربية في فرنسا عبر العصور المختلفة إلى اليوم ، ولعلنا بحدیثنا هذا قد وضحنا الصورة الحقيقية التي

رسمتها العصور المتوالية للمخطوطات العربية وحركة تنقلاتها من مواطنها إلى مختلف أنحاء العالم ، وتأمل أن نكون قد وفقنا إلى بيان المصير الذي آلت إليه هذه المخطوطات على أيدي العرب والمستعربين ، ليكون هذا كله حافزا لنا يدفعنا باستمرار إلى العناية بتراثنا المخطوط وإحيائه بالتحقيق والنشر ، بكل ما نملك من وسائل وقدرات علمية وفنية ومادية ، لخدمة هذه الأمة ولغتها خدمة جليلة خالدة .



الفصل الثالث تعليم العربية في فرنسا

كان إقبال بعض الفرنسيين على تعلم اللغة العربية أو تعليمها استجابة لظروف الاحتكاك بين فرنسا والمنطقة العربية، خلال فترة طويلة من الزمان تمتد من مطلع القرن الثامن الميلادي إلى اليوم، وكان كذلك تلبية للحاجة والمصالح والمطامع المختلفة. وقد أسهم كل ذلك - مع مرور الوقت - في ترسيخ تعليم العربية وفي تعزيز المؤسسات الأهلية والحكومية القائمة على هذا التعليم في فرنسا.

وكان نصيب العلماء الفرنسيين، خلال مرحلة الترجمة من العربية إلى اللاتينية، كبيرا في ميدان تعلم العربية وتعليمها في القرنين الثاني عشر والثالث عشر. وقد مر بنا أن المحرض الأول على الترجمة هو الفرنسي ريمون، مطران طليطلة، الذي أنشأ معهدا للمترجمين فيها لنقل علوم العرب إلى لغة العلم والثقافة والآداب آنذاك: اللاتينية.

وتطور الاهتمام بتعليم العربية بعد ذلك في عصر النهضة الأوربية، إذ قامت اللغات القومية واستقلت بنفسها للتعبير عن المعارف والعلوم والآداب المختلفة، ومن هذه اللغات الفرنسية المتفرعة أصلا من اللاتينية، فصرنا نرى بعض العلماء الفرنسيين يسعون إلى تعلم العربية، أو نرى الدولة تتوجه إلى تحريض بعض رعاياها على تعلمها وتعليمها، ليكونوا واسطة اتصال وتفاهم مع العرب في مختلف الميادين، وليعملوا تراجمة في مكتبة الملك ومراسلاته وسفاراته وقنصلياته في المنطقة العربية، وليشرفوا كذلك على مصالح فرنسا التجارية في الشرق العربي.

وكان من أسباب الاندفاع إلى تعلم العربية أيضا سقوط القسطنطينية، عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، وتهديد العثمانيين المسلمين لأوروبا المسيحية في أواخر القرن الخامس عشر والنصف الأول من القرن السادس عشر للميلاد. ولهذا نجد اللغة التركية تواكب اللغة العربية في أهميتها لدى الفرنسيين حتى أواخر القرن الماضي. ونضيف إلى هاتين اللغتين لغة إسلامية ثالثة، أن صح التعبير، هي الفارسية التي كانت موضع اهتمام الفرنسيين كذلك. وكان الاهتمام بكل لغة من هذه اللغات

مرتبطا بحاجة معينة تختلف قليلا أو كثيرا عن اللغتين الآخرين: فنرى، مثلا، أن تعليم العربية كان يهدف الاطلاع على الحضارة العربية، ونقل علومها، ومعرفة الإسلام وأسرار قوته عن كتب. وكان تعليم التركية لأنها لغة الدولة الإسلامية القوية التي تقف في مواجهة الغرب وتهدد مصالحه في حوض البحر الأبيض المتوسط على الأقل، واللغة التركية تيسر سبل الاتصال بأصحاب هذه القوة، وتجعل دراسة أحوالهم الاجتماعية والسياسية في متناول اليد. وكان تعليم الفارسية تعبيرا عن الرغبة في الاطلاع والكشف من جهة، وبناء العلاقات وتبادل المصالح واستغلال الصراع الدائر بين الدولة العثمانية والدولة الفارسية من جهة أخرى، بغية لفت انتباه العثمانيين إلى الوراثة وشغلهم وإضعافهم وتعميق الشرخ بين المسلمين ليكون بأسهم بينهم شديدا، وهذا كفيل طبعاً بإضعاف هبة الإسلام وتشويه صورته في نظر الغرب آنذاك. وكان العامل المشترك بين هذه اللغات الثلاث - كما نرى - أنها تشكل أبرز اللغات الفاعلة في تاريخ الحضارة الإسلامية، وتمثل في الوقت نفسه لغات أكثر الشعوب الإسلامية حيوية وتأثيراً في تاريخ العالم، كما أن هذه اللغات تمثل خط المواجهة الأول لأوروبا مع العالم الإسلامي الذي تنتمي إليه. وكان تعليمها في بداية الأمر لخدمة المصالح التجارية والعلاقات الدبلوماسية والأطباع الاستعمارية عند الفرنسيين، ثم تحول هذا التعليم أهدافاً أخرى كخدمة المعرفة الخاصة وإشباع حب الاطلاع وإغناء الثقافة الفرنسية بها لدى هذه الشعوب من آداب وفنون مختلفة.

وسنركز جهودنا، في الصفحات التالية في هذا الفصل، على دراسة تعليم العربية في فرنسا، مع الإشارة من بعيد أحياناً، وعند الضرورة، إلى تعليم اللغتين الآخرين، إذ أن المجال لا يسمح بالتوسع في ذلك. والجدير بالذكر هنا أن أكثر المستشرقين الفرنسيين الأوائل، وحتى بعض المتأخرين، كانوا يلمون بأكثر من لغة من هذه اللغات، بل قد يتقنون اللغات الثلاث معاً، ذلك لأن شعوبها كانت - عبر التاريخ الإسلامي - متداخلة ومتمازجة في الجوار والمصالح والتزاوج.

وسأحاول أن أسلط الأنوار على أهم المدارس والمعاهد التي أسهمت في تعليم العربية بقسط كبير أو صغير، وذلك من خلال التوسع في دراسة مؤسسات فرنسية

ثلاث كبيرة كان لها القدر المثل والفضل الأكبر في نشر العربية وتعزيز الدراسات العربية داخل فرنسا وخارجها على حد سواء، وهي بحسب تسلسل ظهورها على مسرح التاريخ:

١ - معهد فرنسا (أو الكوليج دو فرانس):

وهو بالفرنسية Le Collège de France، وأصله هو تلك المؤسسة التي أوجدها الملك فرانسوا الأول^(١)، سنة ١٥٣٠، باسم (القراء الملكيين) Les Lecteurs Royaux، وكان قيامها بنصيحة من غيوم بوديه^(٢) G. Budé، المشرف على مكتبة الملك: فخصّص قارئان للغة اليونانية، وثلاثة للغة العبرية التي كان الاهتمام بها دينيا محضا لدراسة العهد القديم، وواحد للرياضيات.

ثم أضيف إلى هؤلاء القراء، سنة ١٥١٤، قارئ للبلاغة اللاتينية. ثم أدخلت اللغات الشرقية الأخرى، غير العربية، في الفترة الممتدة من سنة ١٥٣٨ إلى سنة ١٥٤٣، على يد غيوم بوستل G. Postel، الذي يعد أول المستشرقين الفرنسيين بالمعنى العلمي المصطلح عليه للكلمة. وقد علم الملك فرانسوا الأول بمعرفته الجيدة للغتين العربية والتركية، وهو لا يزال في الرابعة والعشرين من العمر فألحقه بسفارته في تركيا لدى السلطان سليمان، وأمره أن يحضر معه إلى باريس كل ما يستطيع الحصول عليه من المخطوطات الشرقية النفيسة. ولما رجع إلى فرنسا، جعل العلماء والأشراف ورجال الدين يترددون عليه ويحيطون به إحاطة السوار بالمعصم. وقد عينه الملك سنة ١٥٣٨ مدرسا للغات اليونانية والعربية والعبرانية، ووهبه منزلا ومزارع

(١) فرانسوا الأول: عاش بين سنتي ١٤٩٤ و١٥٤٧، وكان ملكا على فرنسا من سنة ١٥١٥. وقد شجع في عهده الفنون وأسهم في انتصار النهضة الفرنسية. وسجل عهده بدايات الحكم المطلق Absolutisme في فرنسا.

(٢) غيوم بوديه: عاش بين سنتي ١٤٦٧ و١٥٤٠، وهو «إنسانياتي» فرنسي (أردنا كلمة «إنسانياتي» هنا ترجمة لكلمة Humaniste التي تعني: المرء الذي يستغرق جهوده في معرفة اللغات والآداب القديمة عند الشعوب المختلفة بلامتياز، وهي نسبة إلى «الإنسانيات» وهي الأمور المتصلة بالإنسان والإنسانية عموما.

وخيلاً^(١). غير أن غضب الملك عليه لبعض الشآن لم يُمكنه من الاستمرار في تدريس العربية.

ثم دخلت العربية ثانية إلى هذا المعهد على يد أرنول دوليسل A.de L'Isle، سنة ١٥٨٧، واستمرت كذلك إلى سنة ١٦١٣^(٢).

وكان هدف الملك فرانسوا من إنشاء مؤسسة القراء الملكيين هذه مقاومة العقلية الجامدة المسيطرة على جامعة باريس آنذاك، لأنها كانت تحتكر التعليم وتقتصر على أربع كليات هي: كلية اللاهوت، وكلية الحقوق، وكلية الطب، وكلية الفنون. وكانت ترفض كل تجديد أو تطور. وكانت ترى في اختصاصات هذه الكليات أجدى الدراسات وأنفع العلوم. كما كانت تتخذ من اللغة اللاتينية لغة وحيدة للدرس والتدريس والكلام. وكانت النزعة المدرسية (السكولاستية)^(٣) Sco-lastique الجمودية مسيطرة على دراساتها. وباختصار، كانت هذه الجامعة تحول دون أي عاولة لإصلاحها، وترفض في الوقت نفسه أن تصلح نفسها بنفسها. ولذا اضطر الملك إلى إيجاد منافس لها حر النزعة، لا يقيدته شيء سوى الحاجة والضرورة والتقدم، ولا يحول بينه وبين التطور شيء مسبق^(٤).

وقد ازدادت حاجة الناس، مع الانتشار التدريجي لروح النهضة في أوروبا، إلى تعرف روائع الآداب القديمة باللغات المختلفة عن طريق الترجمة. ولما كان موقف الجامعة الباريسية معارضا لكل ذلك، فقد نشأت مؤسسات تعليمية خارجها لتلبي هذه الحاجة الجديدة وتستجيب لها، ومن جملة هذه المؤسسات معهد (القراء الملكيين) هذا الذي كان يؤمن بأن دراسة اللغات تعيد المرء دائما إلى ينباع الأولى

(١) انظر. Dugat (G.), op.cit., I, p.XVII. وانظر أيضا: تاريخ دراسة اللغة العربية بأوروبا للمستعرب النمسي يوسف جير، ص ١٥ - ١٦.

(٢) انظر: Annuaire du Collège de France, 1975, p.6.

(٣) النزعة المدرسية: تطلق على التعليم الفلسفي واللاهوتي الخاص بالعصر الوسيط الأوربي، وكان قائما على التراث الأرسطوطاليسي الذي ترجمه علماء اللاهوت الغربيون. وتطلق كذلك على كل نزعة أصولية متحجرة أو جامدة لاتأخذ بالحسبان التطورات والمتغيرات ولا تراعي المستحدثات المعاصرة ولا الظروف الجديدة المختلفة.

(٤) انظر: op.cit., p.5.

للثقافات المختلفة ، وكان لوقوف الملك وراء هذا المعهد أهمية كبيرة في نجاحه ونجاح اتجاهه الجديد ، وقد أثبت هؤلاء القراء الملكيون فعلا طوال القرن السادس عشر أنهم خير من يمثل العلم الفرنسي في بلادهم . ومع أن هذا المعهد لم يكن يملك مقرا خاصا به ، فقد كان أساتذته هم الذين يبنون له كيانه المستقل وشخصيته المتميزة وتوجهه إلى الحرية ، وسعيه إلى التجديد والتقدم ، وهذه صفات ستظل ملازمة هذا المعهد طوال القرون التالية ، وهي ذاتها التي لا يزال هذا المعهد يعتز بها إلى أيامنا هذه ، مما يدل على حيوية الأسس التي قام عليها منذ نشأته الأولى .

وقد تكامل معهد فرنسا ونضجت تنظيماته في القرنين السابع عشر والثامن عشر للميلاد بازدياد عدد كراسيه باستمرار ، وقد ظهر اسم المعهد آنذاك على إعلانات دروسه باللاتينية كالتالي : (Collegium regium galliarum) ، وأصبح لهذا المعهد ، في زمن لويس الثالث عشر (١٦١٠ - ١٦٤٣) ، مقر خاص به في باريس (١) .

والمعروف عن هذا المعهد أنه كان يهتم بدراسة اللغات القديمة المختلفة شرقية كانت أم غربية ، حية أم ميتة : كاللاتينية ، واليونانية ، والعربية ، والعبرية ، والتركية ، والفارسية ، والسريانية ، والآشورية ، والسنسكريتية ، وغيرها ، من غير أن يتخصص بنوع منها دون الآخر .

وتميز المعهد كذلك بأنه كان يسهم إسهاما فعالا في جميع الأنشطة العلمية المعروفة في عصره . ولم يكن يكتفى بذلك ، وإنما أراد لنفسه أن يأخذ دورا طليعا ورائدا في دفع عجلة جميع فروع المعرفة إلى الأمام وتطويرها ، منذ قيام الثورة الفرنسية على وجه الخصوص . وكان يسهم أيضا في فتح سبل جديدة للمعرفة ، وفي ترسيخ سبل أخرى لها (٢) .

والفعاليات العلمية والعقلية والروحية والأدبية والفنية التي تدرس في هذا المعهد اليوم تتمثل في الاختصاصات التالية : الفلسفة ، والاقتصاد ، والسياسة ، والدين ،

(١) انظر : op.cit., p.6.

(٢) انظر : op.cit., p.8.

والفن، وعلم اللغة العام، والرياضيات، وما يتعلق بفرنسا من تاريخ وأدب وفن،
والقديم الكلاسيكي اليوناني والروماني، والفيزياء، والكيمياء، والتاريخ الطبيعي،
والعلوم البيولوجية، والطب، بالإضافة إلى مجال الاستشراق الواسع، ومن ضمنه
دراسة اللغة العربية وآدابها، وتاريخ العرب وحضارتهم، والإسلام ونظمه ومجتمعاته
وتراثه، وغير ذلك من الأمور التي تتعلق بحركة الاستعراب في فرنسا^(١).

وأقدم اللغات الشرقية التي دخلت إلى المعهد، كما رأينا آنفا، اللغة العبرية، في
حين أن تعليم العبرية فيه كان متقطعا حتى نهاية القرن الثامن عشر، إذ ظهر في
أواخره المستعرب الفرنسي المشهور سلفستر دوساسي، الذي يعد أبا الدراسات
العبرية في أوروبا قاطبة بالمعنى المصطلح عليه، فرسخ تعليم العبرية جيدا في فرنسا،
وكانت نتيجة ذلك استمرار هذا التعليم على أيدي مستعربين بارزين من تلاميذه
وتلاميذهم إلى يومنا الراهن.

ولا يمنح معهد فرنسا هذا درجات جامعية، ولا يجري لطلابه امتحانات، كما أن
دروسه ميسرة لكل راغب في متابعتها، وليس هنالك تسجيل ولا رسوم، وحرية
الوصول إلى قاعات التدريس فيه مكفولة للاستماع إلى ما يلقي فيها من محاضرات في
مختلف صنوف المعرفة والعلوم والاختصاصات. وليس المعهد عضوا في جامعات
باريس.

ويتم اختيار أساتذة المعهد إما من ذوي الشهادات والدرجات والألقاب العلمية
العالية والرفيعة التي تؤهلهم للتدريس في كرسي من الكراسي المتخصصة فيه، أي
من الذين يكونون مختصين بإداة أحد هذه الكراسي. وإما أن يختاروا من ذوي النبوغ
والاختراعات والاكتشافات والنظريات العلمية والأدبية المشهود بها، أو من البارزين
في ميدان البحوث، ويشترط في هؤلاء الأساتذة أن يكونوا أصحاب مؤلفات لها قيمتها
في مجال الاختصاص، أو أن يكونوا قد أضافوا شيئا جديدا ومتميزا إلى مسيرة العلم
وتقدمه أو فتحو بابا لم يكن مطروقا من قبل أو لم يكن معروفا، وفي هذه الأحوال لا

(١) انظر: op.cit., p.8-15.

يطلب المعهد منهم شهادات علمية أو جامعية، وإنما يكفي بها لهم من رصيد علمي وسمعة في الأوساط العلمية والثقافية، أو لما لهم من تأثير في الجيل المعاصر لهم، وأهم ما في هذا الاختيار أنه يتم بالتنافس بين مرشحين، وبانتخابهم من قبل هيئة الأعضاء القائمين في المعهد عند الاختيار.

وعدد الكراسي المختصة في المعهد غير ثابت، لأنه يزيد وقد ينقص بحسب توفر المدرس الكفاء أو المختص لشغل هذا الكرسي منها أو ذاك، إذ ربما أحدث كرسي خصيصاً لأستاذ، وربما أدت وفاة أحد الأساتذة - بالمقابل - إلى إلغاء الكرسي الذي كان يشغله، نظراً لفقدان البديل أو الخلف المختص القادر على ملء الفراغ أو شغل هذا الكرسي الشاغر. وربما كان المخرج من هذا المأزق يتم بتحويل تسمية هذا الكرسي الشاغر ليتلاءم مع اختصاص أستاذ قريب من مادة اختصاص الأستاذ السابق إلا أنه لا يطابقه تماماً. ومن هذا نستنتج أيضاً أن تسميات الكراسي المختصة غير ثابتة كذلك لأنها خاضعة للظروف. وللاستاذ ذي الكرسي سلطان مطلق في تقرير المنهج الذي يتبعه، وفي اختيار الكتب أو الموضوعات التي يدرسها، وفي الأخذ بالطريقة الخاصة به التي يريتها للتدريس^(١).

وقد خصت هذه المؤسسة العلمية الفرنسية الهامة الاستعراب بمكانة لائقة به بين الدراسات الاستشراقية الأخرى الكثيرة فيها، فأدت بذلك خدمات جلى للثقافة الفرنسية، ووصلتها بشكل أو بآخر بآثار الثقافة العربية في كثير من المجالات.

ولا بد لنا من أن نوضح هنا أن أساتذة العربية في هذا المعهد كانوا يتكونون، قبل القرن التاسع عشر، بأشكال مختلفة: فبعضهم كان يكون نفسه بنفسه مستعرباً، وخاصة قبل سنة ١٦٦٩ التي شهدت ظهور المدرسة الثانية تاريخياً لتكوين المستشرقين والمستعربين، وهي مدرسة (فتيان اللغات)، ومنذ ذلك الحين صار أساتذة العربية في المعهد يأتون من هذه المدرسة. وفي القرن التاسع عشر، صار المستعربون يأتون للتدريس في هذا المعهد من عدة جهات: من بين الذين

(١) انظر: op.cit., p.19-21.

يكونون أنفسهم بأنفسهم، ومن مدرسة فتيان اللغات، ومن بين المتخرجين في المعهد نفسه، ثم من بين خريجي مدرسة اللغات الشرقية الحية، وهي ثالث المؤسسات الاستشراقية المهمة في فرنسا وكانت قد أنشئت سنة ١٧٩٥، وأخيرا من الأساتذة الذين تكونوا مستعربين في مدارس الجزائر وتونس والمغرب أو في معهدي القاهرة ودمشق.

وكان المستعربون قد أدوا دورا كبيرا في تعليم العربية في هذا المعهد. ولذا فإنني سأتناول بالذكر، هنا، طائفة منهم، سواء أكانوا ينتمون إلى الفترة المنقطعة لتعليم اللغة العربية قبل سنة ١٧٩٥، أم إلى الفترة المتصلة بعدها:

وأول هؤلاء المستعربين، أو لأقل المستشرقين على وجه الدقة، هو غيوم بوستل الذي كان يلم بالعربية وبعدد كبير من اللغات الشرقية والغربية أيضا، وقد قام بدور هام في ميدان الدراسات العربية في عصر النهضة. ويرى فيه غوستاف دوغا G.Dugat الذي أرخ لمستشقي أوربا عموما أنه أول مستشقي فرنسا على الإطلاق وفاتحة عهد جديد بما حاز من معرفة باللغات الشرقية لم تكن لعالم باحث قبله^(١). وكان بالفعل فريد عصره ووحيد دهره في الإلمام باللغات الشرقية، ومن أهمها: العربية، والعبرية، والتركية، والحبشية، والسريانية، والكلدانية أو الآشورية، والأرمنية. وباللغات الغربية القديمة والحديثة، ومن أهمها: اللاتينية، واليونانية، والإيطالية، والإسبانية، والبرتغالية. ويتفق مع دوغا في هذا الرأي المستعرب النمساوي يوسف جير^(٢)، ويذكر خلاصة حياة بوستل الحافلة بالعجائب والمغامرات والآراء الغربية، ويذكر ميله إلى الإسلام، ووقوفه على جسر رياتو Ri-alto بالبندقية (فينيسيا) وإعطا الناس، وهو يقول: «ينبغي لكل إنسان أن يكون تابعا لدين صالح، ومعنى ذلك أن يكون له دين مؤلف من مميزات الأديان الأخرى، (٣) (٤) سيما من الدين الإسلامي، ففيه من أجود الآراء وأحسنها»^(٤).

(١) انظر: Dugat (G.), op.cit., I, p. XVII.

(٢) انظر كتابه: تاريخ دراسة اللغة العربية بأوروبا، ص ١٥.

(٣) زدنا (٤) النافية للجنس لضرورتها في السياق ولا ارتباطها بـ (سيما) دوما، وهذا خطأ شائع في أحاديث الناس وكتابهم ينبغي التنبيه عليه والرجوع عنه.

(٤) انظر: تاريخ دراسة اللغة العربية بأوروبا ليوسف جير، ص ١٧.

ومن آرائه التي أحدثت ضجة أن المسيح عليه السلام سيظهر بشخص امرأة، وأنه لن يذوق الموت. وكان يدعو إلى لغة عامة جديدة تفهمها كل الشعوب الأوروبية للحيلولة دون الحرب فيما بينها(١).

وكان بوستل هذا قد رحل إلى المشرق العربي، وتعمق بالعربية، وجمع مخطوطات شرقية، ثم عاد إلى فرنسا سنة ١٥٣٨، واقفا نفسه على دراسة العربية، ولما لم يستقر به المقام في فرنسا بسبب آرائه الجريئة، فقد انتقل إلى إيطاليا، ثم إلى النمسا حيث عين سنة ١٥٥٢ مدرسا للعربية واليونانية في جامعة فيينا، ولم يطل عهده بهذه الجامعة، إذ تركها بعد ثلاثة شهور فقط، وولى هاربا بسبب آرائه أيضا من بطش رجال الدين، وعاد إلى فرنسا، فاتهم فيها بالعصيان الديني سنة ١٥٦٢، فقبض عليه ونفي إلى دير سان مارتان St-Martin إلى سنة وفاته ١٥٨١. ويقال أنه ارتجع إلى ربه وصلى أمره في هذا الدير، وكانت سنه عند الوفاة في حدود إحدى وسبعين سنة، نظرا لأن ولادته كانت سنة ١٥١٠.

ترك بوستل آثارا عديدة ذات أهمية، وخاصة في مجال الدراسات العربية، إلى جانب تعليمه العربية في المعهد من سنة ١٥٣٨ إلى سنة ١٥٤٣. ومن أبرز هذه الآثار: كتابه (النحو العربي) Grammatica arabica الذي نشره في باريس سنة ١٥٤٣. وكان قد نشر من قبل في باريس سنة ١٥٣٨ كتابا جمع فيه الحروف الهجائية للغات كثيرة منها العربية بعنوان (١) : Linguarum duodecim characteribus differentium alphabetum.

ومن أشهر الذين تولوا كرسي العربية في المعهد أيضا: أنطوان غالان الذي تلقى العربية فيه، واصطحب دو نوانتل، سفير فرنسا إلى الباب العالي سنة ١٦٨٠. وقد سافر بعد ذلك ثانية إلى المشرق بأمر من الوزيرين كولبير ولوفوا لجمع مخطوطات شرقية، ومن بينها مخطوطات عربية. وقد عين مدرسا للعربية في المعهد سنة ١٧٠٩،

(١) للتوسع في دراسة حياة بوستل وآثاره راجع:

Secret (F.), Guillaume Postel et les études arabes à la Renaissance, in: Arabica, t. IX, 1962, p.21-36.

وراجع أيضا: تاريخ دراسة اللغة العربية بأوروبا ليوسف جيرا، ص ١٥ - ٢٠ وكذلك (J.) Fuck

Diearbschen stadien in Europa, Leizig, 1955, p.36 - 43.

واستمر في التعليم إلى وفاته سنة ١٧١٥ . وكان قبل ذلك قد نشر ترجمته الشهيرة لمجموعة القصص العربية (ألف ليلة وليلة) من سنة ١٧٠٤ إلى سنة ١٧٠٨ ، فلقيت هذه الترجمة نجاحا كبيرا ورواجا واسعا وقبولا حسنا داخل فرنسا وخارجها على حد سواء ، وكان لها تأثيرات عميقة ، وسرعان ما أصبحت مصدر وحي وإلهام للأدباء والمفكرين والشعراء والفنانين في فرنسا خاصة وفي أوروبا عامة^(١) .

وعمل المستشرق فرانسوا بتي دولاكروا في تعليم العربية في المعهد من سنة ١٦٩٢ إلى سنة ١٧١٣^(٢) .

وتولى كوسال دوبرسفال ، سنة ١٧٨٤ ، كرسي العربية في المعهد ، وظل يشغله قرابة نصف قرن من الزمان إلى سنة ١٨٣٣ . ثم خلفه في هذا المنصب ابنه أرمان Ar-mand من سنة ١٨٣٣ إلى سنة ١٨٧١ .

ثم تولى على كرسي العربية في هذا المعهد ، بانتظام ، كل من المستعربين التالية أسماؤهم^(٣) :

١ - شارل فرانسوا دفريمري Ch.F.Défrémery من سنة ١٨٧١ إلى سنة ١٨٨٣ .

٢ - ستانسلاس غيار S.Guyard سنة ١٨٨٤ فقط .

٣ - بارييه دو مينار من سنة ١٨٨٥ إلى سنة ١٩٠٨ .

٤ - بول كازانوف P.Casanova من سنة ١٩٠٩ إلى سنة ١٩٢٦ .

٥ - وليم مارسيه W.Marçais من سنة ١٩٢٦ إلى سنة ١٩٤٣ .

٦ - وعندما أسند هذا الكرسي إلى مستعرب متخصص بالتاريخ العربي ، هو جان سوفاجيه ، تحولت تسميته إلى (كرسي تاريخ العالم العربي) ، وشغله من سنة ١٩٤٦ إلى سنة ١٩٥٠ .

٧ - ثم عاد فتحول بعد وفاة سوفاجيه إلى (كرسي اللغة العربية وأدبها) بإسناده إلى

(١) انظر : 7.p.1975, Annuaire du Collège de France

(٢) انظر مقالة : الدروس العربية في فرنسا لكليان هوار ، ترجمة : عبدالله رعد في : مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، مج ٥ ، ١٩٢٥ ، ص ١٥٨ .

(٣) انظر : 11.p.1975, Annuaire du Collège de France

المستعرب غاستون فييت G.Wiet من سنة ١٩٥١ إلى سنة ١٩٥٩ .

وقد أحدث سنة ١٩٠٢ (كرسي للمجتمع الإسلامي) وأسند إلى الفرد لوجاتلييه A.Le Gatelier حتى سنة ١٩٢٦ . ثم خلفه فيه المستعرب المشهور لوى ماسينيون L.Massignon من سنة ١٩٢٦ إلى سنة ١٩٥٤ . ثم تحولت تسمية هذا الكرسي إلى (كرسي علم الاجتماع الإسلامي) حين أسند إلى المستعرب هنري لاوست H.Laoust سنة ١٩٥٦ وشغله إلى سنة ١٩٧٥ . وبدءا من سنة ١٩٧٦ ، أسند إلى المستعرب المشهور أندرية ميكيل A.Miquel ، بعد أن تحولت تسميته إلى (كرسي اللغة العربية وأدبها) ، ولا يزال يشغله إلى اليوم .

وأحدث سنة ١٩٤١ (كرسي لتاريخ فنون الشرق الإسلامي) ، وأسند إلى البير غابرييل A.Gabriel ، فشغله إلى سنة ١٩٥٣ .

ومن استعراض قائمة أسماء المستعربين الذين شغلوا كراسي تتعلق بالعرب وحضارتهم ، يمكننا أن نلخص اتجاهات الدراسات العربية في معهد فرنسا بما يلي :

١ - الاتجاه اللغوي المهتم بدراسة العربية .

٢ - الاتجاه الأدبي .

٣ - الاتجاه التاريخي المهتم بتاريخ العرب والحضارة الإسلامية .

٤ - الاتجاه الاجتماعي .

٥ - الاتجاه الفني المهتم بدراسة الفنون العربية الإسلامية المختلفة (كالعمارة ،

والنحت ، والتصوير ، والرقوش ، والخط ، الخ) .

٢ - مدرسة فتيان اللغات :

وهي بالفرنسية L'École des Jeunes de Langues ، وكانت أسباب نشأتها أو الظروف التي دعت إلى ظهورها ، بحسب ما يذكر مؤرخوها^(١) ، تلك السياسة الإسلامية التي أخذت فرنسا تتبعها ، خدمة لمصالحها التجارية والسياسية ، منذ الحروب الصليبية إلى العصر الراهن ، وهي السياسة الفرنسية المتبعة مع المنطقة العربية

(١) انظر على سبيل المثال : Dupont-Ferrier (G.), Les Jeunes de Langues ou "Arméniens" à : Louis-Le-Grand, in: Revue d'études arméniennes, t.II, 1922, p.189.

والقوى البشرية التي تعيش فيها، إضافة إلى ما يجاورها من شعوب إسلامية أخرى .
ويذكر هؤلاء المؤرخون دافعا مهما لإنشاء هذه المدرسة يتلخص في قولهم إن العرب
والأتراك والفرس كانوا يترفعون، في القرنين السابع عشر والثامن عشر، عن تعلم
اللغات الغربية والتكلم بها، بتأثير من تقاليدهم الدينية، وعدم مبالاهم،
وغرورهم، واستخفافهم بأصحابها، فاستتبع ذلك ضرورة أن يلم هؤلاء الغربيون هم
أنفسهم بتلك اللغات الشرقية التي تتكلم بها هذه الشعوب الإسلامية الرئيسية
الثلاثة في منطقة الشرق الأدنى، بغية خدمة مصالحهم التجارية والسياسية وحمايتهم
عند هذه الشعوب . وهذا، كما نرى، رأى غريب، إذ ليس في تقاليد الإسلام ولا
تعاليمه ما يمنع من تعلم اللغات الأجنبية المختلفة ولا التكلم بها، بل إن في
أحاديث النبي (صلى الله عليه وسلم) ما يستشف منه الحث على تعلم لغات الأقوام
الذين يكون بين العرب وبينهم صلات جوار أو مصالح، ولو كانوا أعداء، أمنا
لمكرهم ودفعنا لشركهم وخدمة للمصالح معهم حماية لها . كما أن نظرة الإسلام إلى
اللغات الأخرى نظرة احترام وتقدير، لقوله تعالى: ﴿ومن آياته خلق السموات
والأرض واختلاف ألستكم واللوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين﴾ (١) .

ومن الأسباب المباشرة لإنشاء هذه المدرسة تلك التقارير التي كان التجار
الفرنسيون يرسلونها من المشرق العربي إلى ملك فرنسا لويس الرابع عشر، أو إلى وزيره
كولبير الذي عرف عنه طموحه العظيم إلى توسيع الأسطول البحري الحربي والتجاري
من أجل خدمة تجارة فرنسا الخارجية ومد نفوذها الاستعماري إلى مناطق جديدة
باستمرار، ولتنافس الأسطول الإنكليزي في أعالي البحار في مثل هذه الميادين جميعا .
وكانت هذه التقارير تشكو خيانة المترجمين الوسطاء من أهل البلدان الشرقية لمصالح
فرنسا التجارية، وبيئت عدم القدرة على الركون إليهم ولا الثقة فيهم، لا في
المحاكم، ولا في العلاقات الدبلوماسية أو الاقتصادية مع الباب العالي، مما يعرض
تجارة فرنسا وسياساتها لخطر جسيم إذا استمر كذلك في منطقة المشرق العربي وتركيا .
والجدير بالذكر، هنا، أن أغلبية هؤلاء المترجمين الوسطاء، الذين ذكرتهم التقارير،

(١) انظر : القرآن ، سورة الروم ٢٢/٣٠ .

كانوا من أبناء الطوائف المسيحية في المنطقة . وقد دفع هذا كله الوزير كولبير إلى التفكير في حل هذه المشكلة إلى أن اهتدى ، في سنة ١٦٦٩ ، إلى مشروع إنشاء مدرسة يكون هدفها تخريج مترجمين فرنسيين مخلصين في ولائهم لوطنهم ومليكهم ، تملأ بهم الوظائف الحيوية في الشرق ، ويكونون وسطاء بين التجار والسفراء الفرنسيين من جهة ، وأهل البلاد الناطقة بالعربية والتركية والفارسية من جهة أخرى^(١) .

وكانت فكرة هذه المدرسة تتلخص في إرسال فتيان فرنسيين من الناشئة إلى منطقة المشرق ، ليتعلموا اللغتين العربية والتركية بين أهليها مباشرة ، وفي أخذ عدد من الفتية المشرقيين ليتعلموا الفرنسية في باريس ، وينغرس في نفوسهم ، نتيجة ذلك ، حب فرنسا والإخلاص لها ، ويكون هؤلاء الأخيرون ملمين بإحدى اللغات الشرقية المرغوب فيها .

ونذكر هنا أن النية كانت متجهة في المرتبة الأولى ، إلى تلقين الفتيان الفرنسيين اللغة التركية ، لكونها لغة الحكم في هذه الإمبراطورية الكبيرة المسيطرة في المشرق : الدولة العثمانية . ثم جاءت العربية بعد ذلك لتحل في مكانتها البارزة جنبا إلى جنب مع التركية . وفي وقت لاحق دخلت الفارسية لغة ثالثة في اهتمامات هذه المدرسة .

وكان البرنامج الموضوع لتلاميذ المدرسة مثقلا جدا بالمواد المختلفة والمتنوعة ، التي زعم أنها الزاد الذي يحتاج إليه تكوينهم العقلي ، لكي يصبحوا مؤهلين لشغل منصب ترحمان في المستقبل . إذ كان هذا البرنامج الكثيف يشمل ، بالإضافة إلى اللغة التركية ، على لغات أخرى : كاليونانية الحديثة ، والإيطالية ، والإسبانية ، واللاتينية ، والعبرية . كما أنه كان يشتمل كذلك على دراسة للقانون التجاري ، ودراسة مقارنة لأخلاق أهل الشرق والغرب ، وعلى دراسات تاريخية وجغرافية للشرق ، ودراسة للعلوم الطبية ، والطبيعية ، والرياضية ، ولرسم^(٢) .

وإذا كان هذا البرنامج مثقلا ، نظريا ، إلى هذا الحد ، فإننا نلاحظ أنه لم يكن

(١) انظر : Dupont-Ferrier (G.), op.cit.t.II,p.189.

(٢) انظر : op.cit., t.II,190.

يطبق بحذافيره، وإنما كان، على الأغلب، مرنا يتلاءم مع طبيعة التلاميذ والأساتذة والفترة التي كانوا يمرون بها من حياة المدرسة.

وقد كان تلاميذ هذه المدرسة يُختارون من بين الأطفال، ليكونوا أقدر على التقاط اللغة وتشربها عن طريق السماع والممارسة معا، لأن ألسنتهم تكون أطوع لتلقي الألفاظ ونطقها باللغة التي يتعلمونها بدقة، كما أنها سريعة الانطباع في أذهانهم إلى حد إتقانها إتقان أهلها لها بلا أى فارق.

وقد فُتح أمام هؤلاء الأطفال، في المستقبل، باب الطموح على مصراعيه، إذ كان بإمكان أحدهم أن يحصل - بعد استكمال معارفه ونضجه - على منصب مستشار في إحدى القنصليات الفرنسية المنتشرة في مدن المشرق، وأن يصبح قنصلا لبلاده فيها.

وكان ملك فرنسا يتحمل تكاليف هؤلاء التلاميذ ونفقاتهم، على أمل تعويضها في المستقبل لدولته بما يؤدون لها من خدمات نافعة في ميدان الترجمة^(١).

وقد أطلق على هذه المدرسة اسم مدرسة (أطفال اللغات) *Enfants de Langues*، إلى جانب الاسم الذي مر بنا آنفا، وهذا الاسم الأخير ترجمة فرنسية لاسمها بالتركية، وهو: *dil oglan*^(٢).

وكانت هذه المدرسة قد مرت، منذ تأسيسها سنة ١٦٦٩ إلى أن اندمجت نهائيا، سنة ١٨٧٣، بمدرسة أحدث ظهورا منها هي مدرسة اللغات الشرقية التي ستحدث عنها لاحقا في هذا الفصل، بست مراحل مختلفة، أدخلت في كل منها تعديلات وإصلاحات وتطويرات جديدة تستهدف جميعا تحقيق المسار الأفضل للمدرسة، من أجل الحصول على نتائج جدية وجيدة، وعلى مردودات تخدم الغاية التي أحدثت لها. وفيما يلي عرض لهذه المراحل الست ولما تميزت به كل منها من سمات:

(١) انظر: op.cit., t.II; p.190-191.

(٢) انظر مادة. (Jeunes de Langues) في *Grand Larousse encyclopédique*.

المرحلة الأولى:

وتمتد من تأسيس هذه المدرسة سنة ١٦٦٩ إلى سنة ١٧٠٠ : وقد عهد فيها إلى الآباء الكبوشيين في كل من دير بيرا قرب استنبول، ودير أزمير^(١)، بأن يحتضنوا التلاميذ الذين حدد قرار سنة ١٦٦٩ عددهم بشمائية عشر تلميذا يختارون ما بين التاسعة والعاشر من العمر، غير أن هذا التحديد في السن والعدد لم يكن يراعى دوماً.

وكان تلاميذ هذه الفترة من أبناء الفرنسيين المقيمين في المشرق بسبب أعمالهم. وكان حظ العربية من التعليم في هذه الفترة معدوماً، لأن التركية هي اللغة التي كانت تلقن لهم مع شيء من الفرنسية واللاتينية واليونانية العامية والإيطالية.

وبعد وفاة كولبير بسنتين فقط، أي في ١٦٨٥، لم يجد المعتمد الفرنسي في استنبول مترجماً نافعا حتى في التركية، وهذا يعني أن المدرسة لم تثمر خلال هذه المرحلة في حياة مؤسسها كولبير.

وطرحت، سنة ١٦٩٨، فكرة إنشاء معهد في مدينة حلب لتعليم العربية لفتيان اللغات هؤلاء، ولكن الاعتقاد السائد آنذاك بأن اللغة التركية أسهل تعلماً من العربية بكثير وأكثر انتشاراً في منطقة المشرق، أدى إلى تغلب تعليم التركية^(٢).

المرحلة الثانية:

وتمتد من سنة ١٧٠٠ إلى سنة ١٧٢٠ : وقد أحدثت فيها مدرسة لفتيان اللغات هؤلاء بباريس ضمن معهد لويس الكبير، تحت إشراف الآباء اليسوعيين، وكان طلابها من الكاثوليك الشرقيين (اليونان، والأرمن، والسرمان)، ولما كان الطلاب الأرمن هم الغالبية فيها خلال هذه المرحلة، فقد عرفت المدرسة بهم، فقبل لها: (مدرسة الأرمن). غير أن النتيجة كانت، كذلك، مخيبة للأمال المعقودة على مثل

(١) كانت مدرسة (بيرا) أهم من مدرسة (أزمير) لقربها من العاصمة العثمانية والسفارة الفرنسية فيها.

(٢) انظر: Dupont-Ferrier (G.), op.cit.t.II,p.193-196.

هؤلاء الأرمن، لأنهم لم يخلصوا لمصالح فرنسا في قلوبهم ولم يصونها، وكان سلوكهم يخالف سلوك المبشرين. وظلت المدرسة القائمة في بيرا بتركيا مستمرة خلال هذه المرحلة^(١).

المرحلة الثالثة :

وتمتد من سنة ١٧٢١ إلى سنة ١٧٦١ : وتمثل هذه الفترة العصر الذهبي للمدرسة. إذ صدر فيها قرار بجعل التعليم في مدرستي باريس وبيرا مقتصرًا على أبناء الفرنسيين وأبناء التجار الفرنسيين المقيمين في المشرق، وحدد عدد الطلاب بعشرة في سن الثامنة يدرسون في باريس على يد الآباء اليسوعيين، ويتلقون مبادئ العربية والتركية، وينقلون من ثم إلى مدرسة بيرا، الواقعة في دير قرب إستنبول، ليتعمقوا أكثر في هاتين اللغتين. وهكذا حدث تواصل وتعاون بين المدرستين في هذه الفترة، بعد أن كانت إحداهما معزولة عن الأخرى تمامًا من قبل، وتجلت فائدة هذا التواصل في أن أبناء الفرنسيين في المشرق يتلقون اللغات الشرقية منذ ولادتهم بحكم النشأة والاختلاط بأهلها، ولذا كان بإمكانهم مساعدة أبناء فرنسيي فرنسا القادمين إليهم في تعلم هذه اللغات، في حين أن هؤلاء القادمين يقدمون، في المقابل، المساعدة إليهم في ترسيخ معرفتهم بلغتهم الفرنسية، فالمنفعة من هذا النظام مزدوجة ومتبادلة كما يظهر لنا^(٢).

وقد اقتصر الأطفال، في هذه المرحلة، على تعلم المبادئ الأولية للعربية والتركية، وقراءة النصوص بها^(٣). وتخرج فيها أيضا عدد من أكابر المترجمين الملمين باللغتين العربية والتركية، ممن سنجدهم آثارا عظيمة في تعليم العربية والتركية في كل من مدرسة اللغات الشرقية ومعهد فرنسا، وبمن سيراقدون نابليون في حملته على بلاد مصر والشام في أواخر القرن الثامن عشر^(٤).

(١) انظر : op.cit., t.II, p.197-204

(٢) انظر : op.cit., t.II, p.204-219

(٣) انظر : op.cit., t.II, p.217

(٤) انظر : op.cit., t.II, p.218

المرحلة الرابعة :

وتتمد من سنة ١٧٦٢ إلى سنة ١٧٩٦ : وقد شهدت هذه الفترة انحطاط مدرسة فتيان اللغات وحدث الانتفاضة الثورية في فرنسا . ووجد في هذه المرحلة جملة من أساتذة العربية والتركية المشهورين ، منهم : دوفين de Fiennes ، وكاردون Car-donne ، وفتور دو بارادي Ventoure de Paradis ، الذين كانوا من قبل طلابا في المدرسة . وقد تولى بعضهم التدريس في المعهد الملكي (معهد فرنسا) . وكان هؤلاء الأساتذة يعملون أيضا في مجال الترجمة المباشرة والوثائقية .

ولم يكن عدد الطلاب ، في هذه المرحلة ، يزيد في باريس على العشرة إلا نادرا^(١) . وقد انهار هذا العدد ، سنة ١٧٩٢ ، إلى طالب واحد فقط هو لوى ديغرانج^(٢) L.Desgranges ، وثلاثة طلاب في السنة الدراسية ١٧٩٣ - ١٧٩٤ ، وطالبين اثنين في السنة الدراسية ١٧٩٥ - ١٧٩٦ . وكان هؤلاء الفتية يقضون في المدرسة ما بين ثنائي سنوات وإحدى عشرة سنة حتى يصبحوا صالحين للعمل الذي كان في انتظارهم^(٣) .

وكان المرء يشعر ، منذ عهد لويس السادس عشر بل قبيل ذلك أيضا ، أن أهمية الترجمة كانت تزداد سنة بعد سنة . وكان لاختيار الترجمان الأول في استنبول ، في بعض الأحيان ، نتائج أكبر وأهم من اختيار السفير نفسه فيها .

وقد أضيفت اللغة الفارسية ، سنة ١٧٦٤ ، إلى جانب العربية والتركية اللتين كانت تدرسان وحدهما حتى هذا التاريخ ، في معهد لويس الكبير .

وأعلن في سنة ١٧٩٤ أن التعليم في مدرسة فتيان اللغات أصبح حرا كأي تعليم آخر ، بعد أن كانت المدرسة وقفا على بعض المختارين بالوساطة أو بالوراثة ، لا بالكفاءة والاستعداد غالبا . وكانت حكومة الثورة قد أغلقت معهد لويس الكبير

(١) انظر : t.II, p.220-221 , op.cit.,

(٢) انظر : p.9 , t.III, 1923 , op.cit.,

(٣) انظر : t.II, p.222 , op.cit.,

ومدرسة بيرا. وعلى الرغم من تأسيس المدرسة الوطنية الخاصة باللغات الشرقية الحية بباريس سنة ١٧٩٥ ، فقد استمرت مدرسة فتيان اللغات على قيد الحياة^(١).

المرحلة الخامسة :

وتمتد من سنة ١٧٩٧ إلى سنة ١٨٢٦ : ويطلق على هذه الفترة (فترة الانبعث)، لأن المدرسة نشطت ودبت فيها الحياة بعد فترة الهمود والركود التي مرت بها في المرحلة السابقة. وكانت مدرسة فتيان اللغات تابعة لوزارة العلاقات الخارجية، في حين أن مدرسة اللغات الشرقية كانت تابعة لوزارة الداخلية. وكانت هاتان المدرستان في باريس للاطلاع، وكانت مدرسة بيرا التي أعيد افتتاحها ثانية، بالإضافة إلى مدرسة طهران التي كان نابليون قد أمر بتأسيسها سنة ١٨٠٧ لتعليم اللغة الفارسية، مدرستين للتطبيق العملي والممارسة.

وقد تولى إدارة المدرسة في باريس في السنة الدراسية ١٧٩٧ - ١٧٩٨ فتتور دوبارادي، الذي رافق نابليون في السنة التالية مباشرة في حملته على مصر بصفة مترجم، ومات بعد فك الحصار عن عكا سنة ١٧٩٩، وخلفه في إدارة المدرسة أوغست شيول A.Chayolle إلى سنة ١٨٢٦.

وبلغ عدد طلاب المدرسة، سنة ١٨٠٣، أربعة وعشرين طالبا. ودرس العربية في هذه الفترة أنطوان ديغرانج A.Desgranges، ثم خلفه في تدريسها سنة ١٨٢٥ آغوب Agoub، ويبدو أنه أرميني الأصل. ومن الطلبة الذين كونتهم هذه المدرسة، وكان لهم باع طويل في ميدان الاستعراب فيها بعد، أرمان كوسان دوبرسفال^(٢).

المرحلة السادسة :

وتمتد من سنة ١٨٢٦ إلى سنة ١٨٧٣ : ويبدو أن المدرسة قد أخذت، في هذه المرحلة، تلفظ أنفاسها الأخيرة، لأنها كانت تفتقر إلى عوامل البقاء والاستمرار يوما

(١) انظر : t.II, p.226-232 op.cit.,

(٢) انظر t.III, p.10-18 op.cit.,

بعد يوم، وهذا ما نستشفه مما كتبه مديرها، سنة ١٨٣١، إلى وزير الخارجية إذ قال :
«يبدو أن مدرستنا تحتضر». كما ألغيت في هذه السنة نفسها مدرسة يراقرب
استنبول، مما أدى إلى ذهاب طلاب مدرسة باريس بعد ذلك إلى قنصليات فرنسا في
المشرق، ليقوموا بين أهالي البلاد ويدرسوا لغتهم ويطلعوا على أخلاقهم وعاداتهم
وتقاليد عيشهم عن كثب. وارتفعت أصوات أخرى تنذر بالشؤم لهذه المدرسة من
مثل : «مدرسة (فتيان اللغات) في باريس غير مجدية».

كان تدريس العربية قد أسند إلى جوير A.Jaubert، من سنة ١٨٢٦ إلى سنة
١٨٢٩، ثم أسند إلى آغوب من سنة ١٨٢٨ إلى سنة ١٨٣١، ثم إلى ديغرانج من
سنة ١٨٣١ إلى سنة ١٨٥٥، ثم إلى بافيه دو كورتي من سنة ١٨٥٥ إلى سنة
١٨٨٩.

وبما أن احتلال الجزائر، سنة ١٨٣٠، كان يبشر الفرنسيين بتوسيع السياسة
الإسلامية في فرنسا، فقد أنشأت الدولة كرسيا دائما لتعليم العربية أسند إلى آغوب
المذكور آنفا، إلا أن هذا الكرسي ألغي عندما غادر هذا الأخير باريس سنة ١٨٣١،
فعد ذلك دليلا على ارتباط مصير تعليم العربية في المدرسة بشخص معين لا بسياسة
ثابتة أو فكرة مستقرة ومستمرة^(١).

وقد لقي اقتراح جوانان Jouiannin، مدير المدرسة، بالاشتراك مع كل من
الأستاذين بيانكي Bianchi وديغرانج، بأن يرسل فتيان اللغات للإقامة سنة على
الأقل في ميناء تركي، ثم سنة أخرى في ميناء عربي (طرابلس أو بيروت غالباً)،
ترجيها من المسؤولين، فصادق عليه الملك لويس - فيليب، سنة ١٨٣٤. وكان على
القنصل في كل ميناء منها أن يختار لهؤلاء الفتيان أستاذ اللغة العربية أو التركية. وكان
على الفتيان أن يمتحنوا كل ستة شهور بإشراف القنصل نفسه.

واستمر هذا التنظيم إلى أن ألغي وحلت محله الدروس الملقاة في مدرسة اللغات
الشرقية الحية بباريس سنة ١٨٧٣، وهذا يعني أن طلاب المدرسة قد أصبحوا تابعين

(١) انظر: 28-24، t.III، p. cit., op.

عمليا للمدرسة الأخيرة. وهذا ما شجع على دمج مدرستهم، أخيرا، بالمدرسة الأقوى ودروسها الأعمق^(١).

وربما كانت فكرة إرسال بعض الطلاب الفرنسيين اليوم إلى كل من معهد القاهرة الفرنسي للدراسات الشرقية، أو إلى معهد دمشق الفرنسي للدراسات العربية، مستوحاة من الطريقة القديمة في إرسال الطلبة إلى المشرق العربي ليتربسوا عن كتب بكتابة اللغة العربية وتعلمها واستعمالها الحي بين أهلها.

وبهذا نجد أن مدرسة اللغات الشرقية قد امتصت شيئا فشيئا مدرسة فتيان اللغات، واستطاعت أخيرا أن تحتل مكانتها، وذلك لأنها تحمل أهدافها نفسها، وترمي إلى غاياتها نفسها، فأصبحت لذلك وريثها الشرعية في تعليم العربية والتركية والفارسية، بل تفوقت عليها بتدريس عدد آخر كبير من اللغات الحية المستعملة في أفريقيا والشرق الأوسط والأقصى في الوقت نفسه، وتوسع نشاطها ليشمل أيضا لغات أوروبا الشرقية نفسها، وبذلك أصبحت هذه المدرسة المؤسسة المسؤولة عن تكوين مترجمين وتترجمهم، استجابة لمختلف المناصب والوظائف والمصالح والخدمات التي تحتاج إلى مترجمين ووسطاء في نطاق الدولة أو على مستوى الأفراد على حد سواء.

وقد خرجت مدرسة فتيان اللغات، منذ تأسيسها سنة ١٦٦٩ إلى تاريخ اندماجها في مدرسة اللغات الشرقية سنة ١٨٧٣، أي خلال ما يقارب القرنين من عمرها، عددا من الطلاب يبلغ قرابة أربعمئة وثمانية وخمسين طالبا، تفاوتت مصائيرهم واختلفت ما بين مترجم وأستاذ ومُخَفِّق، وكان منهم قلة مشهورة وأغلبية مغمورة.

وكان من أهم مدرسي العربية والتركية معا، ومعها أحيانا الفارسية، أو من غير التركية أحيانا أخرى، منذ سنة ١٧٢١ إلى سنة ١٨٧٣، التالية أسماؤهم^(٢):

(١) انظر : op.cit., t.III, p.29

(٢) يمكن لمن يود الاستزادة من المعلومات الإحصائية أن يراجع القوائم المثبتة في آخر البحث الذي كتبه (دوبون-فرييه) ونشره في المجلدين الثاني والثالث من (مجلة الدراسات الأرمنية) المذكورة أعلاه. وتعلق هذه القوائم بالأساتذة وسنوات تدريسهم، وبالتلاميذ، وغير ذلك من الأمور.

- دوفين (الأب ثم الابن)
- بروت Berruth
- أرمان
- بتي دولا كروا (الكساندر)
- كاردون
- لوگران Le Grand
- روفان P. Ruffin
- فتور دوبارادي
- شبول
- ديغرانج
- أغرب
- جوير
- دو كورتي

٣ - المدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية :

وهي بالفرنسية L'École Nationale des Langues Orientales Vivantes ، وتعود فكرة إنشاء هذه المدرسة إلى لوي لانغليس الذي وجه بشأنها رسالة إلى الجمعية الوطنية الفرنسية سنة ١٧٩٠ ، أوضح فيها أهمية تعليم اللغات الشرقية للمصالح الفرنسية الحيوية ، واقترح إنشاء كرسي للعربية ، وثان للتركية ، وثالث للفارسية في كل من باريس ومرسيليا ، لخدمة السياسة والتجارة والعلم معا في فرنسا ، ويّين للجمعية في رسالته المهمة تلك أن المعهد الملكي في فرنسا (معهد فرنسا) لا تملك دروسه الأهلية المطلوبة لهذه الواجبات ، ورأى أن هذه المؤسسة كانت مخصصة للثناء على غرور الملك أكثر من خدمتها الخالصة للعلم والدولة ، غير أن مشروعة هذا أهمل في أدراج الجمعية من غير أن يكتب له أن يرى النور أو بصيصا منه ، حتى أعاد لانغليس عرض هذا المشروع ، مرة أخرى ، مع لاكنال Lakanal ، رئيس لجنة التعليم العام في الجمعية ، سنة ١٧٩٥ ، وقد أوضح لاكنال ، في تقريره حول الموضوع ، أن

اللغات الشرقية كانت مهملة في فرنسا منذ بداية القرن الثامن عشر، وأنها قد أهملت تماماً أيضاً في عهد الثورة، ثم برهن على انحطاط الدراسات الشرقية في فرنسا، ومنها الدراسات العربية، في الفترة الواقعة بين سنة ١٦٩٦ وسنة ١٧٧٩، بقوله أنه لم يطبع في فرنسا خلال الفترة المذكورة سطر واحد بحروف عربية^(١).

وبعد جلسة عاصفة ومناقشات حادة تمت الموافقة، في الجمعية الوطنية، على إنشاء المدرسة المقترحة، وصدر بذلك مرسوم ١٠ جرمينال^(٢) من السنة الثالثة (ويقابل هذا التاريخ ٣٠ آذار من سنة ١٧٩٥)^(٣). وقد نصت المادة الأولى من هذا المرسوم على تأسيس «مدرسة تخصص لتعليم اللغات الشرقية الحية ذات الفائدة الملموسة للسياسة والتجارة»، على أن يتم قيامها في نطاق المكتبة الوطنية التي أنشأها حكومة الثورة بباريس، وأطلق على هذه المدرسة اسم (المدرسة الخاصة باللغات الشرقية الحية)^(٤) L'École Spéciale des Langues Orientales Vivantes.

ونص مرسوم التأسيس هذا في المادة الثانية منه على تعليم اللغات الثلاث: العربية فصحي وعامية، والتركية، والفارسية. ونصت المادة الثالثة على وجوب أن يُعرّف مدرسو هذه اللغات طلابهم بالعلاقات السياسية والتجارية القائمة بين فرنسا والشعوب التي تتكلم بها. ونصت المادة الرابعة منه على وجوب تأليف أساتذة هذه اللغات كتباً في نحو هذه اللغات باللغة الفرنسية ليستفيد منها طلابهم الفرنسيون^(٥).

(١) انظر: Carrière (A.), op.cit., p.III-V.

(٢) وهو الشهر السابع في التقويم الجمهوري الذي وضعته الثورة الفرنسية، ويوازي في التاريخ الميلادي الفترة الممتدة من ٢١ آذار إلى ١٩ نيسان.

(٣) انظر: op.cit., p.III.

وانظر أيضاً: Blachère (R.), L'arabe littéral, in: 150e de l'E.L.O., Paris, 1948, p.47.

وكذلك: Deny (J.), L'École Nationale des Langues Orientales Vivantes, in: 150e :

de l'E.L.O., Paris, 1948, p.1.

(٤) انظر: op.cit., p.8-9.

(٥) انظر مواد هذا المرسوم في: op.cit., p.7.

وفي: Carrière (A.), op.cit., P.V.

وقد مربنا من قليل آنفا أن هذه المدرسة قد امتصت، بالتدريج، ومنذ نشأتها حتى سنة ١٨٧٣، تلك المدرسة التي سبقتها في الوجود بنحو قرن وربع القرن تقريبا، وهي مدرسة (فتيان اللغات)، واحتلت مكائنها وأدت دورها في إعداد أجيال متوالية من المترجمين لسد حاجات الوظائف العامة والخاصة التي تتطلبها المصالح الفرنسية، وخاصة في ميدان السياسة والاقتصاد التجاري والمجال العسكري الاستعماري الذي كان يشغل بال البرجوازية الحاكمة بعد الثورة الفرنسية^(١).

كانت هذه المدرسة تابعة لوزارة الداخلية، وظلت كذلك إلى سنة ١٨٣٢، ثم التحقت بوزارة التعليم العام، ثم استبدلت كلمة (الوطنية) nationale بكلمة (الخاصة) Spéciale، في تسمية المدرسة، في مرسوم صدر في ٨ حزيران من سنة ١٩١٤^(٢).

وفي بداية القرن التاسع عشر، راح الفيلولوجيون^(٣) يسعون إلى فرنسا من مختلف أنحاء أوروبا، كألمانيا وإيطاليا وإسبانيا والسويد وفنلندا، للاستماع إلى دروس المستعرب سلفستر دوساسي الذي عرفه بياريس الشيخ رفاعة الطهطاوي، أثناء بعثته إلى فرنسا، وعن ذلك يقول: «اجتمعت في باريس بفاضل من فضلاء الفرنسية شهير في بلاد الإفرنج بمعرفة اللغات الشرقية، خصوصا اللغة العربية والفارسية، يسمى البارون سلوستر دساسي»^(٤). وقد تخرج على يدي دوساسي هذا طلائع المستعربين الأوروبيين في القرن التاسع عشر، وكان هؤلاء المستعربون بدورهم يسرون فور عودتهم إلى بلدانهم على نهج أستاذهم وخطته ذات التأثير العميق في نفوسهم، وصاروا بذلك أساتذة لعدد كبير من المستعربين في أقطارهم، ممن تلقوا على

(١) انظر: op.cit., p.XXIII.

وقد ذكر كارير (في P.X) نبذة من خطاب لانغليس في طلبته يبين لهم فيها هدف التعليم في هذه المدرسة.

(٢) انظر: Deny (J.) op.cit., p.9-11.

(٣) الفيلولوجيون: هم العلماء الذين يعمدون إلى دراسة الحياة الفكرية لشعب من الشعوب أو لعصر من العصور من خلال النصوص التي تمثل تلك الحياة.

(٤) انظر: تحليل الإبريز في تلخيص باريز لرفاعة الطهطاوي، ضمن كتاب: أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي للدكتور محمود فهمي حجازي، ص ٢١٨.

أيديهم خلاصة نهج الأستاذ الأول دوساسي وروحه وحيويته في ميدان الدراسات العربية خاصة، والشرقية على وجه العموم. ولهذا كله عُدَّ دوساسي بحق مؤسس الدراسات العربية في أوروبا قاطبة، انطلاقاً من فرنسا، على قاعدة من الدراسة العلمية الراسخة للغة العربية والنصوص العربية المخطوطة في مختلف الموضوعات.

ومن أبرز أسباب شهرة هذا المستعرب وذويوع صيته في الآفاق، طوال القرن التاسع عشر، منهجه في الدراسة من نحو، وفي التدريس من نحو آخر. وكذلك عمق ثقافته وتنوعها، وشخصيته الإنسانية، وامتداد فترة تدريسه ما يقارب ثلاثاً وأربعين سنة (من سنة ١٧٩٥ إلى وفاته سنة ١٨٣٨)، وتخريجه لعدد كبير من الطلاب، الذين أصبحوا بدورهم أساتذة لغيرهم من الطلبة، كما أنه كون عدداً من المريدين والأتباع والمعجبين بطرائقه وآثاره وشخصيته. يضاف إلى ذلك كله شغله المناصب عديدة في مؤسسات علمية وتعليمية مختلفة، إلى جانب المناصب الإدارية في عدد من المؤسسات الأخرى^(١).

ومما يدلنا على أهمية دوساسي وتأثير شخصيته الفريدة في ميدان الدراسات العربية والشرقية على حد سواء، أن الناس شعروا، حين مات سنة ١٨٣٨، أن مدرسة اللغات الشرقية قد دفنت معه، لما كان له من هيمنة عليها، ولما ترك عليها من بصمات لا تمحى^(٢).

مر بنا، من قبل، أن مدرسة اللغات الشرقية هذه قد تم إحداثها في نطاق المكتبة الوطنية بباريس، وهذا يعني أن المخطوطات العربية والشرقية كانت في متناول الأساتذة والطلاب معا، وبسهولة، لتيسير عملهم في الدراسات، من غير عقبات ولا صعوبات. والمكتبة، كما هو مسلم به، هي الأداة الأولى للعمل والبحث. ولكن مشكلة وجود مكتبة خاصة للمدرسة لم تظهر إلى حيز الواقع إلا حين تم نقل هذه

(١) انظر: Deny (J.), op.cit., P.8. Blachère (R.), op.cit., P.49. Dugat (G.), op.cit., t.I, p.XLIV

(٢) انظر: Carrière (A.), op.cit. p.XXIII.

المدرسة ، بعد توسعها ، سنة ١٨٣٤ ، إلى مقر جديد ، ثم استفحلت هذه المشكلة أكثر بانتقال المدرسة ثانية إلى مقر آخر غيره في المدينة سنة ١٨٧٣ ، نظرا للبعد الذي كان بين المدرسة في مقرها الأخير والمكتبة الوطنية الباقية في مكانها ، إذ لم يعد بالإمكان استغلال الكتب والمخطوطات بسهولة لا من قبل الأساتذة ولا من قبل الطلاب . وهذا ما دفع المسؤولين في المدرسة إلى تأسيس مكتبة خاصة بها ، تظل في خدمتها وفي متناول الباحثين دوما وتنتقل معها إذا انتقلت (١) .

بدأت المدرسة دروسها ، كما هو معلوم ، باللغات العربية والتركية والفارسية ، لأنها لغات الشعوب الأكثر حيوية والأقرب إلى أوروبا ، وهي ذوات الصلة المباشرة بالمصالح ، وهي في الوقت نفسه أهم الشعوب الإسلامية في منطقة الشرق الأوسط أو الأدنى .

ثم تتالت بعد ذلك اللغات الشرقية في الدخول في حيز التعليم في هذه المدرسة وتنوعت : فأسس كرسي للعربية العامة المغربية سنة ١٨٢١ ، وتلاه كرسي للعربية العامة المشرقية سنة ١٨٩٩ ، وقد بقى هذا الأخير إلى سنة ١٩٣٤ ، ثم ألغي لأسباب اقتصادية ، وأعيد إنشاؤه ثانية سنة ١٩٤٧ (٢) .

وألغي كرسي العربية الفصحى في المدرسة بوفاة رينو Reynaud سنة ١٨٦٧ ، وكان خليفة دوساسي فيه منذ وفاته سنة ١٨٣٨ (٣) ، ثم أعيد إحياء هذا الكرسي سنة ١٨٧٩ على يد المستعرب هرتويغ ديرنبورغ (٤) وهو ابن المستعرب جوزيف ديرنبورغ ، فاستمر في منصبه هذا حتى وفاته سنة ١٩٠٨ (٥) .

وخلف ديرنبورغ ، في كرسي العربية الشاغر ، المستعرب غودفروا - ديمومين حتى سنة ١٩٣٥ . ثم خلفه فيه المستعرب الشهير ريجيس بلاشير حتى سنة ١٩٥٠ ، التي

(١) انظر : Derenbourg (H.), Silvestre de Sacy, Paris, 1895, p.23.

(٢) انظر : Deny (J.), op.cit., p-16-17.

(٣) انظر : Carrière (A.), op.cit., p. XLV.

(٤) انظر : op.cit., p.LI.

(٥) انظر : Blachère (R.), op.cit., p.50.

شهدت انتقال هذا المستعرب من مدرسة اللغات الشرقية إلى جامعة السوربون للتدريس فيها، فكان بذلك خامس من تولى هذا الكرسي في تلك المدرسة منذ تأسيسه سنة ١٧٩٥ إلى سنة ١٩٥٠^(١).

وقد استخدم في هذه المدرسة بعض العرب مدرسين أو معيدين للعربية الفصحى أو العامية، ومن هؤلاء المصري دوم رفائيل، المولود في القاهرة، وكان عضواً في معهد مصر، وكان قد أدى خدمات عظيمة للجيش الفرنسي أثناء الحملة على مصر، وكان راهباً، إذ عين أستاذاً مساعداً سنة ١٨٠٣ لإعطاء دروس عامة عن العربية العامية، مع مهمة العمل على ترجمة بعض المواد المتعلقة بتاريخ العرب وآدابهم من المخطوطات العربية في المكتبة الوطنية بباريس^(٢). وقد كانت ترجماته هذه التي كان يقوم بها تزود مؤلفي الكتاب الشهير (وصف مصر)، الذي صدر سنة ١٨٠٩، بالمواد الأولية الضرورية لموضوع هذا الكتاب. وكان هذا الراهب قد آثر النزوح عن وطنه إلى فرنسا مع الحملة العائدة التي تجر ذبول الخيبة، على البقاء فيه، لما كان يتظره بعد جلاء الحملة من مصاعب بسبب تعاونه مع الأجانب ومساعدتهم وتسهيل مهمتهم، وقد استمر في منصبه المذكور آنفاً إلى سنة ١٨١٦^(٣).

وقد أسند هذا المنصب نفسه، بعد دوم رفائيل، إلى مصري لاجئ آخر هو ميشيل صباغ، غير أنه توفي في السنة نفسها التي عين فيها، وهي سنة ١٨١٦، وكان قد كلف بإعطاء دروس تتعلق بالكتابة العربية ولفظها ومحدثاتها، وكلف أيضاً بالعمل في نسخ المخطوطات العربية المستعارة من المكتبات الأخرى خارج فرنسا^(٤).

(١) انظر: Cohen (D.), Régis Blachère (1900-1973), in: Journal asiatique, t.CCLXII, 1974, p.1-10, Éliséeff (N.), Régis Blachère (1900-1973), in: Arabica, T.XXII, 1976, P.1-5.

وانظر ترجمة النبذة الأخيرة في أول ترجمتنا كتاب بلاشية وسوفاجية: قواعد تحقيق المخطوطات العربية وترجمتها، ص ٢٣-٢٩.

(٢) انظر: Meuvret (C.), op.cit., P.395.

(٣) انظر: Carrière (A.), op.cit., P.XX.

(٤) انظر: Carrière (A.), op.cit., P.XXI. Meuvret (C.), op.cit., P.396.

واستمر هذا المنصب شاغرا، بعد وفاته، إلى أن عين فيه لاجيء مصري ثالث هو إلياس بقطر، سنة ١٨٢٠، وكان أيام الحملة الفرنسية يعمل مترجما في الجيش الفرنسي بمصر. وكان موضوع تعليمه هو العربية العامية^(١). غير أن حبل العمر لم يمتد به طويلا، إذ توفي سنة ١٨٢١، تاركا خلفه قاموسا فرنسيا - عربيا نشره فيما بعد المستعرب الفرنسي الذي خلفه في كرسي العربية العامية، وهو كوسان دو برسفال الابن، الذي تحدث عنه رفاعة الطهطاوي في كتابه (تخليص الأبريز) وسماه (كوسين دى برسوال) ووصفه بأنه «مدرس اللغة العربية المتداولة في المحاورات المشهورة باسم الداريجة عند العامة بدار كتب خاتنة السلطانية بباريس»^(٢)، وعقد معه صداقة بباريس. وقد استمر هذا المستعرب طويلا جدا في منصبه من سنة ١٨٢١ إلى سنة ١٨٧١، أي نصف قرن من الزمان، وكان قد ألف لطلابه كتابا في نحو العربية العامية^(٣). وكان دو برسفال قد خلف أباه في تعليم العربية الفصحى في معهد فرنسا، من سنة ١٨٣٣ إلى أن توفي - كما ذكرنا من قبل - سنة ١٨٧١^(٤).

وشغل دوسلان، بعد دو برسفال، كرسي العربية العامية في مدرسة اللغات الشرقية، وكان دوسلان هذا من المدرسة الجزائرية في الاستعراب. ثم خلفه فيه شربونو Cherbonneau من سنة ١٨٧٩ إلى سنة ١٨٨٢. ثم شغل هذا الكرسي إلى أن شغله المستعرب أوكتاف هوداس O.Houdas، من المدرسة الجزائرية نفسها، سنة ١٨٨٤، وظل فيه إلى سنة ١٩١٦. ثم خلفه فيه المستعرب وليم مارسيه إلى سنة ١٩٢٧. وكان هؤلاء المستعربون جميعا يهتمون بتدريس اللهجات العربية المغربية نظرا لكونهم ينتسبون إلى المدرسة الجزائرية في الاستعراب الفرنسي، وقد أسهموا في استكشاف هذه اللهجات ودراساتها إسهاما كبيرا^(٥)، تنفيذًا لسياسة استعمارية مكررة طويلة الأمد، ترمي في نهاية المطاف إلى فرنسة الجزائر ودول المغرب العربي التي

(١) انظر: Carrière (A.), op. cit., p. XXII.

(٢) انظر: تخليص الأبريز في تلخيص باريز لرفاعة الطهطاوي، ضمن كتاب: أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي للدكتور محمود فهمي حجازي، ص ٣٢٧.

(٣) انظر: Carrière (A.), op. cit., p. XXIII.

(٤) انظر: Colin (G.S.), op. cit., p. 107.

(٥) انظر: op. cit., 108-109. Carrière (A.), op. cit., p. LI.

أدخلوها في ظلال استعمارهم على التوالي .

وكان كرسي العربية العامة المشرقية قد أسند في سنة ١٩٠٩ إلى المستعرب بارتيليمي Barthélémy ، الذي وضع في سنة ١٩٠٣ قاموسا عربيا - فرنسيا لللهجات السورية ، من غير أن ينشره إلا في وقت متأخر . وخلفه في هذا الكرسي سنة ١٩٢٩ الراهب اللبناني ميشيل فغالي ، إلى أن ألغي - كما سبق أن قلنا - لأسباب اقتصادية سنة ١٩٣٤ . غير أن ميشيل هذا استمر في تعليمه تطوعا من غير مقابل حتى وفاته سنة ١٩٤٥ .

وكان هنالك معيد من أهل اللهجات العربية المشرقية المدروسة في المدرسة يعمل من سنة ١٩٠٩ إلى سنة ١٩٣٤ إلى جانب أستاذ العربية العامة^(١) . ثم صدر سنة ١٩٤٧ مرسوم وزاري بإعادة إنشاء كرسي العربية المشرقية في المدرسة وتم إسناده إلى المستعرب جان كانتينو J.Cantineau الذي اشتهر بمجموعة من الكتب حول عدد من اللهجات العربية العامة المشرقية والمغربية^(٢) .

وكانت دراسات تكميلية قد أنشئت سنة ١٨٧٢ تتعلق بتاريخ الدول الإسلامية وجغرافيتها وتشريعاتها ، وهو ما نصت عليه المادة التاسعة من مرسوم تنظيم المدرسة الصادر سنة ١٨٦٩ ، وأسندت دروسها إلى غوستاف دوغا . وقد أشار دوغا في محاضراته الافتتاحية إلى فائدة هذه الدراسات قائلا : «إنها ستسمح للطلاب بأن يدخلوا دخولا أعمق إلى حياة الشعوب الإسلامية» . ثم خلفه في هذه الدراسات ، سنة ١٨٨٦ ، هنري ديلونكل H.Deloncle . ثم جاء بعده رافيس Ravisse سنة ١٨٨٨ ، وظل في هذا المنصب إلى أن تحول إلى كرسي دائم سنة ١٩٢٦ ، فكان أول من تولاه حتى وفاته سنة ١٩٣٠ ، فأسند بعده إلى المستعرب غاستون فييت ، ولكن هذا الأخير انتقل إلى القاهرة ليتسلم منصب مدير المعهد الفرنسي فيها سنة ١٩٤٥ ، فحل محله مينورسكي H.Minorsky ، وهو عالم بالدراسات الإيرانية ، وحل فيه بعده

(١) انظر : Colin (G.S.), op.cit., p.110-111.

(٢) منها مثلا : Les parlers arabes du Horân, Paris, 1946.

كذلك جان سوفاجيه^(١) . وأما عن منهاج هذا الكرسي في السنوات الثلاث فكانت كما يلي :

١ - السنة الأولى كانت مخصصة لدراسة بدايات الإسلام والأنظمة الإسلامية وتاريخ خلافة الشرق والحركات الإسلامية الكبرى المعاصرة وجغرافية الجزيرة العربية .

٢ - السنة الثانية كانت موضوعاتها تتركز في الدراسة التاريخية لكل من إسبانيا (الأندلس) ، وأفريقيا الشمالية ، ومصر ، والهند .

٣ - السنة الثالثة كانت تهتم بدراسة بلاد الرافدين ، وفارس ، وتركيا .

وكانت المادة الرابعة من مرسوم تنظيم هذه المدرسة سنة ١٨٦٩ تنص على قيام نظام المعيدنين من أهل اللغة التي كانت تدرس في المدرسة ، من أجل تعميق درس هذه اللغات وترسيخها^(٢) .

كانت مدرسة اللغات الشرقية ، حتى سنة ١٨٣٠ ، تكون تقريبا علماء باحثين في هذه اللغات ، لا مترجمين عمليين يستجيبون فعلا للحاجات المادية الملحة ، ويعزى ذلك إلى قصور المناهج المتبعة في التدريس والتكوين ، لأن معظمها كان نظريا غير كاف لمهنة مترجم .

وكانت هنالك أمور كثيرة تلح على توسيع نشاط المدرسة ، كالتوسع الكبير الذي طرأ على العلاقات التجارية الفرنسية مع آسيا ، ثم تلك العلاقات الجديدة مع المنطقة العربية ، وخاصة بعد احتلال الجزائر ، ثم تونس ، ثم المغرب ، ثم سورية على التوالي خلال قرن من الزمان . كما أن توسع الحركة العلمية كان يلح على زيادة نشاط المدرسة أيضا . ونستطيع أن نقول باختصار أن العلاقات التجارية والسياسية

(١) انظر :

Drugeon (o) Géographie, histoire, institutions des États musulmans. in : 150e de L'E.L.O./ paris. 1948. p.389

(٢) انظر : Carrière (A.), op.cit., P.XLVII-XLVIII. Deny (J.), op.cit., p.10.

والاستعمارية والعلمية كانت جميعا وراء تطوير مدرسة اللغات الشرقية وازدهارها^(١).

ولم تقتصر المدرسة، نتيجة هذه الضغوط الداعية إلى توسيعها باستمرار، على تعليم اللغات الإسلامية الثلاث الأولى التي ذكرناها من قبل، بل توسعت لتشمل عددا جديدا من اللغات الإسلامية وغير الإسلامية من لغات الشرق، حتى أن بعض اللغات الواقعة في شرق أوروبا وفي أعماق أفريقيا أخذت سبيلها شيئا فشيئا إلى قاعات التدريس في هذه المدرسة ومعنى ذلك أن هذه المدرسة أخذت تشمل مساحات جغرافية متزايدة أكثر فأكثر على خريطة العالم القديم بقاراته الثلاث: آسيا، وأفريقيا، وأوروبا.

بلغ عدد اللغات في المدرسة، سنة ١٩٤٥، تسعا وثلاثين لغة حضارية أو ذات قيمة حضارية خاصة، وكلها لغات حية مستعملة أو لهجات لهذه اللغات. وهذا الامتداد الواسع جغرافيا أدى إلى عدم تطابق اسم المدرسة مع واقعها التعليمي، ولذا تعرض هذا الاسم لانتقادات كثيرة، وقدمت اقتراحات لتغييره: منها اقتراح جان دني J.Deny، مديرها في ذكرى تأسيسها المئة والخمسين التي احتفل بها سنة ١٩٤٥، وهو أن يطلق عليها اسم (المدرسة العليا للغات الحية)^(٢). ولكن تغيير هذا الاسم لم يتم فعليا إلا في أواخر الستينات، ليصبح (المعهد الوطني للغات والحضارات الشرقية)^(٣) L'Institut National des Langues et civilisations orientales.

وكان خريجو هذه المدرسة، الذين تكونوا فيها مستعربين أو مستشرقين، على أنواع: فمنهم دبلوماسيون يعملون في سفارات فرنسا وقنصلياتها في البلدان العربية، إما على أنهم سفراء وإما على أنهم مترجمون أو ملحقون ثقافيون، أو مستشارون.

(١) انظر: Carrière (A.), op.cit., p.XXXIV-XXXIX.

(٢) انظر: Deny (J.), op.cit., p.17.

(٣) انظر: Cahen (Cl.) et Pellat (Ch.), Les études arabes et islamiques, in: Journal asiatique, t.CCLXI, 1973, P.91.

ومنهم مستعربون بالمهنة ، وهؤلاء علماء وهبوا حياتهم للتدريس والبحث والتحقيق والترجمة والتأليف . ومنهم إداريون أو عسكريون يعملون في المستعمرات الفرنسية المختلفة إبان الفترة الاستعمارية . ومن المستعربين الفرنسيين اليوم من يعمل في وظائف ثقافية أو اقتصادية أو تجارية أو عسكرية أو إدارية أو استشارية داخل فرنسا وخارجها خدمة لمصالح الدولة أو الأفراد على حد سواء^(١) .

وهذه قائمة بأسماء مديري مدرسة اللغات الشرقية هذه منذ تأسيسها سنة ١٧٩٥ إلى سنة ١٩٤٥ ، التي توافقت الذكرى المئة والخمسين لهذا التأسيس^(٢) :

- ١ - لانغليس Langlès من سنة ١٧٩٦ إلى سنة ١٨٢٤ .
- ٢ - دو ساسي S.de Sacy من سنة ١٨٢٤ إلى سنة ١٨٣٨ .
- ٣ - جوبير A.Jaubert من سنة ١٨٣٨ إلى سنة ١٨٤٧ .
- ٤ - هاز Hase من سنة ١٨٤٧ إلى سنة ١٨٦٤ .
- ٥ - رينو J.Reinaud من سنة ١٨٦٤ إلى سنة ١٨٦٧ .
- ٦ - شيفر Ch.Schefer من سنة ١٨٦٧ إلى سنة ١٨٩٨ .
- ٧ - دومينار B.de Meynard من سنة ١٨٩٨ إلى سنة ١٩٠٨ .
- ٨ - بوير P.Boyer من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩٣٧ .
- ٩ - روك M.Roques سنة ١٩٣٧ فقط .
- ١٠ - دني J.Deny من سنة ١٩٣٨ —

كان نظام المدرسة يشترط على الطالب أن يكون حائزاً شهادة الثانوية الأدبية

(١) انظر: Mirambel (A.), L'École des Langues Orientales de Paris et les études d'orientalisme, in: Revue de l'enseignement supérieur, 1957, n°2, P.116.

(٢) انظر بداية المجلد الخاص بالذكرى المئة والخمسين للمدرسة :
Cent cinquantième de l'École des Langues Orientales, Paris, 1948.

للتسجيل في المدرسة . وكانت مدة الدراسة فيها ثلاث سنوات ، ينال الطالب في نهايتها دبلوما في اللغات الشرقية ، بحسب مرسوم سنة ١٨٦٩^(١) . وكان أول من حصل على هذا الدبلوم ، بعد صدور هذا المرسوم ، المستعرب المعروف كليان هوار ، في السنة الدراسية ١٨٧٢ - ١٨٧٣^(٢) .

وكان الحصول على هذا الدبلوم من المدرسة يتم بعد إجراء امتحان يشترط في الطالب أن ينال فيه درجة $\frac{14}{20}$ ، أي على نسبة (٧٠٪) من العلامة حدا أدنى في كل الفصوص الشفوية والتحريرية التي تجربها للطالب هيئة مؤلفة من أستاذ ومعيد وعضو خارجي ومن مدير المدرسة نفسه .

وكان نظام القبول يشترط في الطلاب إتمام السادسة عشرة من العمر، وأما الطالب الذي لا يحمل الثانوية ، وهي المطلوبة مبدئياً للتسجيل في المدرسة ، فكان يتعرض لفحص قبول خاص كان يُمكنه بعد اجتيازه بنجاح من التسجيل في المدرسة طالبا نظاميا .

وكان الطلاب في المدرسة صنفين : الأول طلاب نظاميون يفرض عليهم الدوام المستمر في الدروس والمحاضرات . والثاني طلاب مستمعون يعطون بطاقات تسمح لهم بحضور الدروس فقط .

وكان الطالب يسجل في المدرسة مرة كل سنة أو مرتين : مرة واحدة كل ستة شهور ، ويدفع رسماً معيناً لهذا التسجيل كان يبلغ مئة فرنك للسنة الواحدة ، ولم تكن هناك رسوم على الإمتحانات^(٣) .

وكان حملة دبلوم هذه المدرسة يحصلون على وظائف تكون عالية أحياناً في إحدى وزارات الدولة ودوائرها ، كوزارة الشؤون الخارجية ووزارة البحرية أو الحربية ، ووزارة الإعلام ، وغيرها^(٤) .

(١) انظر : Carrière (A.), op.cit., p.XXXVIII et XLVII.

(٢) انظر : op.cit., p.XLIX.

(٣) انظر : Deny (J.), op.cit., p. 11.

(٤) انظر : Carrière (A.), op.cit. O p .LII.

ولمدرسة اللغات الشرقية مكتبة عامرة بأنواع الكتب المطبوعة والمخطوطات، ولها منشوراتها الخاصة، وقد بدأت تنشر مجلة باسمها منذ سنة ١٩٦٤ تسمى (مجلة مدرسة اللغات الشرقية) *revue de L'École des Langues Orientales*، غير أنها توقفت عن الصدور، سنة ١٩٦٧، بعد العدد الرابع منها، وكانت مجلة حولية تصدر كل سنة مرة.

ولابد من وقفة قصيرة عند وصف اللغات الشرقية بكلمة (الحية) التي وردت في سياق إسم هذه المدرسة، لنقول إن استعمالها هنا جاء لقصر اتهامات المدرسة اللغوية على اللغات المستعملة في المجتمعات البشرية ولا تزال تحمل حيوية ونشاطا في مجالات جغرافية مختلفة من العالم، لما في معرفة هذه اللغات ودراستها من فائدة قريبة وعملية في خدمة العلاقات بين فرنسا والشعوب الناطقة بهذه اللغات. وتتميز هذه اللغات إذن بأنها تستعمل في الكلام الدارج، وتفهم على نطاق مجتمعاتها، وتستعمل في الكتابة والبحث والتأليف، كما تستعمل كذلك في القراءة أو الاستماع. وقد كان اهتمام المدرسة بمثل هذه اللغات مطابقا مطابقة تامة لاهتمامات مدرسة فتيان اللغات التي مرت بنا من قبل، ولكن على نطاق أوسع بكثير وأعمق وأقوى. وإذا كانت المدرسة قد حصرت اهتمامها بصراحة في اللغات الحية، فإننا نجد معهد فرنسا، في المقابل، يتولى تدريس مثل هذه اللغات الحية جنبا إلى جنب مع ما يسمى (اللغات الميتة) التي اندثرت منذ العصور الغابرة، كالمصرية والبابلية والآشورية إلى غيرها من اللغات القديمة المهجورة في أفريقيا وآسيا. وهكذا نرى أن مدرسة اللغات الشرقية هذه كانت هي المؤسسة العلمية والتعليمية الوحيدة المتخصصة بالدراسات الاستشراقية المختلفة، ومنها الدراسات العربية، فكانت خير مركز يصل ثقافة الشرق وصلا علميا ثابتا بالثقافة الفرنسية خاصة والثقافات الأوربية على وجه العموم^(١).

(١) انظر : *Revue de l'E.L.O.*, in: Mirambel (A.), *L'orientalisme d'hier et d'aujourd'hui*, t.I, 1964, p.4 marg. 1.

٤ - مؤسسات علمية أخرى للبحث في الدراسات

العربية وتعليم اللغة العربية :

كانت المؤسسات التعليمية الثلاث التي أتينا على الحديث عنها أنفاً من أبرز المؤسسات الاستيعابية والاستشراقية لتعليم اللغة العربية والاهتمام بحضارتها من هذا الجانب أو ذاك، وهي التي حملت لواء الاستعراب عشرات السنين فخرَّجَتْ أجيالا وطبقات من المستعربين الملمين بالعربية وحضارتها، وكانوا همزة الوصل بين العرب والفرنسيين، والجسر الواصل بين الثقافة العربية والفرنسية خلال أربعة القرون الأخيرة.

ولكننا لا نستطيع، مع ذلك، أن نهمل ذكر مؤسسات علمية وثقافية وتعليمية أخرى ظهرت، بالتوازي مع تلك المؤسسات الثلاث، داخل فرنسا وفي مستعمراتها السابقة، وكانت لها إسهامات كثيرة في مجال تنشيط حركة الاستعراب الفرنسي كما كان لها يد طويلة في العلاقات القائمة في الماضي - كما في الحاضر - بين فرنسا والأمة العربية، بل إن دورها في العلاقات المستقبلية بين الطرفين سينمو ويزداد باطراد ومن غير توقف، نظرا لتوثق هذه العلاقات مع ازدياد حاجة الفرنسيين إلى خدمة مصالحهم الحيوية الكثيرة المرتبطة بالطرف العربي واسع الامتداد على الجانب المقابل للبحر الأبيض المتوسط.

لن نقف طويلا عند هذه المؤسسات ولن نتعمق في دراسة نشأتها وتطورها وميادين نشاطها المختلفة، بل سنلم بها إلام تذكر، مارين بها مروراً سريعاً، ذلك لأنها غطت أكثر فروع الاستعراب ومعظم ألوان الدراسات العربية فيه : فخاضت في اللغة والأدب والتاريخ والدين والجغرافيا والاجتماع والسياسة والاقتصاد والعلوم والفلسفة والفنون وغيرها. ولكن ميزة هذه المؤسسات أن خوضها في عباب الدراسات العربية لم يكن، في أغلبه، خوض تلقين وتعليم للمبادئ الأولية والأسس، بقدر ما كان خوض بحث واستقصاء وتحليل واستنباط على أعلى المستويات.

وفيمما يلي أبرز هذه المؤسسات وأهمها :

- ١ - جامعة السوربون .
- ٢ - جامعات باريس والمعاهد والمراكز التابعة لها داخل فرنسا وخارجها : كمعهد الدراسات الإسلامية ، ومركز الدراسات العالية للإدارة الإسلامية ، ومركز دراسات الشرق المعاصرة ، والمعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق ، وغيرها .
- ٣ - المدرسة التطبيقية للدراسات العالية (وكانت قد أسست سنة ١٨٦٨) .
- ٤ - الجامعات الفرنسية في الأقاليم ، كما في : جامعة ايكس - آن - بروفانس ، وجامعة بوردو ، وجامعة مونيليه ، وجامعة ليون ، وجامعة ستراسبورغ ، وغيرها .
- ٥ - المركز الوطني للبحث العلمي بباريس .
- ٦ - مدرسة اللوفر (التي تأسست سنة ١٨٨٢) .
- ٧ - المدرسة الاستعمارية (تأسست سنة ١٨٨٩) التي تحولت إلى (مدرسة فرنسا ما وراء البحار) ، ثم أصبحت تعرف باسم (معهد الدراسات العالية لما وراء البحار سنة ١٩٥٩) .
- ٨ - المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة .
- ٩ - معهد الدراسات الشرقية في كلية الآداب بجامعة الجزائر (وقد تأسس سنة ١٩٣٤) .

ومن الطبيعي ألا يظن المرء أن هذه المؤسسات كلها باقية على ماهي عليه في أيامنا هذه ، ذلك لأن سنة الحياة والتطور تعمل فيها دائما ، فمنها ما اندثر ، وأصبح في ذمة التاريخ عبء لمن اعتبر ، ومنها ما اندمج في غيره وانصهر ، ومنها ما تغير اسمه وتجدد رسمه ووضعت له غايات غير الغايات الأولى وأنظمة غير الأنظمة المعمول بها فيه سابقا . بل ربما ظهرت إلى مسرح حركة الاستعراب مؤسسات غير ماهو مذكور هنا ولم يصل إلى علمنا خبره ضمن نطاق الاطلاع ، لأن ظروفنا كثيرة قد تغيرت وظهرت مابين العهدين اللذين مرت بهما فرنسا مع العرب : عهد سيطرتها على

مستعمرات عربية تابعة لها، وعهد استقلال تلك المستعمرات بنفسها من التبعية المباشرة لفرنسا. وهذا يعني أن تغيرات في طبيعة عمل حركة الاستعراب وآلياتها ستظهر إلى حيز الوجود وتكون لها فعاليتها المشروعة في رسم خريطة تلك الحركة وفق تصور جديد.

ونلاحظ، مما تقدم، أن فرنسا كانت مهتمة اهتماما كبيرا بالدراسات الاستشراقية والاستعرابية، فأقامت المؤسسات المختلفة داخل أراضيها وخارجها، خدمة للمصالح التي تحجبها منها في مختلف المجالات. وقد مر على فرنسا حيناً من الدهر كانت فيه أنشط الدول الأوربية وأكثرها حيوية في ميدان الاستشراق، وكان لها إسهام كبير في دعم الدراسات العربية ضمن ذلك الميدان على وجه الخصوص، بما قدم مستعربوها من جهود وأنشطة على مختلف الأصعدة.

وإذا كانت هذه المؤسسات العلمية أو التعليمية الاستعرابية مختلفة أو متباينة في الظاهر، وذات نزعات كثيرة متنوعة، فإنها، من حيث الجوهر، تؤدي إلى غاية واحدة، وتقوم بأدوار مختلفة في إطار حركة واحدة، وهي بالتالي متكاملة فيما بينها تعمل جميعاً من أجل سد الحاجات التي تتطلبها خدمة المصالح الفرنسية في علاقاتها مع البلدان العربية حاضراً ومستقبلاً.

٥ - دور المستعمرين في تعليم العربية وطرائقهم:

رأينا فيما مر بنا من قبل أن اهتمام فرنسا باللغة العربية أدى بها إلى إنشاء عدد هام من المؤسسات التي تعلمها أو تقوم بدراسات حول حضارتها في مختلف ميادين المعرفة. وتتميز هذه الدراسات حتى اليوم بأنها مستمدة من المصادر العربية مباشرة عن طريق ترجمة الآثار العربية نفسها إلى اللغة الفرنسية، وأن هذه الدراسات كانت تحليلاً لهذه المصادر وتعليقاً عليها من أجل فهمها أو المساعدة على هذا الفهم، كما كانت أيضاً تأليفاً قائماً على البحث والاستقصاء للوصول إلى نتائج وآراء تتعلق بالمؤلف نفسه استناداً على ما بين يديه من مستندات ونصوص ووثائق.

وكان من الطبيعي أن يشرف على مثل هذه الدراسات أناس مؤهلون للقيام بها

يكونون على اطلاع عميق أو جيد على اللغة العربية ، ومزودين بقدر واف من الثقافة العربية كليا أو جزئيا ، ونطلق على هذه الفئة اسم المستعربين ^(١) arabisants ، أي : الأجانب الذين يتعلمون العربية ويقومون بدراسات عنها وعن الحضارة العربية الإسلامية على وجه العموم .

ونبين ، هنا ، الدور الذي اضطلع به هؤلاء المستعربون في تدريس العربية لأبناء جلدتهم من الفرنسيين ، ونذكر بعض طرائقهم في تدريسها ، وهل كانوا يقصرون جهودهم على تعليم العربية الفصحى أو الكلاسية أو القديمة كما يسمونها ، أم أنهم كانوا يتعدونها إلى بعض اللهجات العربية العامية المنتشرة هنا وهناك في مشرق الوطن العربي ومغربه على حد سواء ؟

أوضح لانغليس ، في خطابه الذي ألقاه على طلبته ، سنة ١٧٩٦ ، أن هدف التعليم في مدرسة اللغات الشرقية هو تكوين تراجمة قادرين على الحلول محل أولئك الذين كانوا يعلمون العربية والتركية والفارسية ، في مدرسة فتيان اللغات ، أو تخرجوا منها وشغلوا مناصب رسمية في فرنسا أو خارجها ، ممن تركوا خدمة وطنهم ، بعد أحداث الثورة الفرنسية ، وفروا منه مهاجرين أو منحازين إلى صفوف أعداء الثورة في أوروبا ، ولذا يتهمهم بالخيانة ، ويصفهم بعدم الخجل من خدمة بعض الأمم المعادية لفرنسا ومصالحها ، ورأى أن تصرفهم هذا ضربة قاصمة لتجارة فرنسا في الشرق ، وخاصة إذا لم ينشأ جيل جديد من المترجمين المخلصين لبلادهم ، ليحلوا محل أولئك الخونة العاقين في أعمالهم ^(٢) .

وكان لانغليس يرى أن على أساتذة المدرسة ألا يقصروا دروسهم على عرض الأصول المتعلقة باللغة وشرح الصعوبات النحوية التي تعرض لهم في اللغة التي يدرسونها ، وإنما يجب أن يهتموا كذلك بتنمية العلاقات السياسية والتجارية لبلادهم مع الشعوب التي تتكلم هذه اللغات ، وكان مرسوم التأسيس قد بين في إحدى مواده

(١) انظر مادة (Arabisant) في قاموس : Larousse du XXe siècle .

(٢) انظر : Carrière (A.), op.cit., p.X.

أن على الأساتذة أن يعرّفوا طلابهم بالعلاقات المذكورة بين فرنسا والبلدان الناطقة
باللغات المدروسة في المدرسة^(١).

والمعروف أن معظم الترجمة المرتبطين بمناصب دبلوماسية وقنصلية في المشرق
العربي والمغرب قد تركوا الخدمة بعد حوادث الثورة الدامية. وفي الوقت نفسه تقريبا،
انسحب جميع طلاب مدرسة فتيان اللغات من معهد (لويس الكبير) بباريس، إذ
حولت الثورة اسمه إلى (معهد المساواة) Collège de L'Égalité، ولم يبق منهم فيه
سوى اثنين سنة ١٧٩٥^(٢).

كان معظم المستعربين الأوائل، في أوروبا عامة وفرنسا خاصة، فيلولوجيين،
بمعنى أنهم كانوا يتصدون للدراسة اللغة العربية وتاريخ العرب وحضارتهم كلها أو
في فترة من فتراتها التاريخية، عبر الكتب من خلال النصوص والوثائق المختلفة،
بعيدا عن الواقع الراهن أو الحي لهذه الأمة. وقد استمر هذا الاتجاه الفيلولوجي حتى
منتصف القرن التاسع عشر تقريبا، وكان الهدف من وراء ذلك هو الاستفادة من
كنوز التراث القديم في مختلف الميادين^(٣).

وجاءت الحملة الفرنسية على مصر لتكشف لأعين هؤلاء المستعربين الفيلولوجيين
حقيقة الواقع اللغوي فيها، إذ لحظ المرافقون للحملة منهم، أمثال ج. ج. مارسيل
J.-J. Marcel وفتور دوبارادي، وجود لغة عربية في بطون الكتب وعلى ألسنة العلماء
والمثقفين، وهي اللغة الفصحى، إلى جانب لغة أخرى، أو إن صح التعبير: عدة
لغات، متباينة الألوان والأصوات، تنتشر في البيوت والشوارع والأسواق على ألسنة
السواد المطلق من جماهير الناس، وهي اللهجات العامية. فأدركوا بذلك وجود
إزدواجية واضحة في اللغة المستعملة في مصر، وكانت هذه صدمة قوية لهم وكشفا
مهما عادوا به معهم إلى فرنسا ليذيعوه، وقد كانوا من قبل يظنون أن الناس في مصر

(١) انظر: op.cit., p.XI.

(٢) انظر: op.cit., p. VI.

(٣) انظر: Colin (G.S.), op.cit., p. 103.

يتكلمون تلك اللغة التي كانوا يرونها في بطون الكتب وتلقونها على أيدي أساتذتهم على أنها لغة الناس في حياتهم اليومية وفي مختلف شؤونهم.

وجاء احتلال الجزائر بعد قرابة ربع قرن من الزمان ليعزز لدى المستعربين الفرنسيين هذا الكشف ويُعمِّمونه على سائر البلدان العربية، إذ اكتشفوا وجود واقع لغوي في الجزائر مشابه للواقع الذي سبق لهم أن رأوه في مصر. وكان أول من أحس بهذه الازدواجية المترجم العسكري للجيش الفرنسي في الحملة على الجزائر: جواني فرعون، وكان من أصل لبناني.

ثم فوجئ المستعربون الفرنسيون بأن واقع اللهجات العامية في الجزائر يخالف لواقع اللهجات العامية في مصر، وتم لهم ذلك بالدراسة المقارنة بينهما لكشف مدى هذا التباين الحاصل. ودفعهم التوصل إلى هذه الحقائق إلى المبادرة بدراسة اللهجات العربية المشرقية تارة واللهجات العربية المغربية تارة أخرى، تبعا للأجواء السياسية المتقلبة في فرنسا، وتبعاً لتقلب المصالح أيضاً. وقد عمدوا إلى تدريس هذه اللهجات في مدرسة اللغات الشرقية بباريس، وفي المدارس الجزائرية التي افتتحوها لتعليم الفرنسيين العاملين في الجزائر من عسكريين ومدنيين عاملين في ميادين الإدارة والإعلام والتجارة وغيرها. وقد استعانوا، في بداية الأمر، بعرب مشرقين في سبيل تعريف المستعربين الفرنسيين اللهجات العربية في المشرق، من أمثال: دوم رفائيل، والياس بقطر. ثم تولى أمر تعليمها فرنسيون استطاعوا الإلمام بالعربية العامية بشكل من الأشكال، سواء أكان اجتهادا شخصيا كما فعل دوبرسفال، أم عن طريق العيش بين المواطنين العرب أنفسهم ومخالطتهم في حياتهم اليومية لاكتساب معارفهم الدقيقة باللهجة عن كثب، كما هي الحال عند معظم المستعربين الذين كانوا يتمتعون إلى المدرسة الجزائرية في القرن التاسع عشر، ومن أبرزهم: شربونو، وهوداس، ومارسيه. أو المدرسة المغربية، ثم المشرقية، فيما بعد^(١).

ولتسهيل دراسة اللهجات العربية العامية للفرنسيين، وضع بعض المستعربين

(١) انظر: op.cit., p.106.

معاجم عربية - فرنسية لبعض هذه اللهجات العربية ، كمعجم مارسيل الذى سماه (كنز المصاحبة) ، ونشره سنة ١٨٣٧ . ومعجم اللهجات الشامية الذي وضعه بارتيليمي ، ونشره سنة ١٩٠٣ .

صدر، سنة ١٨٦٩ ، مرسوم لتنظيم مدرسة اللغات الشرقية تنظيما جديدا ، وقد حدد، في مادته الثانية ، طبيعة الدراسات في المدرسة وهدفها قائلا: «إن هدف الدروس هو تعليم الطلاب القراءة والكتابة والحديث باللغات التي تعطى في المدرسة ، إضافة إلى تعليمهم الجغرافيا السياسية والتجارية للبلدان التي تستعمل فيها هذه اللغات» .

وطالب المرسوم ، في مادته الرابعة ، باستحداث نظام المعيديين الذين يتمون إلى أهل اللغة ليكلفوا «بمسؤول الطلاب وتدريبهم على المحادثة والقراءة بصوت عال»^(١) . وكان أول من تسلم هذا المنصب بعد صدور المرسوم سليمان الحرايري (al-Harairi) ، التونسي المقيم في باريس ، وحل محله ، بعد وفاته سنة ١٨٧٧ ، سلسلة من الشيوخ المصريين ، الذين كانوا يتمون عموما إلى البعثات العلمية الدراسية المصرية إلى باريس ، وبقي المصريون معيدين للهجات الشرقية حتى سنة ١٩٠٢ ، إذ أصبح المعيدون يعينون في هذا المنصب من أبناء المغرب العربي ، نظرا لتحول الاهتمام الفرنسي إلى منطقة المغرب آنذاك^(٢) .

وكان من المفروض على الطالب الذى يحمل دبلوم مدرسة اللغات الشرقية هذه أن يكون بعد تخرجه :

أ - قادرا على التكلم والكتابة بشكل مناسب باللغة التي درسها ، مع القراءة بسهولة ، وترجمة مقالات صحفية ونصوص أدبية معاصرة متوسطة الصعوبة .

ب - حاصلا على معارف مجملة قوية ومتناسكة عن علم اللغة التي يدرسها

(١) انظر : Carrière (A.), op.cit., p.XLVIII. Deny (J.), op.cit., p.10 :

Colin (G.S.), op.cit., p.111.(٢)

وعن تاريخ البلد الذي يتكلم أهله هذه اللغة، وجغرافيته، ونظمه، وحضارته الحديثة^(١).

ولتحقيق هذه الغايات جميعا يعرض الأساتذة على طلابهم البنية النحوية للغة التي يتعلمونها، ويدرسونهم نصوصها الأصلية، كما يقوم المعيدون بإجراء المحادثات، وترسيخ العلاقة القائمة بين السمعى والبصري^(٢).

ونستعرض، فيما يلي، بعض طرائق تعليم اللغات الشرقية، ولاسيما العربية، للطلاب في هذه المؤسسات التعليمية المختلفة التي مرت بنا حتى الآن: إما كما يحددها لنا المستعربون أنفسهم في دروسهم الافتتاحية، وإما كما يتحدث لنا غيرهم عنها من خلال مشاهداتهم حين كانوا طلابا عندهم، وفيها نتبين كيف كانت دروس العربية تعطى، وكيف كان الطلاب يتلقونها ويفيدون منها من الناحية العملية.

١ - أعلن (إلياس بقطر)، سنة ١٨٠٢، لطلبته عن مخططة في محاضراته فقال إنه سيركز على أربع نقاط هي: القراءة، والتفسير، والكلام، والكتابة. وأضاف إلى ذلك بعض التوضيحات فقال: بالقراءة سنفهم التلفظ بالكلمات. وبالتفسير سندرك المعاني المختلفة للكلمة واستعمالها وطريقة ترجمتها. وكل هذه المقدمات ستؤهلنا للكلام. وستكون هذه الأطوار جميعا مصحوبة بتمارين في الخط وفن تشكيل الحروف بالحركات والسكون عند المشرقين، وبدلا من إعطاء نظرية خاطفة عن طريقة لفظ كلمة ما، كما يحدث غالبا حتى الآن - فإنني سأتلفظ بهذه الكلمة أمام مستمعي، وأدعوهم من ثم إلى تقليدي، وأما موضوعات القراءة فسنختارها من نصوص المؤلفين ذوي اللغة السهلة والأسلوب الواضح حتى تكون في متناول الجميع^(٣).

٢ - وكانت طريقة (دوبرسفال)، في تعليم العربية العامة، هي أن يعرض أسس اللهجة نظريا، ثم يمارسها بالمحادثة عمليا، وأن يشرح لطلابه النصوص العامة

(١) انظر: 1957, L'École des Langues Orientales de Paris et les études d'orientalisme, in: Revue de l'enseignement supérieur, n°2, p.111

(٢) انظر: 119, p. cit., op.

(٣) انظر: XXII, p. cit., op. Carrière (A.).

المشورة ملحقا في كتابه عن النحو العربي العامي . ولم يقتصر الأمر على العامة ، بل تعداها إلى العربية الفصحى السهلة ، في كتب مثل (تاريخ نقولا الترك) و(ألف ليلة وليلة) و(قصة عنتره)^(١).

٣ - وعندما عين (برينيه) Bresnier أستاذا لكرسي العربية العامة في الجزائر، سنة ١٨٣٦ ، قرر على طلابه دراسة نحو اربينوس^(٢) Erpenius ، ونحو دوساسي ، ونحو دوبرسفال . وقد عرض منهجة في التعليم ، كالآتي : ثلاث جلسات لتمرين العربية المحكية ، وجلسة لمبادئ النحو والكتابة والأسلوب ، وجلسة لشرح النصوص العربية الأدبية والعلمية ، وجلسة لترجمة الآداب ، والأعمال الرسمية ، والكتابات المألوفة . وظل في تدريسه هذا إلى وفاته سنة ١٨٦٩^(٣).

٤ - وكان (شربونو) يعرض على طلابه ، في السنة الأولى ، نحو اللهجات العربية المختلفة ، ويقارن بعضها ببعض ، ثم يترجم شيئا من الأساطير والقصص الشعبية . وكان يتابع ، في السنتين الثانية والثالثة ، تفسير النصوص باللغة العربية الفصحى ، من خلال : (ألف ليلة وليلة) و(قصة عنتره)^(٤).

٥ - وقد أعلن (ديرنبورغ) ، سنة ١٨٨٢ ، في إعلان دروس العربية الفصحى التي سيلقيها ، في مدرسة اللغات الشرقية ، أنه سيعرض على طلاب السنة الأولى : أصول النحو العربي ، وسيقوم بتدريس موضوعات وتمرينات أولية للترجمة والتحليل . وأنه سيقوم بترجمة مقدمة كتاب (الفخرى) لأبن الطقطقي لطلاب السنة الثانية

(١) انظر: Colin (G.S.), op.cit., p.106.

(٢) اربينوس : واسمه توماس ، هولندي الأصل ، عاش بين سنتي ١٥٨٤ و١٦٣٤ ، درس اللغات الشرقية ، بما فيها اللغة العربية ، بجامعة ليدن بهولندا ، وقد وضع كتابا لقواعد العربية طبع سنة ١٦٣٦ ، ثم طبع بعد ذلك مرارا في ليدن وغيرها من مدن أوروبا ، وكان له فضل نشر دراسة اللغة العربية في أوروبا ، انظر كتاب : تاريخ دراسة اللغة العربية بأوروبا للمستعرب النمساوي يوسف جيرا ، ص ٢١ - ٢٢ .

(٣) انظر: Massé (II.), Les études arabes en Algérie (1830-1930), Paris, 1933, p.5-6.

(٤) انظر: Colin (G.S.), op.cit., p.108.

(حسب طبعة ألفارث Ahlwardt). وأنه سترجم لطلاب السنة الثالثة شيئا من (مقامات الحريري) مع الشرح المختار الذى نشره لها دو ساسي^(١).

٦- زار الدكتور فيليب حتي، سنة ١٩٢٣، مدرسة اللغات الشرقية بباريس، وحضر بعض دروس أستاذ العربية فيها، المستعرب المعروف (غودفروا - ديموميين)، ونقل لنا صورة عن طريقته فقال إنه يشرح قواعد النحو والصرف، وكتاب (السندباد البحرى) مرتين في الأسبوع لطلاب السنة الأولى. وكان كتاب الدراسة الذى يعول عليه طلاب السنة الثانية هو (ألف ليلة وليلة). وكان طلاب السنة الثالثة يدرسون القرآن ومقدمة ابن خلدون. وكان الأستاذ المعيد ابن حمودة (أحمدا) المصرى يعاونه في تلقين هؤلاء الطلبة اللهجة المصرية^(٢).

٧- ويذكر الدكتور حتي، في الزيارة نفسها أيضا، المستعرب (بارتيليمي) أستاذ اللهجات العامية المشرقية، ويشني على إجادته اللهجة الشامية وكأنه أحد أبنائها. وأشار إلى معاونه الأستاذ ميشيل بيطار، ذى المولد والنشأة اللبنايين. وكان يرى أن طريقة بارتيليمي مستحدثة في تلقين اللهجات العربية العامية. كما لحظ، في الوقت نفسه، أن معظم أساليب التدريس في سائر الصفوف بالمدرسة كانت تجرى على النمط القديم المؤلف الذى سار عليه آنذاك بحمل المستشرقين الأوربيين والأمريكيين في تدريسهم اللغات الشرقية^(٣).

٨- يرى ميرامبيل أن طرق تعليم اللغات كانت تشمل عموما: معرفة أصول اللغة، وشرح بعض النصوص، وإعطاء دروس لتسهيل قراءة المخطوطات من مختلف العصور، وتفسير النصوص المنتمية إلى عهود متفاوتة، ودراسة النحو التاريخي. ويرى أيضا أن لمادة التاريخ دورا هاما في تدريس الحضارة^(٤).

(١) انظر هذا الاعلان في آخر مقالة كاريير عن تاريخ مدرسة اللغات الشرقية.

(٢) انظر مقالة: يومان في باريس لفيليب حتى، في مجلة الهلال المصرية مج ٣٣، ١٩٢٣، ص ٨٤٣.

(٣) م. س، ص ٨٤٤.

(٤) انظر: Mirambel (A.), L'orientalisme d'hier et d'aujourd'hui, in: Revue de l'E.L.O., t.I, 1964, p.10 marg.1.

٦ - ملاحظات عامة :

ونختتم هذا الفصل بجملته من الملاحظات الضرورية حول عدد من جوانب تعليم العربية في المؤسسات الفرنسية وحول أساتذة هذه المؤسسات المستعربين :

كان في حركة الاستعراب الفرنسي مدرسة خاصة نشأت وترعرعت في الجزائر واستمرت ما بين نزول الفرنسيين في الجزائر وخروجهم منها ، أي أن عمرها كان يمتد قرابة مئة وأثنتين وثلاثين سنة ، وظل لها تأثيرها وأصدائها بعد ذلك ولا يزال ، وقد عرفت هذه المدرسة باسم (المدرسة الجزائرية في الاستعراب الفرنسي) ، ونحن ذاكرون هنا بعض كراسي العربية في الجزائر ، متطرقين إلى أبرز أعلام هذه المدرسة حتى ثلاثينات هذا القرن .

ترافقت نشأة المدرسة الجزائرية تقريبا مع بدايات الحملة الفرنسية على الجزائر سنة ١٨٣٠ التي كانت عاقبتها احتلال هذا القطر العربي الشقيق من بلدان المغرب ، ثم تطورت وترسخت مع ترسخ أوتاد هذا الاستعمار ، ونضجت الدراسات العربية في الجزائر نضجا كبيرا ، وتكون في الجزائر عدد طيب من المستعربين البارزين الذين عملوا في مجال التعليم والدراسات والوظائف المختلفة ، فبدلوا جهودا عظيمة لتقريب اللغة العربية والعرب وحضارتهم وتاريخهم إلى الفرنسيين لفهمهم أكثر ومعرفتهم معرفة أدق وأعمق^(١) .

كان جواني فرعون ، ذو الأصل اللبناني ، أول من تولى تعليم العربية للفرنسيين في مدينة الجزائر سنة ١٨٣٢ ، ثم خلفه في كرسي العربية ، سنة ١٨٣٦ ، المستعرب الفرنسي برينيه ، الذي استمر فيه حتى وفاته سنة ١٨٦٩ ، وهذه مدة طويلة كما هو

(١) انظر تفاصيل ذلك في : Massé (II.), Les études arabes...

وهي في الأصل مقالة مطولة نشرت في : La Revue africaine, Nos 356-357, 1933. وفيها تاريخ لحركة الاستعراب والدراسات العربية التي قام بها مستعربون فرنسيون في الجزائر خلال مئة سنة من الاحتلال ، والمعلومات التالية مستمدة في أكثرها من هذه المقالة ، نظرا لرصدها الأعمال الهامة التي أنجزها هؤلاء المستعربون .

ظاهر. ثم جاء بعده كومباريل Combarel من سنة ١٨٦٩ إلى سنة ١٨٧٤. ثم تولى هذا الكرسي ريشبي Richebé من سنة ١٨٧٤ إلى سنة ١٨٧٧، ثم خلفه فيه هوداس إلى سنة ١٨٨٤، وكان كرسي العربية، في عهده، قد انتقل إلى كرسي في نطاق (المدرسة العليا للآداب) في مدينة الجزائر. ثم خلفه فيه رني باسيه R. Basset، من سنة ١٨٨٥ حتى وفاته سنة ١٩٢٤، وفي عهده تحولت (المدرسة العليا للآداب) إلى (كلية الآداب) سنة ١٩٠٩ وكان عميدا لها منذ جرى هذا التحول.

وكان كرسي تعليم العربية الثاني في مدينة قسنطينة، وقد أنشئ سنة ١٨٤٦، وتولاه فينيار Vignard، وهو مترجم عسكري أصلا في الجيش. ثم تابعه فيه في السنة نفسها المستعرب شربونو، وبقي يشغله إلى سنة ١٨٦٣. ثم تولاه بعده ريشبي من ١٨٦٤ إلى سنة ١٨٧٩. وخلفه فيه بعد ذلك مارتان Martin من سنة ١٨٧٤ إلى سنة ١٨٨٩ ثم تولاه بعده المستعرب موتيلينسكي Motylinski حتى سنة ١٩٠٦. ثم تولاه المستعرب أوغست كور بعده.

واستحدث كرسي ثالث لتعليم العربية، سنة ١٨٤٦، في مدينة وهران، وقد تولاه هادامار Hadamard إلى سنة ١٨٥٥. ثم خلفه فيه كومباريل من سنة ١٨٥٥ إلى سنة ١٨٦٩ التي انتقل فيها إلى كرسي العربية في الجزائر بعد وفاة برينيه الذي كان يشغله. ثم تولاه هوداس من سنة ١٨٦٩ إلى سنة ١٨٧٧ التي انتقل فيها لشغل كرسي العربية في الجزائر سنة ١٨٧٧ خلفا لريشبي. ثم خلفه فيه ماشويل Ma-chuel من سنة ١٨٧٧ إلى سنة ١٨٨١. ثم جاء بعده دلفان Delphin، ثم موليراس Mouliéras.

وهناك عدد آخر من كبار المستعربين الفرنسيين الذين ينتمون إلى المدرسة الجزائرية نفسها، فيما بعد، نذكر من أبرزهم: وليم مارسيه، وغودفروا-ديمومين.

وضع معظم هؤلاء المستعربين، سواء داخل فرنسا أم خارجها، وهم الذين

مارسوا مهنة تعليم العربية الفصحى أو اللهجات العامية وعانوا من ذلك وخاضوا التجارب واكتسبوا الخبرات، وضعوا كتباً تعليمية لطلابهم تيسر لهم دراسة العربية واستيعابها في نصوص يختارونها، وتطبيقات وتمارين عملية ونظرية يرسمونها لهم بقصد إفادتهم وإغناء دروسهم.

ونلاحظ إن تعليم العربية الفصحى قد غلب عموماً على دروس المستعربين الفرنسيين وكان السمة الكبيرة المميزة له. ونلاحظ كذلك أن كثيراً من المستعربين الذين كانوا مكلفين بتعليم اللهجات العربية العامية الشرقية أو المغربية قد مالوا في أكثر الأحيان إلى تعليم العربية الفصحى، مهملين اللهجات العامية، كما حدث مع كبيرهم دوساسي، الذي كان يميل إلى الفصحى وحدها، مع أن تعليم العامية كان قد أسند إليه، وذلك لأنه لم يكن يفقه شيئاً من العامية لعدم اهتمامه بها، وقد مزج بعض المستعربين ما بين تعليم العربية الفصحى واللهجات العامية في وقت واحد في مؤسستين مختلفتين، كما فعل دوبرسفال الابن، على سبيل المثال، إذ تولى كرسي العربية الفصحى في معهد فرنسا، بعد أبيه، من سنة ١٨٣٣ إلى سنة ١٨٧١، كما مر بنا من قبل، وكان منذ سنة ١٨٢١ إلى سنة ١٨٧١ متولياً لكرسي العربية العامية في مدرسة اللغات الشرقية كذلك.

وكانت مؤسسات تعليم العربية للفرنسيين تلجأ منذ وقت مبكر إلى تطبيق تجربة الإقامة في المشرق في مدينة ساحلية أو داخلية، بغية تعمق طلابها في اللغة العربية فصحى وعامية إماماً عملياً مثمراً، كما فعلت مثلاً مدرسة فتيان اللغات التي كان لها في تركيا - كما مر بنا من قبل - مركزان: أحدهما في ديريرا قرب استنبول، والثاني في ميناء أزمير الواقع على بحر إيجه. وربما كانت هذه الإقامة في مدينة عربية محضة على الساحل أو في الداخل كذلك، ويتم ذلك عادة بإشراف القناصل المقيمين فيها، إذ يتوفر للطلاب بذلك فرصة ثمينة لا تعوض للإفادة من اختلاطهم المباشر بالناس في اكتساب معرفة عميقة بلغتهم ولهجاتهم وأخلاقهم وعاداتهم وتقاليدهم وفنونهم وطباعهم ومعتقداتهم، مما لا يتوفر مثله في أي مصدر آخر مكتوب، وهذه كلها حصيلة لا بد منها لطالب المعرفة العملية والواقعية الدقيقة بأي لغة من لغات العالم

قديما وحديثا على حد سواء ، ولذا كان هؤلاء الطلاب يسكنون في بيوت عربية مع بعض الأسر.

ويبدو أن الفرنسيين قد أفادوا من هذه التجربة إفادة كبيرة في بلدان المغرب العربي بعد احتلالها ، وطبقوها إلى حد ما في المعاهد الفرنسية في كل من دمشق وبيروت والقاهرة ، حيث يستقبل الطلاب الموفدون لدراسة العربية ، أو لمتابعة بحوث كانوا قد بدؤوا بها ، أو أطروحات يعملون على جمع مادتها أو جوانبها باستمداد المعلومات من مصدرها مباشرة . وكان بإمكان بعض المستعربين ، إضافة إلى كل ذلك ، أن يقوموا بزيارة البلدان العربية في المشرق أو المغرب ، وأن يقيموا في إحدى المدن العربية على حسابهم الخاص لتعليم العربية أو لإجراء دراسات وبحوث ميدانية (تاريخية ، أثرية ، فنية ، فولكلورية ، لهجائية ، إلخ) .

ونلاحظ ، من خلال اطلاعنا على حركة الاستعراب الفرنسي خاصة ، أن أغلب المستعربين الفرنسيين الذين حصلوا على منزلة رفيعة واحتلوا مكان الصدارة في هذه الحركة ، وكانوا أكثر المستعربين قدرة وأطولهم باعا وأغزروهم إنتاجا وأعظمهم نشاطا في أكثر الميادين ، إنما هم أولئك الذين مارسوا مهنة تعليم العربية في المؤسسات العلمية والتعليمية الفرنسية داخل وطنهم أو خارجه .

والحقيقة أن المستعربين الفرنسيين قد بذلوا جهودا عظيمة في تعليم العربية لأبناء جلدتهم ، ليكون عملهم هذا نافذة يطلون منها على حضارة العرب وثقافتهم وحياتهم المعاصرة . وقد أدى تنظيم التعليم على أيديهم في مؤسسات تابعة للدولة إلى استمرار الدراسات العربية في فرنسا واتصالها ، بعد أن كانت من قبل تتعرض لسلسلة من الانقطاعات والكبوات المزعجة ، فأدى هذا الاستمرار بدوره إلى تنوع هذه الدراسات وتعمقها وترسخها في كثير من الميادين .

فإذا كانت كل هذه الجهود التي بذلها المستعربون الفرنسيون ، في الأصل ، خدمة لوطنهم وثقافتهم ، فإن آثارها وصداها ووهجها تم انعكاسها جميعا على لغة العرب وتراثهم وثقافتهم في العصر الحديث ، ذلك لأن هؤلاء المستعربين أسهموا من حيث

يدرون أو لا يدرون، أو من حيث شاؤوا أو أبوا، في خدمة تراثنا ولغتنا، فحفظوا من ذلك التراث ما حفظوا، وأحيوا ما أحيوا، وقاموا بتنظيمه أو إن شئت الدقة بتنظيم جزء منه قيض له الدهر أن يقع بين أيديهم، فأخضعوه للنقد والتحليل وألفوا فيه البحوث والدراسات المختلفة: ومجمل هذه الأنشطة غير التعليمية ستكون موضوعا للبحث في الفصل التالي.



الفصل الرابع :

أنواع الدراسات العربية في فرنسا

نعني (بالدراسات العربية) ، هنا ، تلك الفنون من الثقافة العربية التي اهتم المستعربون الفرنسيون بها ، فعملوا على نشر مخطوطاتها ، أو قاموا بترجمتها إلى اللغة الفرنسية أو الاقتباس والإفادة منها ، أو أسهموا في إلقاء المحاضرات عنها ، أو تأليف كتب تبحث فيها من قريب أو بعيد : فما هذه الدراسات التي شغلت بالهم؟ وكيف كان تناولهم لها؟ وما غاية كل منها؟ ومن هم المستعربون الذين أسهموا بأعمالهم في تقديم مختلف ألوان الدراسات العربية في فرنسا ومؤسساتها العملية المختلفة؟

لا مجال ، هنا ، لتناول الترجمات التي تَمَّتْ في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من اللغة العربية إلى اللاتينية في العلوم الفلسفية والطبية والصيدلية والرياضية والطبيعية والكيميائية والفلكية وغيرها من العلوم العقلية والتجريبية ، لأنها لم تترجم إلى الفرنسية التي أصبحت فيما بعد لغة قومية للثقافة والعلوم والآداب والفنون ، وإن كان الفرنسيون قد استفادوا منها أحيانا إلى قرابة منتصف القرن الثامن عشر. أضف إلى ذلك أن هذه الترجمات تتعلق بموضوعات خارجة عن دائرة اهتماماتنا في هذا الفصل ، إذ أن العلوم لاهوتية لها ولا جنسية وهي مشاع بين العالمين بلا استثناء ، في حين أن الدراسات التي نذهب إليها هنا ، إنها هي تلك الدراسات التي لها صلة بالعرب وحضارتهم الروحية والفكرية والشعرية ، ولاسيما اللغة والآداب ، أو ما يتصل بها من تاريخ وعقيدة وجغرافيا .

وإذا وصلنا إلى أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر للميلاد ، وجدنا مستعربا ، هو أنطوان غالان ، يقوم بترجمة قصص (ألف ليلة وليلة) إلى الفرنسية ، وينشر هذه الترجمة بين سنتي ١٧٠٤ و ١٧٠٨ ، فيكون لها تأثيرات واسعة في الأوساط الأدبية وفي نفوس المثقفين والمتعلمين من أبناء الطبقات الشعبية ، و«مارست على الفرنسيين إغراء كبيراً جداً»^(١) ، لأنها جاءت في وقت كانت الآداب في فرنسا تمر فيه بأزمة خطيرة ، ذلك لأن الجمهور كان قد مل سماع آداب اللاتين

(١) انظر: Dufrenoy (M.L.), L'Orientalisme romanesque en France, Montréal, 1940, p. 30.

واليونان وتعب منها جملة^(١).

وكانت قصص ألف ليلة وليلة جديدة على الفرنسيين كل الجدة في تقنياتها، وأسلوبها، وموضوعاتها، وأجوائها العامة، وشخصياتها، واستبطانها أغوار النفس البشرية وغرائزها وطموحاتها وأطماعها وعناصر الخير فيها على حد سواء. وكانت تكشف لهم عن بلدان الشرق والحياة الجميلة المتميزة فيه لأول مرة. وبما زاد في تشويق الناس في الغرب لقراءة هذه القصص أن غالان كتب في مقدمة ترجمته لها يقول إنها تبسط لقارئها عادات الشرقيين وأخلاقهم وشعائهم الدينية. فالشرقيون جميعاً يظهرهم فيها على ما هم عليه، ابتداء بالسلطان وانتهاء بأي شخص عادي. وهكذا، فإن بإمكان القارئ أن يراهم، هنا، يعملون، وأن يسمعهم يتحدثون، من غير أن يتكبد عناء السفر للبحث عنهم في بلدانهم^(٢). وقد ألهبت هذه القصص خيال الفرنسيين خاصة والغربيين عامة، بعد ترجمتها عن الفرنسية إلى لغاتهم، تجاه الشرق، وغرست عند كثير منهم حب الاطلاع والتشوق إلى زيارة الشرق وأهله ليرى بأم عينيه ما قرأه في هذا الكتاب العربي الضخم الذي عرف اختصاراً بـ (الليالي العربية). وقد أسهم هذا الكتاب فعلاً في توجيه أنظار الغربيين إلى ساحة الشرق الواسعة والمتنوعة بقوة، ودفعهم إلى التعمق في دراسته وفهمه.

ولم تكن هذه القصص العربية ممثلة فقط، إنما كانت كذلك لمهمة لعدد من المفكرين، حتى إن الفيلسوف فولتير^(٣) «يعترف أنه لم يزاوِل فن القصص إلا بعد أن قرأ ألف ليلة وليلة أربع عشرة مرة». وأوضح لوبون G. Lebon أن هذا الكتاب ألقى نورا ساطعاً على العرب والشرقيين، وعلى الناحية الإيجابية لخصائصهم، بل لقد أثار

(١) انظر : Elisséeff (N.), *Thèmes et motifs des Mille et Une Nuits*, Beyrouth, 1949, P.8.

(٢) انظر : op.cit., p.9.

(٣) فولتير : لقب أطلق على (فرانسوا ماري أرويه) الكاتب الفرنسي الذي عاش بين سنتي ١٦٩٤ و١٧٧٨. وقد تناول بالنقد أفكار عصره الكبري، وسخر بأغلب الشخصيات المعاصرة له. وتعرض لذلك للإقامة الجبرية والسجن في الباستيل والنفي إلى إنكلترا. وقد عرف الشهرة والثراء، وقد اتجه خلال إقامته في إنكلترا إلى الفلسفة الإصلاحية في تفكيره وأثاره. وقد خلد الحرية في مأساته بروتوس (سنة ١٧٣٠) وهاجم العقائد المسيحية في كتابه «رسائل إلى أوراني» (سنة ١٧٣٠) وحمل على النظام السياسي الفرنسي في «الرسائل الفلسفية» (سنة ١٧٣٤) وله آثار كثيرة ومتنوعة أخرى لا مجال لحصرها هنا، منها ما كان استلهاماً من الشرق العربي، وكان لجملة هذه الأعمال الغزيرة أثر عميق في تنوير الفرنسيين وتحريضهم على الثورة التي وقعت بعيد وفاته بإحدى عشرة سنة فقط (أي سنة ١٧٨٩).

في نفوس الغربيين السعي للتعرف على الشعوب التي كانت وراء هذا الأثر العظيم . وقد لا يكون من المبالغة القول ان هذا الكتاب كان أول الطريق إلى الاستشراق وانتشار حركته في الغرب» (١) .

أحدث هذا العمل ، إذن في فرنسا ، ما يشبه الهزة الأدبية ، مما شجع على الإقدام على الدراسات العربية المختلفة قدما ، وانتقلت العدوى ، من ثم ، إلى أكثر بلدان أوروبا نتيجة ذلك .

وكان من الأمور البارزة في الحياة العلمية للمستعربين المتخصصين بالمهنة أن يؤلفوا بحوثا ودراسات تتعلق بميدان تخصصهم وبميوهم الشخصية كذلك . إلا أن المرء يحس إجمالا بقلّة عدد مثل هذه الدراسات التأليفية الخاصة عند هؤلاء المستعربين . وسبب ذلك واضح تمام الوضوح ، في رأينا ، لأن المستعرب الذي يعتمد على تأليف دراسة ما لابد له من ثقافة جيدة في موضوع تأليفه ، وهذا لا يتم إلا بالاطلاع العميق والمباشر على مصادره في اللغة العربية ، وهذا يتطلب منه التمكن التام من هذه اللغة . وقد يكون اطلاعه على مصادر غير مباشرة أو مراجع باللغة الفرنسية أو غيرها من اللغات الغربية (كالإنكليزية ، والألمانية ، والإيطالية ، والإسبانية .) رافدا لبحثه إذا استند أساسا إلى المصادر العربية مباشرة بالدرجة الأولى ، إلا أنه قد يعتمد في الأعم الأغلب على المصادر غير المباشرة ، فيقع عندها في الضعف والقصور ومالا تحمد عقباه . وقد تُرَدُّ غزارة إنتاج المستعرب في ميدان التأليف إلى سعة معرفته الآثار العربية مباشرة ، وتعميقه في العربية إلى حد الإفادة المباشرة . من تلك الآثار بلا عناء . ويستتبع ذلك أن قلة اطلاع المستعرب وضعفه في العربية ينعكس عليه بقلّة الإنتاج .

ولاشك في أن الترجمات الفرنسية لآثار عربية كانت تقدم المادة الخام الأولية التي يستغلها أو يستعملها كل من يتصدى لدراسة أي شأن من شؤون العرب ، ومن ذلك ، مثلا ، أنه لا يمكن تأليف دراسة في التاريخ الأدبي العربي إذا لم يكن المؤلف المستعرب ملما بكتب التاريخ العربية التي نقلت إلى الفرنسية للمقريري وابن خلدون

(١) انظر : أثر العرب في الفن الحديث للدكتور عفيف بهنسي ص ١٠ .

وابن ميسر والخطيب البغدادي والمسعودي وأبي شامة وغيرهم، ممن أرنخوا للحضارة العربية الإسلامية والحوادث الاجتماعية والسياسية المختلفة في المنطقة العربية والعالم الإسلامي.

والمعروف أن عدد هذه الترجمات كان قليلا جدا أو نادرا حتى أواخر القرن الثامن عشر، ثم بدأت حركة الترجمة تنشط باطراد منذ مطلع القرن التاسع عشر حتى إذا ماجئنا نحصي هذه الترجمات الفرنسية لكتب التراث العربي والثقافة العربية فإننا سنجد عددا طيبا منها يحصيه كتاب فكتور شوفان V. Chauvin الذي أسماه: (مرجعية الكتب العربية أو المتعلقة بالعرب المنشورة في أوروبا المسيحية من سنة ١٨١٠ إلى سنة ١٨٨٥). ثم نجد إحصاءات أحدث منها في كتاب لنجيب العقيقي عنوانه: (المستشرقون).

ونلاحظ زيادة عدد الدراسات الخالصة التي أنتجها المستعربون الفرنسيون مع زيادة عدد الكتب المترجمة من العربية إلى الفرنسية. يضاف إلى ذلك أن هؤلاء المستعربين كانوا يفيدون مما ألف قبلهم من دراسات بالفرنسية بوصفها مراجع يمكنهم أن يبنوا عليها أو يستشهدوا بها فيها من آراء مناقشتها أو استلهاها.

إلا أن المعين الشر الذي لا ينضب على وجه الإجمال لأي مستعرب باحث يعمل على تأليف الدراسات يظل بلا ريب الاتقان العميق للغة العربية وقراءة ماكتب بها من آثار قراءة مباشرة. ذلك لأن اللغة هي المفتاح الحقيقي الذي ييسر سبل البحث والاطلاع في أي ثقافة من الثقافات.

يضاف إلى هذه الأدوات معرفة اللغات الأجنبية الحية غير العربية والفرنسية، لأن مثل هذه المعرفة تيسر للباحث سبل الاطلاع على ماكتب في موضوع بحثه في إحدى هذه اللغات، فيستطيع بذلك أن يلم بما قيل فيه ليضيف إليه جديدا أو ليغير مايراه غير صحيح. وما يدفع إلى الاستفادة من جهود المستعربين باللغات الأخرى إدراكنا في كل حركة استعراب أوروبية إنجازات لانجدها في غيرها من الحركات، وبذلك فإنها متكاملة فيما بينها، لا يمكن لإحداها أن تستغني بنفسها عن الأخريات بأي حال من

الأحوال ، لأن بعضها يتمم بعضها في المنظور العام .

ونحن نجد أن أعمق الدراسات كانت ناتجة ، أساسا ، عن توفر الأداة الرئيسية الأولى ، وهي الإلمام باللغة العربية إلماما عميقا ، وليس مهما ، في رأينا ، أن يحسن المستعرب لغة الحديث أو الحوار بهذه اللغة كأهلها ، إذ لا يعد ذلك عائقا دون الوصول إلى الغاية المتوخاة ، إذ يكفي هذا المستعرب أن يكون قادرا على قراءة النصوص العربية وفهمها فهما دقيقا ، ولا يعد ذلك عيبا في الباحث المنقطع للبحث ، لأننا نجد مستعربا شهيرا ، هو سلفستر دوس ساسي ، يعث رسالة جواوية إلى أحد المعجبين بعلمه في المشرق العربي يقول فيها : « تريد أن تعلم إن كان لي بعض الشيوخ الذين تعلمت عليهم العربية ، وأني لأستطيع أن أؤكد لك أن معلمي الوحيد كان الكتاب ، وأنا لا أستطيع أن أحفظ بالعربية ، ولا حتى أن أفهم ما يقال بهذه اللغة ، إذ لم تتح لي الفرصة ، في شبابي ، للتكلم بالعربية ، ولا حتى الاستماع إليها »^(١) .

ويذكر رفاع الطهطاوي هذا المستعرب في كتابه (تخليص الأبريز) فيقول : « وما يترأى أن الأعجام لا تفهم لغة العرب إذا لم تحسن التكلم بها كالعرب فهذا لا أصل له ، وما يدل ذلك على ذلك أني اجتمعت في باريس بفاضل من فضلاء الفرنسيين شهير في بلاد الإفرنج بمعرفة اللغات المشرقية ، خصوصا اللغة العربية والفارسية يسمى البارون سلوستر دساسي . . وقد تعلم اللغة العربية على ما قيل بقوة فهمه وذكاء عقله وغزارة علمه ، لا بواسطة معلم ، إلا إذا كان بيده الكتاب ، فإذا أراد شرح عبارة أغرب في الألفاظ التي يتعذر عليه تصحيح نطقها »^(٢) .

ومن المستعربين الفرنسيين الذين كانوا يتقنون الكلام والكتابة بالعربية : لوى ماسينيون ، ووليم مارسيه^(٣) .

(١) انظر : Derenbourg (H.) Silvestre de Sacy, Paris, 1895, p.22.

(٢) انظر هذا النص في كتاب : أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي للدكتور محمود فهمي حجازي ، ص ٢١٨ .

(٣) انظر مقالة : أثر المستعربين من علماء المشرقيات في الحضارة العربية لمحمد كرد علي ، في : مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، مج ، ١٩٢٧ ، ص ٤٤١ .

ونتناول، فيما يلي، أبرز الدراسات العربية في فرنسا، مع ذكر أهم الأعمال التي قدمت في كل نوع منها على صعيد التأليف أو الترجمة والتحقيق، وستجنب، في الوقت نفسه، ذكر الدراسات القصيرة المنشورة على صورة مقالات في الدوريات الاستعرابية أو الاستشرافية الفرنسية على اختلاف ألوانها ومشاربها، إلا إذا كانت ذات أهمية خاصة في تاريخ الاستعراب على وجه العموم:

١ - الدراسات اللغوية :

امتدت أنشطة المستعربين الفرنسيين إلى ميادين كثيرة في مجال الدراسات اللغوية العربية لأن مثل هذه الدراسات - كما مر بنا من قبل - كانت تشكل المفتاح الذي لا بد منه لأي مستعرب حقيقي، من أجل أن يفتح به باب الثقافة العربية على مصراعه، ولم يسبق أن تكون مستعرب تكونا تاما وسليما من غير أن يمر بمرحلة تعلم العربية لغة أجنبية بصورة من الصور في مدرسة أو على يد شخص ما أو بالاحتكاك بالبيئة اللغوية العربية مباشرة مع قصد التعلم.

وقد انصبحت اهتمامات المستعربين اللغوية على دراسة العربية الفصحى للإفادة من نصوصها القديمة والحديثة معا، لأنها اللغة التي دون بها التراث والتي تستعمل في التدوين الحديث أيضا. ثم أخذوا يهتمون بدراسة اللهجات العربية المختلفة في المشرق العربي ومغربه، لغايات عملية قريبة أو لأهداف علمية معينة، ولذا فإننا نستعرض فيما يلي أنشطة المستعربين في كلا المجالين، ذاكرين أبرز ما أنتجوه فيها من أعمال في الاتجاهات التالية :

أ - تأليف الكتب في النحو العربي :

١ - وضع بوستل، سنة ١٥٣٨، كتابا في قواعد اللغة العربية هو: *Grammat-ica Arabica* ونشره في باريس.

٢ - ووضع دوسافاري *de Savary*، سنة ١٧٨٤، كتابا في النحو العربي، وقدمه إلى الحكومة الفرنسية بعنوان: قواعد اللغة العربية العامية والفصحى. وقد نشر في باريس سنة ١٨١٣ على يد لانغليس، بالتعاون مع ميشيل صباغ، بعنوان :

النحو العربي Grammaire arabe .

٣- وألف هربن Herbin ، سنة ١٨٠٣ ، كتابا في أصول العربية العامية .

٤- ونشر دوساسي ، سنة ١٨١٠ ، كتابا بعنوان : النحو العربي Grammaire arabe . وجعله مخصصا لطلابه في مدرسة اللغات الشرقية التي كان أستاذا فيها للعربية كما مر بنا من قبل . وكان مرسوم تأسيس هذه المدرسة يوجب على أساتذة تلك المدرسة تأليف كتب باللغة الفرنسية في قواعد اللغة التي يدرسها كل منهم . وقد وضع لكتابه هذا عنوانا عربيا مسجوعا - على طريقة المؤلفين العرب في العصور المتأخرة - هو (التحفة السنية في علم العربية) . وقد أعيد نشره ، سنة ١٨٣١ ، بعد تنقيحه وإضافة بحث عليه في عروض الشعر العربي . وهذا الكتاب هو الذي تأثر به الشيخ رفاعه الطهطاوي عندما ألف كتابه النحوي : (التحفة المكتبية لتقريب اللغة العربية) وظل كتاب دوساسي هذا ، طوال قرن من الزمان أو يزيد ، مرجعا أساسيا لدراسة نحو اللغة العربية عند الطلاب المبتدئين والمستعربين الناشئين والكبار على حد سواء .

٥- ووضع كوسان دو برسفال الابن ، سنة ١٩٢٤ ، كتابا بعنوان : النحو العربي العامي Grammaire arabe vulgaire ، ونشره في باريس . وأعاد طبعه سنة ١٨٣٣ بعد احتلال الجزائر ، مضيفا إليه أمورا تتعلق بلهجة أهل المغرب العربي . ثم أعيدت طباعته عدة مرات بعد ذلك ، لأنه كان يشكل أساسا لدراسة اللهجات العربية العامية في المؤسسات العلمية والتعليمية في فرنسا .

٦- ووضع برون Perroux ، سنة ١٨٣٢ ، كتابه : قواعد العربية ، ونشره في باريس .

٧- ووضع برون أيضا ، في السنة نفسها ، كتابا بعنوان : العربية العامية في الجزائر .

٨- ونشر ومتيه Montet في جنيف سنة ١٨٩٦ ، كتابه : مبادئ النحو العربي . ثم أعاد طباعته في باريس سنة ١٩٠٣ .

٩ - ونشر بيريه Périer، سنة ١٩١١، كتابه: قواعد العربية الجديدة.

١٠ - ونشر لوفيفر G.Lefebvre كتابه: قواعد اللغة المصرية الفصحى (كذا)، في المعهد الفرنسي بالقاهرة (الطبعة الأولى سنة ١٩٤٠، والثانية سنة ١٩٥٥).

١١ - ووضع بلاشير، بالتعاون مع ديمومبين، كتاب: نحو العربية الفصحى، سنة ١٩٣٧، بباريس. وهو أجود كتب النحو العربي باللغة الفرنسية، وقد نفع وأعيدت طباعته سنة ١٩٥٢. وهو إلى اليوم مرجع هام للمستعربين الفرنسيين.

وربما حدث تأليف نحوي في الاتجاه المعاكس كما فعل أحمد فارس الشدياق وغوستاف دوغا، إذ تعاونا معا على وضع كتاب بعنوان: (النحو الفرنسي في متناول العرب في الجزائر وتونس والمغرب ومصر والشام) Grammaire française à l'usage des Arabes، ونشراه في باريس سنة ١٨٥٤.

ب - وضع المعاجم اللغوية:

أسهم المستعربون الفرنسيون في وضع المعاجم اللغوية الثنائية أو الثلاثية لما لها من أهمية خاصة في تقريب ما بين اللغتين العربية والفرنسية من مسافات، ولإزالة إيهام إحداها أمام الأخرى. والمعجم - كما هو معروف - هو الدليل الأول للمتعلم المستجد، كما أنه الترجمان الذي لا غنى للباحث المجرب أو المترجم الأريب عنه، إذا أراد أحدهم البحث في لغة أجنبية حية. وهو الذي يقودنا إلى معاني المفردات التي يؤلف مجموعها مادة اللغة. وهو الذي يفك لنا أسرار العبارات والتراكيب اللغوية في سياق الكلام الحي. وقد كان نشاط المستعربين في هذا الميدان واسعا، فأنتجوا ولايزالون ينتجون عددا من المعاجم العربية - الفرنسية أو الفرنسية - العربية. وهذا عرض لأبرز هذه المعاجم متسلسلة بحسب ظهورها أو وضعها:

١ - حقق كوسان دوبرسفال (المعجم العربي - الفرنسي) الذي كان إلياس بقطر قد وضعه وتم نشره في مجلدين سنة ١٨٢٨ وسنة ١٨٢٩. ثم أعيدت طباعته سنة ١٨٤٨. وطبع مرة ثالثة سنة ١٨٦٤.

٢ - وصنف مارسيل، سنة ١٨٣٧، معجمه: (كنز المصاحبة)، وهو معجم

فرنسي-عربي عامي .

٣- ونشر كازيميرسكي، في باريس، سنة ١٨٦٠ : قاموسا عربيا- فرنسيا في مجلدين .

٤ - ووضع شريونو : معجما فرنسيا- عربيا في مجلدين، نشره سنة ١٨٧٦ بباريس .

٥ - وصدر لماشويل في الجزائر : معجم عربي- فرنسي في السنوات ١٨٧٧ ، ١٨٨١ و١٩١٧ .

٦ - ووضع بوسيه Beaussier : القاموس العلمي العربي- الفرنسي، الذي نشر سنة ١٨٨٧ في الجزائر بعد وفاته، وكان ذا أهمية كبيرة في ميدانه .

٧- ووضع بارتيلمي سنة ١٩٠٣ : قاموسا عربيا- فرنسيا اللهجات العامية في بلاد الشام (حلب، ودمشق، ولبنان، والقدس). وكان المصنّف قد تنقل في قنصليات فرنسا في هذه المناطق فأثقن اللهجات العامية فيها تماما، وصار يتكلمها وكأنه واحد من أهلها. غير أنه لم ينشره في تلك السنة، وهو يقع في خمسة أجزاء: نشر ثلاثة منها على التوالي في السنوات ١٩٣٥ و١٩٣٦ و١٩٣٧ . ثم جاء هنري فليش H.Fleisch فنشر المجلدين الرابع والخامس سنة ١٩٦٠ بباريس تحت عنوان: قاموس اللهجات العربية في سورية ولبنان وفلسطين .

٨- وأصدر مارسيه، في الجزائر سنة ١٩٤٢ : المعجم . وهو قاموس كبير جمع فيه اللهجات المغربية ونصوصها وأصواتها، فحل بذلك محل قاموس بوسيه السالف ذكره .

٩- ونشر ليفي- بروفنسال : المعجم التطبيقي لعربية القرن العشرين، في الرباط سنة ١٩٤٢ .

١٠ - ووضع شارل بيلا Ch.Pellat : قاموسا عربيا- فرنسيا ونشره في باريس .

١١ - ونشر بلاشير بالتعاون مع دنيزو Denizeau ومصطفى شويمي : قاموسا

ثلاثيا عريا - فرنسا - إنكليزيا ، بإشراف المركز الوطني للبحث العلمي بباريس C.N.R.S. ، وقد صدر منه ثلاثة مجلدات من أصل ستة ، ابتداء من سنة ١٩٦٣ . وقد حل بيلا عل بلاشير بعد وفاته سنة ١٩٧٣ من أجل إتمام هذا المشروع الضخم .

ج- نشر الكتب النحوية العربية وترجمتها :

١ - نشر دوساسي (ألفية ابن مالك) ، مع شرح لها وتعليق عليها ، وترجمها سنة ١٨٣٤ .

٢ - ترجم برينيه ، سنة ١٨٤٦ ، كتاب : الأجرمية في قواعد العربية لمحمد بن داود الصنهاجي ، إلى الفرنسية ، وذيل الترجمة بملحق لتفسير الكلمات العربية .

٣ - ونشر غوغويه Goguyet في ليدن سنة ١٨٧٧ : شرح قطر الندى وبل الصدى لابن هشام .

٤ - ونشر هو نفسه أيضا (ألفية ابن مالك) ، مع شروح لها وحواش عليها بالفرنسية ، في بيروت سنة ١٨٨٨ .

٥ - ونشر بتو Pinto في قسنطينة بالجزائر سنة ١٨٨٧ : ألفية ابن مالك كذلك ، متنا وترجمة وتعليقا .

٦ - وأصدر ديرنبوغ : شرح كتاب سيبويه ، متنا وترجمة ، مع مقدمة وحواش في زهاء ألف صفحة جزئين في باريس سنتي ١٨٨١ و ١٨٨٩ .

د- تأليف الدراسات اللغوية حول العربية الفصحى واللهجات العامية :

نجد المستعربين الفرنسيين ، في مثل هذه الدراسات ، يأخذون بتطبيق آخر ماتوصل إليه علم اللغة من نظريات وحقائق في بحوثه على اللغة العربية ، ولذا نستطيع القول إن أكثر أنواع الدراسات العربية تطورا في فرنسا هي هذه الدراسات اللغوية . وسيرد في قائمة هذه الدراسات ، هنا ، مايدل على مثل هذا التطبيق الذي يتناول العربية من خلال دراسة نحوها القديم والحديث ، ودراسة لهجاتها الحديثة في

- مختلف أنحاء الوطن العربي، ووضع الخرائط أو الأطالس اللغوية، ودراسة اللغة العربية ضمن أسرة أخواتها من اللغات العربية القديمة التي أطلق عليها المستشرقون خطأ اسم اللغات (السامية)، ودراسة أصوات العربية وتطور الدلالة فيها، ودراسة البنية اللغوية العربية على وجه العموم. ومن أبرز هذه الدراسات:
- ١ - نشر ديلاپورت Delaporte، في الجزائر سنة ١٨٣٦، كتابا بعنوان: بحوث في اللغة العربية.
 - ٢ - ونشر رينان كتابه المشهور: تاريخ اللغات «السامية»، في جزئين في سنتي ١٨٥٣ و ١٨٦٢، ويتناول فيه اللغة العربية تناول مقارنة.
 - ٣ - ونشر رينو Renaud كتابا بعنوان: اللغة العربية في سورية، سنة ١٨٥٧.
 - ٤ - وألف مونك Munk دراسة بعنوان: تأثير اللغة العربية وآدابها في اللغة العبرية بعد التوراة، ونشرها بباريس سنة ١٨٥٧.
 - ٥ - ونشر بارتيليمي سنة ١٩٠٥: رسالة في لغة حلب العامية.
 - ٦ - ونشر هو نفسه أيضا سنة ١٩٠٦: نبذة عن لهجة القدس.
 - ٧ - وأصدر كانتينو، وهو من أبرز دارسي اللهجات العربية من المستعربين في النصف الأول من القرن العشرين، ويعتد رائدا في (الجغرافية اللغوية العربية وأطالسها): لهجة عرب تدمر، في جزئين صدرا ضمن منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق، بيروت سنة ١٩٣٤.
 - ٨ - ونشر هو نفسه أيضا كتابا بعنوان: بعض لهجات بدو العرب في الشرق، ضمن منشورات كلية الآداب بالجزائر سنتي ١٩٣٦ - ١٩٣٧.
 - ٩ - ونشر كذلك كتابا بعنوان: اللهجات العربية في حوران (مع ملحق بخرائط جغرافية لغوية للمناطق المدروسة)، ضمن منشورات الجمعية اللغوية بباريس سنتي ١٩٤٠ و ١٩٤٦.
 - ١٠ - ونشر أيضا كتابا بعنوان: محاضرات في علم الصوت العربي في الجزائر سنة ١٩٤١.

١١ - ونشر هنري فليش H.Fleisch ، سنة ١٩٤٧ ، كتابا بعنوان : مدخل إلى دراسة اللغات السامية (كذا) ، في باريس .

١٢ - ونشر هو نفسه أيضا كتابا بعنوان العربية الفصحى (دراسة للبنية اللغوية) في بيروت سنة ١٩٥٦ . ثم أعاد طبعه سنة ١٩٦٨ .

١٣ - ونشر كذلك ، سنة ١٩٦١ ، كتابا بعنوان : بحث في الفيلولوجيا العربية .

١٤ - ونشر مونتي V.Monteil ، في باريس سنة ١٩٦٠ ، كتابا بعنوان : العربية الحديثة (وهو رسالته لنيل درجة الدكتوراه) .

وكان المستعربون الفرنسيون يلجؤون أحيانا إلى ترجمة بعض الدراسات اللغوية المؤلفة بلغة أخرى غير العربية ، وبين أيدينا ، على سبيل المثال فقط ، نموذجان هما :

أ - موجز علم اللغة السامي : من تأليف المستعرب الألماني المعروف كارل بروكلمان ، إذ قام المستعربان الفرنسيان كوهين ومارسيه بترجمته إلى اللغة الفرنسية ، ونشراه في باريس سنة ١٩١٠ .

ب - العربية : من تأليف المستعرب الألماني المعروف أيضا يوهان فوك J.Fück ، وترجمه إلى الفرنسية ووضع مقدمة لترجمته المستعرب الفرنسي كانتينو ، ونشره في باريس سنة ١٩٥٥ .

هـ وضع الكتب التعليمية (للتمرينات ، والمحادثات ، والتطبيقات ، والأمثلة) :

ومثل هذه الكتب كثير جدا ، وخاصة عند المستعربين الفرنسيين في الجزائر ، وقد اهتم بمثل هذا النوع من التأليف أولئك الذين كانوا يتصدون لتعليم العربية الفصحى أو العامة على السواء ، فيسهلون بكتبهم التعليمية هذه أمر تعليمهم على أنفسهم وعلى طلابهم معا . ولا مجال ، هنا ، لإحصاء عدد هذه الكتب لكثرتها ، ولأن قيمتها الحقيقية ليست دائمة ، وإنما هي آنية مخصوصة باستعمالها بأيدي الأساتذة

الذين وضعوها وطلابهم الذين وضعت لهم ، ولذا فإن مثل هذه الكتب سرعان ما يشيخ وتقل فائدته بعد مرور سنين قليلة على وضعه ، ويحول ذلك دون وقوفنا عليها طويلا ، نظرا لمحدودية تأثيرها عمليا في حركة الاستعراب العلمية المحضة . ونذكر من هذه الكتب على سبيل المثال :

١ - النحو الابتدائي للعربية العامية أو الجزائرية : نشره سنة ١٨٣٢ جواني فرعون في الجزائر.

٢ - الدراسة العملية والنظرية للغة العربية : من تأليف برينيه .

٣ - تمارين العربية الفصحى : وضعه بلاشير بالتعاون مع المستعربة ماري تشيكالدي أدريان M.C.Adrien ثم أعيدت طباعته سنة ١٩٥٢ .

و- نشر المختارات النحوية العربية :

ومن أشهر هذا النوع من الكتب كتاب دوساسي المعروف بعنوانه الفرنسي : *Anthologie grammaticale arabe* . وهو مختارات عما كتبه النحويون العرب القدماء في مؤلفاتهم المشهورة . وقد أطلق دوساسي على هذا الكتاب نفسه عنوانا عربيا مسجوعا على عادة القرون المتأخرة هو : (جامع الشذور من منظوم ومثثور) ، وقد نشرها في باريس سنة ١٨٢٩ .

٢ - الدراسات الأدبية :

وتأتي هذه الدراسات لتشكل ميدانا واسعا جدا من ميادين البحث عند المستعربين الفرنسيين ، وذلك لأن الأدب عموما تعبير عن روح الأمة التي تنتجه وصورة لعقليتها ومزاجها ، كما أنه تمثيل لبيئة الأمة الطبيعية ولنظمها الاجتماعية . وكان الأدب العربي موضع دراسة هؤلاء المستعربين من أجل التعرف على ذلك كله .

وكان اهتمام الغرب قد انصب على أدبنا العربي وآثاره منذ أن عرف أهله كيف يتذوقون آداب الشعوب الأخرى في العالم ، ولاسيما الآداب الشرقية ، وعلى رأسها

الأدب العربي .

وكان اتصال المستعربين الفرنسيين بأدبنا العربي استجابة لتطور الذوق الأدبي في بلادهم، في أواخر القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر، إذ كان الفرنسيون قد ضاقوا ذرعاً بالأدب اليونانية والرومانية (اللاتينية) وملتها نفوسهم بعد أن استوعبوها، فطفقوا يبحثون عن عوالم جديدة لم يسمعوها من قبل في الأدب الشرقية . وقد أثبت نجاح (ألف ليلة وليلة) وروايتها في فرنسا خاصة والغرب الأوربي عامة - بعد أن ترجمها إلى الفرنسية أنطوان غالان كما مر بنا آنفاً - وجود هذا الجو الأدبي المتقبل للجديد، كما أنه فتح الباب واسعاً للبحث في آداب الأمم الشرقية، وفي طليعتها الأمة العربية التي كان الغرب قد استفاد منها العلوم العقلية والتجريبية والتأملية، عن طريق الترجمة التي كانت الجسر الذي انتقلت عليه تلك العلوم آنذاك .

ولم يكتف المستعربون الفرنسيون بترجمة الآثار الأدبية العربية إلى الفرنسية، ليرفدوا ثقافتهم بروافد غزيرة من الإلهام والمتعة، وإنما تجاوزوا ذلك إلى استلهام الروح الشرقية عموماً بأجوائها العربية والإسلامية على حد سواء، فنشأت عند الفرنسيين طبقة الشعراء والفنانين المتأثرين بهذه الروح، فكونوا بظهورهم نوعاً جديداً من الاستشراق يمكن أن نطلق عليه اسم: (الاستشراق الأدبي) أو (الاستشراق الفني) على حسب نوع الاستلهام ودرجته . وظهرت النزعة الاستشراقية في الأدب الفرنسي والفنون التشكيلية منذ بداية القرن التاسع عشر تقريباً^(١) .

كانت الرحلات قد أخذت تزداد، في أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر، إلى البلدان العربية . وكان الرحالة يقصون، عند عودتهم إلى أوطانهم، أحاديث رحلاتهم وانطباعاتهم ومشاهداتهم وجامعوا من معلومات حول بعض جوانب الحياة في الشرق، بأسلوب ممتع شيق فيه شيء من المبالغة والزخرفة والتلوين الساحر . وكانوا يخرجون ذلك كله لأبناء لغتهم ووطنهم في كتب يضمونها مآجعوها في

(١) يمكن لمن يريد التعمق في الاستشراق الفني هذا أن يعود مثلاً إلى كتاب (أثر العرب في الفن الحديث) للدكتور عفيف بهنسي . وهناك مرجع أحدث صدر عن سلسلة عالم المعرفة هو «الإستشراق في الفن الرومانسي الفرنسي» (العدد ١٥٧ - ١٩٩٢)، تأليف د. زينبات البيطار - المحرر

جعلهم من حكايات جذابة وقصص طريفة من الشرق الذي كان يتمثل في عقول الغربيين بصورة سحرية أقرب إلى الخيال منها إلى الواقع .

وقام الباحثون بتأليف شيء من الكتب عن الشرق وحضارته ، وأخذ الفرنسيون يقرؤون ما يكتبه هؤلاء الباحثون عن الشرق عامة والعرب خاصة ، ولعل أقدم النصوص الفرنسية الشاملة في هذا المجال كتاب (المكتبة الشرقية) La Bibthèque Oriental التي صنفها ديربلو d'Herblot وأراد لها أن تكون أشبه بموسوعة تتناول علوم الشرقيين وتاريخهم وأدابهم وأديانهم ونظمهم وعاداتهم وأساطيرهم . وهذا الأثر هو الذي مهد الجولوتعرف الفرنسيين على الآداب العربية . وهو يتكون من عدة مجلدات . وقد رتب مواد على حروف المعجم ، وظل مرجعا يعتمد عليه إلى اليوم الذي قامت فيه جماعة من كبار المستعربين والمستشرقين في العالم بتأليف مواد (الموسوعة الإسلامية) L'Encyclopédie de L'Islam ، بإشراف هوتسما Houtsma ، وتلبية لتوصية اتخذها المؤتمر الدولي العاشر للمستشرقين الذي تم عقده في جنيف بسويسرا سنة ١٨٩٤^(١) .

وكانت مكتبة ديربلو الشرقية هي التي أوحى بإنشاء هذه الموسوعة ، واتفق على أن يكون مقرها بليدن في (هولندا) ، وأن تصدر بثلاث لغات هي : الفرنسية ، والألمانية ، والإنكليزية . وبدأت طبعها الأولى تصدر سنة ١٩١٣ . وكانت موادها مرتبة على حروف المعجم .

وكان غالان قد شارك ديربلو في القسم الأخير من هذا العمل ، ثم أشرف - بعد وفاته سنة ١٦٩٥ - على إنمامه وإصداره كله وحده . وقد جمع ديربلو ومن بعده غالان ، في هذا العمل ، كل المواد والمعلومات التي كانت معروفة عن الشرق حتى زمانها . وقد استعانوا بكثير من الاقتباسات من المؤلفات الشرقية المخطوطة ، بعدما ترجعها إلى الفرنسية^(٢) .

(١) انظر مقالة : الدروس العربية في فرنسا لكليان هوار ، ترجمة : عبدالله رعد ، في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، مج ٥ ، ١٩٢٥ ، ص ١٥٨ .

(٢) انظر : Éliséeff (N.), Thèmes et motifs des Mille et Une Nuits, Beyrouth, 1949, P.8.

ويمكننا، في الحقيقة، أن نعد (المكتبة الشرقية) بداية التوجه الحقيقي نحو الشرق في ميدان الدراسات العلمية، ونضيف إلى ذلك القول إنها جاءت ثمرة لجهود العاملين في حقل الاستشراق الفرنسي في العصور السابقة كلها وتتويجها في الآن نفسه.

وربما كان بوسعنا أيضا أن نتخذ من هذه المكتبة نفسها بداية لحركة الاستعراب الفرنسي تحديدا، تلك الحركة التي عنيت باطلاع الفرنسيين على كل الشؤون العربية من لغة وآداب وتاريخ وعقائد وجغرافية، إلى غيرها من الميادين، عن طريق اللغة الفرنسية نفسها، أي بطريق غير مباشر فيما يخص جمهور المثقفين والمطلعين الفرنسيين أنفسهم، في حين أن المستعربين كانوا هم طليعة المواجهة للغة العربية والاحتكاك المباشر بها والاطلاع على ما فيها من غير وسيط، نظرا لكونهم الاختصاصيين بافتحام هذا الميدان ورواد فيه لأبناء وطنهم. وكانت الفرنسية لغة الترجمات الجديدة بعد ما كانت اللغة اللاتينية هي لغتها من قبل. ويمكننا، على هذا الأساس أن نقسم تاريخ هذه الحركة أربع مراحل، هي:

أ - مرحلة البدايات:

وهي تمتد من وفاة ديربلو، سنة ١٦٩٥، إلى السنة التي تأسست فيها، بباريس، المدرسة الخاصة بتعليم اللغات الشرقية الحية، أي سنة ١٧٩٥. ويمكننا أن نصف هذه المرحلة بأنها كانت «مرحلة تلمس الطريق إلى الدراسات العربية، وفيها تكونت الاستعدادات للاتجاه إلى هذه الدراسات في نفوس بعض المثقفين الفرنسيين نتيجة للآثار التي تركتها في تلك النفوس ترجمة قصص (ألف ليلة وليلة) في أوائل هذه المرحلة».

ب - مرحلة التكون:

وهي تمتد من السنة التي أسست فيها المدرسة المذكورة آنفا إلى سنة ١٨٩٥ التي تقرر فيها إنشاء الموسوعة الإسلامية E.I. باقتراح من المؤتمر الدولي العاشر للمستشرقين، المنعقد في جنيف تلك السنة. ويمكن وصف هذه المرحلة بأنها تتميز

بـ «ترسيخ الدراسات العربية في فرنسا وبنها في عدد من دول أوروبا على أساس من المنهجية والتنظيم». وتأكدت في هذه المرحلة أيضا «استمرارية الدراسات العربية في فرنسا». والجدير بالذكر هنا أن هذه الموسوعة لم تكن جهدا فرانيا خالصا، وإنما كان الفرنسيون من جملة المسهمين في إنشائها ومن عملوا في إدارتها ونشرها في كل مراحلها.

جـ- مرحلة النضج :

وهي تمتد من سنة ١٨٩٥ إلى السنة التي أنجز فيها نشر الموسوعة الإسلامية بثلاث لغات أوربية هي : الفرنسية والألمانية والإنكليزية، في أربعة مجلدات ضخمة، وهي سنة ١٩٤٢. ونشهد في هذه المرحلة أعمالا هامة وقيمة يتجهها المستعربون في فرنسا خاصة، وغيرها من البلدان الأوربية عامة. ونلاحظ في هذه المرحلة وسابقتها سعي فرنسا الحثيث إلى استعمار أجزاء من الوطن العربي أو بسط هيمنتها عليها: فكانت حملة نابليون على مصر سنة ١٧٩٨، واحتلال الجزائر سنة ١٨٣٠، وتونس سنة ١٨٨١، والمغرب سنة ١٩١٤، ثم سورية سنة ١٩٢٠. وكان لهذا السعي كبير الأثر في تجريض الدراسات العربية في فرنسا إلى درجة عالية لما كانت تقدمه للمستعمرين من معلومات تسهل عليهم السيطرة والإدارة والتوجيه والتأثير في هذا البلدان العربية. وكان للجزائر في المرحلة الثانية الأنف ذكرها دور هائل في هذا الاتجاه، إذ نشأت فيها مدرسة من المستعربين عرفت باسم (المدرسة الجزائرية في الاستعراب الفرنسي)، وأقيمت فيها المعاهد الخاصة بالاستعراب، وكانت المكتبات الجزائرية غاصة بالمخطوطات العربية المتنوعة التي استفاد منها عدد كبير من المستعربين فيها وفي فرنسا على حد سواء.

د- المرحلة المعاصرة :

وهي تبدأ بسنة ١٩٤٢ وأواخر الحرب العالمية الثانية إلى يومنا هذا. ونجد فيها آثارا رائعة للمستعربين الفرنسيين تدل على منهجية متقدمة وتعمق وإلمام، كما تدل كذلك على نوع من أنواع التخصص في الدراسات العربية، إذ كان المستعربون

الأوائل يأخذون من كل علم أو فرع يطرف، فأصبح المعاصرون منهم يقصرون اهتمامهم وجهودهم على طرف واحد من هذه الدراسات، فنجد بعضهم يتخصص بالأدب الجغرافي العربي، وبعضهم بالأدب التاريخي العربي، وبعضهم بأديب معين كالجاحظ أو ابن قتيبة، أو بشاعر معين كالمتنبي، وبعضهم بعلم الاجتماع الإسلامي، وبعضهم بالتاريخ العربي، أو باللغة العربية، أو بالأدب في فترة من الفترات، أو بفرع من قروع الدراسات الإسلامية كالقرآن أو الحديث أو التشريع أو التصوف، الخ.

وسنلم، فيما يلي، بأبرز ما أنجزه المستعربون الفرنسيون في ميدان الدراسات العامة أو الخاصة من أعمال. وسنقتصر على ذكر ما نشر منها بشكل كتب، أما ما نشر منها بشكل مقالات فلنأخذ سنهله إلا ما كان منه ذا أهمية خاصة في سياق تلك الدراسات^(١):

أ- نشر الدواوين والأشعار وترجمتها:

- ١- ترجم دوسامي قصيدة (البردة) للبوصيري سنة ١٨٠٦.
- ٢- ونشر أيضا (معلقة لبيد) مع ترجمتها ملحقة بكتاب (كلىة ودمنة).
- ٣- وله (منتخبات من شعر ابن الفارض)، وقد نشرها مع ترجمتها سنة ١٨٢٢ بالتعاون مع دولاغرانج G.de La Grange.
- ٤- ونشر كوسان دو برسمال الأب (شرح معلقة إمرى القيس) للزوزني سنة ١٨١٩.
- ٥- ونشر وينو، سنة ١٨٣٧، بالتعاون مع دوسلان، (ديوان إمرى القيس)، متنا وترجمة، بشروح ومقدمة عن حيلة الشاعر نقلا عن كتاب (الأغاني).
- ٦- ونشر دوسلان، في باريس سنة ١٨٣٨، مجموعة (أشعار الجاهليين).
- ٧- وترجم برون معظم (شعر المتلمس وطرفة)، ونشره في المجلة الآسيوية سنة ١٨٤١ مع دراسات قصيرة عن الشعاعرين.

(١) استقينا معظم معلوماتنا الإحصائية التالية من كتاب: المشرقون لنجيب العقيقي، ومعدنا من باب الاستشراق في فرنسا.

- ٨ - ونشر الأب برجس Barges (ديوان ابن الفارض) سنة ١٨٥٥ .
- ٩ - ونشر بوشيه Boucher (ديوان عروة بن الورد) في باريس سنة ١٨٦٧ .
- ١٠ - ونشر أيضا (ديوان الفرزدق) (ثلاثمئة وستين قصيدة تتألف من ثلاثة آلاف بيت)، متنا وترجمة، عن المخطوطة الوحيدة في مكتبة آيا صوفيا باستنبول، ما بين سنتي ١٨٧٠ و ١٨٧٥ .
- ١١ - ونشر ديرزنبورغ (ديوان النابغة الذبياني) بشرح الشتمري، مع ترجمة فرنسية، وأضاف إليه قصائد غير منشورة عزيت إليه في مجموعة شيفر، في باريس سنة ١٨٦٩ .
- ١٢ - ونشر غويار Guyard (ديوان بهاء الدين زهير المصري) سنة ١٨٨٣ .
- ١٣ - ونشر باسيه قصيدة (البردة) للبوصيري مع سيرة الشاعر ونقد وشرح للقصيدة سنة ١٨٩٤ .
- ١٤ - ونشر أيضا قصيدة (بانث سعاد) لكعب بن زهير.
- ١٥ - ونشر كذلك (ديوان أوس بن حجر) سنة ١٩١٢ .
- ١٦ - ونشر إضافة إلى ذلك (ديوان عروة بن الورد) زعيم الصعاليك سنة ١٩٢٦ .
- ١٧ - وترجم كارادوفو Carra de Vaux قصيدة ابن سينا في النفس (هبطت إليك من المحل الأرفع) سنة ١٨٩٩ .
- ١٨ - وترجم هو نفسه أيضا (تائية ابن الفارض) التي تتألف من سبعمئة وستة وأربعين بيتا .
- ١٩ - ونشر سلغسون Seligson (ديوان طرفة بن العبد) بشرح الشتمري، متنا وترجمة، مع تفسير وحواش، في باريس سنة ١٩٠١ .
- ٢٠ - وترجم رو A.Roux (لامية العجم) للطغرائي سنة ١٩٠٣ .
- ٢١ - وترجم أيضا (لامية ابن الورد) وقصيدة (بانث سعاد) لكعب بن زهير، سنة ١٩٠٤ .

- ٢٢ - ونشر كذلك (معلقة زهير) سنة ١٩٠٥ .
- ٢٣ - ونشر كليان هوار (ديوان سلامة بن جندل) في : المجلة الآسيوية سنة ١٩١٠ .
- ٢٤ - ونشر أيضا قصائد عفيف الدين التلمساني وابنه الشاب الظريف).
- ٢٥ - وقام بيريس H.Pérès بنشر (ديوان كثير عزة) في جزئين ، مع شرح وتعليق ، ضمن : منشورات كلية الآداب بالجزائر سنتي ١٩٢٧ و ١٩٣٠ .
- ٢٦ - ونشر ماسينيون (ديوان الخلاج) في : المجلة الآسيوية سنة ١٩٣١ . ثم قام بترجمته إلى الفرنسية ونشر طبعته الثانية سنة ١٩٥٥ .

ب - نشر الكتب الأدبية العامة وترجمتها :

ونركز، هنا على كتب الأدب العربي القديم ، مع ملاحظة أن ما ترجم من الأدب العربي الحديث في ميادين القصة والمسرحية والشعر وغيرها من الأنواع الأدبية يتزايد يوما بعد يوم لعدد من آثار كبار كتابنا كطه حسين وتوفيق الحكيم ومحمود تيمور ونجيب محفوظ وغيرهم . ولعل الحديث عن حركة الترجمة من العربية إلى الفرنسية في العصر الحديث يصلح أن يكون جزءا من بحث آخر مستقل يتناول بالدرس الأدب العربي الحديث عند المستعربين الفرنسيين . وفيما يلي سرد لأبرز ما نشره أو ترجمه المستعربون الفرنسيون من أدبنا القديم :

- ١ - ترجم غالان قصص (ألف ليلة وليلة) إلى الفرنسية لأول مرة بين سنتي ١٧٠٤ و ١٧٠٨ .
- ٢ - وترجم أيضا (أمثال لقمان) .
- ٣ - وأعاد كوسان دو برسفال الأب ترجمة جزء من (ألف ليلة وليلة) سنة ١٨٠٦ .
- ٤ - وقام أيضا بترجمة (أمثال لقمان) سنة ١٨١٨ .
- ٥ - وترجم كذلك (مقامات الحريري) سنة ١٨١٩ .
- ٦ - ونقل لانغليس إلى الفرنسية جزءا من (ألف ليلة وليلة) أيضا سنة ١٨١٣ .

- ٧ - وترجم أيضا قصة (السندباد البحري) سنة ١٨١٤ .
- ٨ - ونشر دوساسي متن (كليلة ودمنة) مع مقدمة في أصل الكتاب وترجمه ما بين سنتي ١٨١٦ و ١٨٢٢ .
- ٩ - ونشر أيضا (مقامات الحريري) بشرح مختار من جملة الشروح التي تقدمت، مع مقدمة عربية وترجمة لحياة الحريري نقلا عن كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان .
- ١٠ - وترجم مارسيل (أمثال لقمان) أيضا في مصر سنة ١٧٩٩ إبان حملة نابليون .
- ١١ - وترجم مونك (المقامتين الأولى والثالثة من مقامات الحريري) في سنة ١٨٣٤ .
- ١٢ - ونشر أيضا جزءا من (قصة عنتره) سنة ١٨٤١ .
- ١٣ - وترجم برون (قصة يوسف) سنة ١٨٤٧ .
- ١٤ - وترجم كذلك (قصة المعراج) سنة ١٨٥٤ .
- ١٥ - وترجم (رواية سيف التيجان) سنة ١٨٦٢ .
- ١٦ - وترجم دوتاسي de Tassy (الأمثال الأدبية) لعز الدين المقدسي بعنوان: (الصوادح والأزهار) سنة ١٨٢١ .
- ١٧ - وترجم أيضا إحدى (مقامات الحريري) سنة ١٨٢٣ .
- ١٨ - وترجم شربونو (المقامة الثلاثين من مقامات الحريري) سنة ١٨٤٦ .
- ١٩ - ونشر أيضا (أمثال لقمان) متنا وترجمة، بمقدمة ومعجم للمفردات، في باريس سنة ١٨٤٧ .
- ٢٠ - ونشر كذلك من (ألف ليلة وليلة) قصص: (شمس الدين ونور الدين) في باريس سنة ١٨٥٢ . و(دليلة المحتالة وبتها زينب النصابة) في باريس سنة ١٨٧٢ .
- ٢١ - ونشرت المستعربة غروف F. Groff من (ألف ليلة وليلة) حكاية (زين الأصنام)

- في باريس سنة ١٨٨٩ .
- ٢٢ - وترجم دفيك Devic (مختصر سيرة عنتره العامية) ونشرها بين سنتي ١٨٤٦ و ١٨٧٠ .
- ٢٣ - ونشر أيضا ترجمة لـ (مقامات الحريري) سنة ١٨٧٠ .
- ٢٤ - وأسهم دوغا مع آخرين في نشر الجزئين الأول والثاني من كتاب (نفع الطيب) للمقرى ، بمقدمة فرنسية عن حياة المؤلف وقيمة كتابه ، في ليون بين سنتي ١٨٥٨ و ١٨٦١ .
- ٢٥ - ونشر ديرزنبورغ كتاب (الاعتبار) لأسامة بن منقذ، متنا وترجمة ، في سنتي ١٨٨٩ و ١٨٩٢ .
- ٢٦ - ونشر أيضا كتاب (كليلة ودمنة) في باريس سنة ١٨٦٦ .
- ٢٧ - ونشر كذلك النص الأصلي لحكاية (علاء الدين والقنديل السحري)، متنا وترجمة ، مع حواش وتفاصيل، سنة ١٨٨٨ .
- ٢٨ - ونشر هوداس (مختارات من ألف ليلة وليلة) في الجزائر سنة ١٨٦٤ .
- ٢٩ - ونشر باسيه (ألف قصة وقصة)، وهي أخبار وأساطير عربية ، في باريس سنة ١٩٢٤ :
- ٣٠ - ونشر كازانوف (رحلات السندباد البحري) سنة ١٩٢٢ .
- ٣١ - وترجم ماردرروس (ألف ليلة وليلة) إلى الفرنسية في ستة عشر مجلدا .
- ٣٢ - ونشر ديمومبين (مقدمة كتاب الشعر والشعراء) لابن قتيبة ، متنا وترجمة ، مع تعليقات عليها ، في باريس ، سنة ١٩٤٧ .
- ٣٣ - ووضع بريس كتاب (الأدب العربي والإسلام بالنصوص) ، وقد نشرت طبعته السادسة في الجزائر سنة ١٩٥٥ .
- ٣٤ - ونشر بيلا (رسالة الترييع والتدوير) للجاحظ مع مقدمة بالفرنسية ضمن منشورات المعهد الفرنسي بدمشق سنة ١٩٥٦ .
- ٣٥ - وكان بيلا قد نشر من قبل ترجمة لكتاب (البخلاء) للجاحظ ، في باريس سنة ١٩٥١ .

- ٣٦ - ونشر بيلا كذلك ترجمة لكتاب (التاج في أخلاق الملوك) للجاحظ أيضا .
- ٣٧ - وترجم بلاشير بالتعاون مع ماسنو P.Masnou عددا من (مقامات الهمذاني) في باريس سنة ١٩٥٧ .
- ٣٨ - وترجم را Rat كتاب (المستطرف في كل فن مستظرف) لمصنفه الأبيهي ، ونشره في باريس بين سنتي ١٨٩٩ و ١٩٠٢ .
- ٣٩ - وترجم أندريه ميكيل فصولا من كتاب (كليلة ودمنة) في باريس سنة ١٩٥٧ .
- ٤٠ - ونشر مارك برجيه M.Berge ترجمة لكتاب (الامتناع والموانسة) لأبي حيان التوحيدي ، في دمشق سنة ١٩٦٩ .

ونلاحظ فيما سلف أن المستعربين الفرنسيين كانوا يركزون على آثار معينة من تراثنا الأدبي تتعلق بالأنواع التالية : القصة ، والمثل ، والمقامة ، والحكاية ، والطرفة ، والسير الشعبية ، والأدب العام . وتتصف الآثار المختارة للنشر والترجمة بثلاث سمات أساسية هي : الشعبية ، والامتناع ، والخلود على مر الزمان .

جـ- نشر المختارات الأدبية وترجمتها :

لما كان من الصعب نقل النص الأدبي من لغة إلى أخرى من غير أن يفقد روحه وخصائصه الأسلوبية والجمالية نتيجة للحذف والتعديل والتحويل وغير ذلك من متطلبات الترجمة الأدبية ، وخاصة الترجمة الشعرية ، فقد وجم المستعربون الفرنسيون أمام التوسع في نقل الكتب الأدبية العربية ، وكان تحفظهم أمام الكتب النثرية أقل بكثير منه أمام الشعر ودواوينه ، واستبدلوا بذلك جمع المختارات الملائمة للترجمة لشهرتها عند العرب أو لأنها تمثل جانبا من جوانب هذا الأدب يمكن أن يعطي القارئ الفرنسي المستعرب أو العادي صورة للأدب العربي قريبة من الواقع قدر الإمكان .

وربما شارك بعض الكتاب العرب ممن يعملون مع المستعربين الفرنسيين أو يقيمون في فرنسا ، في صنع مثل هذه المختارات لتعريف الجمهور الفرنسي المثقف

بآثار اللغة العربية، وهذا عرض لأهم مانشره منذ مطلع القرن الماضي إلى اليوم :

١ - نشر دو ساسي مختارات أدبية شهيرة أطلق عليها عنوانا مسجوعا هو: (الأنيس المفيد للطالب المستفيد). وقد حوت هذه المجموعة مثلاً (لامية العرب) للشنفري، وبعض أشعار (المعري)، وبعض (مقامات بديع الزمان الهمذاني)، إلى جانب نصوص مختلفة من كتب الأدب والتاريخ والرحلات وغيرها. وقد وقعت مختاراته هذه في ثلاثة مجلدات متنا وترجمة وتعليقا، ثم طبعها بين سنتي ١٨٠٦ و ١٨٢٦.

٢ - ونشر أيضا في سنة ١٨٢٧ مختارات شعرية أسماها (الدر المختار)، متنا وترجمة وتعليقا وتحتوي فيما تحتوي على (معلقة الأعشى) و(معلقة النابغة).

٣ - ونشر همبير Humbert في سنة ١٨١٩ منتخبات عربية أو أشعارا عربية غير منشورة.

٤ - ونشر دو لاغرانج في سنة ١٨٢٨ منتخبات من الشعر العربي أسماها: (نخب الأزهار في منتخب الأشعار).

٥ - وله أيضا مختارات أدبية أخرى أسماها: أزكى الرياحين من أسنى الدواوين). ومن جملة محتوياته ترجمة لعدد من مقامات الهمذاني، وقد نشرها سنة ١٨٢٨.

٦. ونشر برينيه منتخبات أدبية باللغة العربية العامة بين سنتي ١٨٤٦ و ١٨٦٧.

٧ - ونشر بيلان Belin منتخبات أدبية باللغة العربية العامة أيضا.

٨ - ونشر دو تاسي منتخبات أدبية عربية، متنا وترجمة، بعنوان: (مجموع الرموز الشرقية).

٩ - ونشر دو مارتينو F.de Martino بالتعاون مع عبد الخالق سروت : مختارات من الغزل العربي. وكانت طبعها الثالثة سنة ١٩٠٢.

١٠ - ونشر سالمون G.Salmon منتخبات من رسائل المعري وأشعاره، متنا وترجمة،

مع مقدمة، في باريس سنة ١٩٠٤ .

١١ - ونشر ماشويل كتابا بعنوان : (مؤلفون عرب)، في باريس سنة ١٩٢٤ ، وله عنوان آخر هو : (صفحات مختارة من كبار الكتاب العرب) .

١٢ - ونشر سعد الدين بن شنب، وهو من العرب الجزائريين العاملين مع المستعربين الفرنسيين في حقل الدراسات ومقيم في فرنسا، ترجمات من الشعر العربي الحديث، في وهران سنة ١٩٤٥ .

١٣ - ونشر درمنغم Dermenghem مختارات عربية بعنوان : (أجل النصوص العربية)، في باريس سنة ١٩٥١ .

١٤ - ونشر رنيه خوام، وهو عربي مقيم في باريس، نصوصا من الشعر العربي، في باريس سنة ١٩٦٠ .

١٥ - ونشر مونتي، الذي أعلن اسلامه حديثا، مختارات من الأدب العربي المعاصر بالعربية والفرنسية، في بيروت سنة ١٩٦١ .

١٦ - ونشر مكاروريوس Makarius، بالتعاون مع آخرين، مختارات من الأدب العربي المعاصر في الرواية والقصة، في باريس سنة ١٩٦٤ .

د- تأليف الدراسات الأدبية الخالصة :

ويتناول مثل هذه الدراسات في العادة حياة كاتب من الكتاب المشهورين وآثاره، أو حياة شاعر من الشعراء وأشعاره، وربما تطرق إلى تناول فن من فنون الأدب أو أسلوب من أساليبه أو مدرسة من مدارسها أو تيارا من تياراته، وربما درس عصرا من العصور الأدبية أو حاول دراسة تاريخ الأدب العربي عبر العصور. وسنرى نموذجا من كل نوع من أنواع هذه الدراسات أو أكثر، وهذه الدراسات على وجه العموم نوعان: الأول نشر بشكل كتب. والثاني نشر بشكل مقالات في نشرة أو مجلة أو دورية أو مجموعة من المجموعات الاستعرابية أو الاستشرافية. على أننا سنقصر جهودنا، هنا، على ذكر الشكل الأول من النشر، وأما الشكل الثاني فنسعرض لما تدعو الضرورة القصوى إلى ذكره نظرا لأهميته الخاصة في سياق

الدراسات الأدبية عامة :

١ - الكتب :

- ١ - كتب دوغا دراسة عن الشاعر (هدبة بن الحشرم) نشرها سنة ١٨٥٥ .
- ٢ - وكتب باسيه دراسة عن (الشعر العربي قبل الإسلام) نشرها سنة ١٨٨٠ .
- ٣ - وكتب كليمان هوار تاريخاً للأدب العربي من أصوله حتى زمانه بعنوان : (الأدب العربي) ، نشر طبعته الأولى سنة ١٩٠٢ ، ثم طبع بعد ذلك مراراً ، ظل معولاً عليه في بابيه عند المستعربين الفرنسيين إلى أن زحزحه من المقدمة كتاب المستعرب الفرنسي المشهور ريجيس بلاشير الذي سيرد ذكره لاحقاً .
- ٤ - وله دراسة عن (وهب بن منبه) نشرها سنة ١٩٠٤ .
- ٥ - وله كذلك دراسة في وجه الشبه بين جملة من معاني القرآن الكريم وأشعار أمية بن أبي الصلت الثقافي ، نشرها سنة ١٩٠٤ . وكانت غايته من هذه الدراسة أن يثبت - على حد زعمه - أن شعر أمية كان أحد المصادر التي اعتمد عليها النبي (صلى الله عليه وسلم) في وضع القرآن . . والعياذ بالله !
- ٦ - وكتب دوما C.Dumas دراسة بعنوان : (أبو زيد السروجي بطل مقامات الحريري) نشرها في الجزائر سنة ١٩١٧ .
- ٧ - وكتب أوغست كور دراسة حول : (ابن زيدون : حياته وأشعاره) ، نال بها درجة الدكتوراه ، ونشرها في قسنطينة سنة ١٩٢٠ .
- ٨ - وكتب ريجيس بلاشير دراسة بعنوان : (شاعر من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي : أبوالطيب المتنبي) ، نال بها درجة الدكتوراه من جامعة السوربون ونشرها بباريس سنة ١٩٣٥^(١) .
- ٩ - وصمم ريجيس بلاشير بحثاً قيمياً وطموحاً بعنوان : (تاريخ الأدب العربي من الأصول إلى نهاية القرن الخامس عشر) ، غير أنه نشر ثلاثة مجلدات منه فقط بين

(١) وقد نقلها إلى العربية أستاذي الفاضل الدكتور إبراهيم الكيلاني ، ونشرتها وزارة الثقافة بدمشق سنة ١٩٧٥ ، ثم نشرت دار الفكر بدمشق طبعته الثانية سنة ١٩٨٥ . ويلحظ بين منهجها ومادتها وبين منهج كتاب (مع المتنبي) للدكتور طه حسين ومادته شبه كبير ، وكان الأخير قد نشر سنة ١٩٣٦ لأول مرة .

سنتي ١٩٥٢ و ١٩٦٦ ، وحالت وفاته سنة ١٩٧٣ دون اتمامه ، ولا تغطي هذه المجلدات سوى الفترة الجاهلية وصدر الإسلام والعصر الأموي ^(١).

١٠ - وألف هنري بيريس ، وهو من المدرسة الجزائرية في الاستعراب الفرنسي ، دراسة عن : (الشعر الأندلسي بالعربية الفصحى في القرن الحادي عشر الميلادي وخصائصه العامة) ، نال بها درجة الدكتوراه ، ونشرها في باريس سنة ١٩٣٧ .

١١ - وكتب شارل بيلا دراسة عن : (الوسط البصري وتكوين الجاحظ) ، نال بها درجة الدكتوراه ، ونشرها في باريس سنة ١٩٥٣ ^(٢).

١٢ - وكتب بيلا أيضا بحثا في تاريخ الأدب العربي باختصار بعنوان : (اللغة العربية وأدائها) ، نشره سنة ١٩٥٢ ^(٣).

١٣ - وكتب جبرار لوكونت بحثا عن : (ابن قتيبة : الإنسان ، إنتاجه ، أفكاره) ، نال به درجة الدكتوراه ، ونشره ضمن منشورات المعهد الفرنسي بدمشق سنة ١٩٦٥ .

١٤ - وألف غاستون فييت بحثا في تاريخ الأدب العربي بمعناه الواسع الشامل لمختلف فروع المعرفة المدونة في العربية بعنوان : (مدخل إلى الأدب العربي) ، ونشره في باريس سنة ١٩٦٦ .

١٥ - وكتب جان فادييه J.Vadet دراسة عن : (الغزل عند العرب حتى القرن الخامس

(١) وقد نقل أستاذي الدكتور ابراهيم الكيلاني هذه المجلدات الثلاثة التي انجزها بلاشير في حياته إلى العربية أيضا ، ونشرت في وزارة الثقافة بدمشق في ثلاثة مجلدات كذلك ظهرت كالتالي : الأول والثاني سنة ١٩٧٣ ، والثالث ١٩٧٤ . ثم نشرت دار الفكر بدمشق طبعته الثانية في مجلد واحد سنة ١٩٨٤ .

(٢) وقد استلهمها الدكتور أحمد كمال زكي في دراسته : (الحياة الأدبية في البصرة إلى نهاية القرن الثاني الهجري) التي نشرت طبعته الأولى سنة ١٩٦٠ . وقد نشر الدكتور إبراهيم الكيلاني كذلك كتاب بيلا إلى العربية بعنوان : (الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء) في دار الأيقظة العربية بدمشق سنة ١٩٦١ . ثم نشرت دار الفكر بدمشق طبعته الثانية سنة ١٩٨٥ .

(٣) وقد أخبرني المؤلف ، في رسالة موجهة إلى بتاريخ ١٠ شباط من سنة ١٩٧٦ ، أن هذا البحث قيد الترجمة إلى العربية في تونس .

- المهجري)، ونال بها درجة الدكتوراه، ونشرها في باريس سنة ١٩٦٨ (١) .
- ١٦ - ونشر أندريه ميكيل كتيباً في تاريخ الأدب العربي من أصوله إلى اليوم باختصار شديد بعنوان : (الأدب العربي)، ضمن سلسلة (كوسيج) رقم ١٣٥٥، باريس ١٩٦٩ (٢) .
- ١٧ - وكتب مارك برجيه دراسة عن : (أبي حيان التوحيدي)، نال بها درجة الدكتوراه سنة ١٩٧٤ (٣) .
- ١٨ - وكتب نيكيتا إيليسيف N.Élisseeff دراسة قيمة عن قصص ألف ليلة وليلة بعنوان : (مباحث في ألف ليلة وليلة وموضوعاتها)، ونشرها ضمن منشورات المعهد الفرنسي بدمشق سنة ١٩٤٩ .
- ١٩ - وسجل شارل فيال Ch.Vial بحثاً للدكتوراه في : (الاتجاهات الاجتماعية في القصة العربية في الفترة المعاصرة) سنة ١٩٥٧ .
- ٢٠ - وسجل فرانسوا فيريه F.Viré بحثاً في : (الطرديات في الأدب العربي) سنة ١٩٥٩ لنيل الدكتوراه .
- ٢١ - وسجلت المستعربة راشيل آرييه R.Arié أطروحة بعنوان : (آثار لسان الدين بن الخطيب) سنة ١٩٦٢ لنيل الدكتوراه .
- وهناك عدد من الدراسات الأدبية الخالصة والبحوث . . تقدم باستمرار لنيل الدرجات العلمية في الجامعات، إضافة إلى تلك الدراسات والبحوث التي يكتبها المستعربون عامة ضمن نشاطاتهم العلمية العادية . ومع تقدم خطوات الاستعراب الفرنسي وازدهاره تتنوع الدراسات الأدبية لتشمل كل فنون الكتابة والقول في مختلف العصور الأدبية قديمها وحديثها .
-
- (١) وقد ترجمها إلى العربية استاذنا الدكتور إبراهيم الكيلاني ونشرها في مجلدين سنة ١٩٧٩ بعنوان : (الغزل عند العرب) ضمن منشورات وزارة الثقافة بدمشق .
- (٢) وقد بلغني إنه ترجم إلى العربية في تونس .
- (٣) وما زالت أطروحة مضروبة على الآلة الكاتبة في ثلاثة مجلدات في حدود اطلاعنا .

٢- المقالات :

لاحصر للمقالات التي كتبت في موضوعات أدبية ، ولايمكننا بالتالي أن نحيط بها هنا ، لأن حصرها خارج على نطاق بحثنا هذا ، غير أن من أراد الاطلاع على طرف منها قبل سنة ١٩٠٦ بإمكانه أن يعود إلى أهم الدوريات الاستشرافية أو الاستعرافية في فرنسا . فإذا أراد الاطلاع على كل المقالات المنشورة في مختلف الدوريات والمجلات باللغة الفرنسية منذ سنة ١٩٠٦ ، فيمكنه الرجوع إلى إحصائية شاملة لها جميعاً تقريباً في الفهرس القيم جدا الذي قام بوضعه وتصنيفه المستعرب الإنكليزي الخطير بيرسون J.D.Pearson بعنوان : (Index Islamicus) . وقد بذل فيه جهوداً جبارة تنوّحت تحتها اللجان والمؤسسات ، وكانت غايته النبيلة توفير الجهود والأوقات التي تبذل هدراً في البحث عن مقالة معينة في موضوع معين والمؤلف معين منشورة في مجلة أو دورية ما في عدد ما من زمن ما وبلغة ما من لغات المستشرقين أو المستعربين في العالم أجمع . ولهذا الفهرس ميزة الترتيب والتصنيف المنهجين لكل المعلومات المتعلقة بالمقالات : فهو يبدأ بترتيب فروع الاستشراق الإسلامي والاستعراب بحسب الاختصاصات : الأدب ، اللغة ، التاريخ ، الجغرافيا ، الخ . ثم يرتب المقالات في كل اختصاص منها بحسب توالي العصور والموضوعات ويعطي معلومات وافية عن كل مقالة على حدة مثل : اسم الكاتب وعنوان المقالة ، واسم المجلة التي نشرت المقالة فيها ، والعدد والسنة ، وأرقام الصفحات التي تمتد عليها المقالة . ويعطينا المصنف في نهاية عمله فهرس وافية ودقيقة لأسماء الكتاب من جهة ، وعناوين مقالاتهم من جهة ثانية . وبما ييسر الرجوع إلى هذه المقالة أو تلك في أي موضوع أن المصنف أعطى المقالات أرقاماً تصاعديّة متسلسلة من أول مقالة إلى آخر مقالة في هذا العمل ، وهذا ييسر بطبيعة الحال القيام بإحصائيات دقيقة لأثار كل مستعرب في ميدان المقالات ، بوصفها أحد الأنشطة العلمية التي لا بد منها عند كل باحث مبدع . وقد صدر المجلد الأول من هذا (الفهرس الإسلامي) الإحصائي القيم سنة ١٩٥٥ ، وقد كان من منهج عمل المصنف أن يتابع نشر مجلدات هذا العمل وملاحقه الضرورية تبعاً إلى أن يغطي آخر مقالات الباحثين من المستشرقين والمستعربين وأحدثها على

وجه الإطلاق^(١)، مع استدراك ما يمكن أن يكون قد فاته من المقالات في الفترات السابقة.

وفيا يلي نماذج من هذه المقالات الأدبية الخالصة :

- ١ - شعراء العرب وأدباؤهم : كتبها شربونو في (المجلة الآسيوية) الفرنسية .
- ٢ - أصول النثر الأدبي العربي : كتبها وليم مارسيس في (المجلة الأفريقية) سنة ١٩٢٧ (٢) .
- ٣ - اقتباس بول وفرجين في اللغة العربية : كتبها سوسي Saussey في (نشرة الدراسات العربية) بالجزائر سنة ١٩٣١ .
- ٤ - إبراهيم المازني وقصة إبراهيم : لسوسي أيضا في النشرة نفسها سنة ١٩٣٢ .
- ٥ - أحمد شوقي : كتبها هنري بيريس في (حوليات معهد الدراسات الشرقية)، ٢، ١٩٣٦ .
- ٦ - القصة والرواية والأقصوصة في الأدب العربي الحديث : لبيريس أيضا في الحوليات نفسها سنة ١٩٣٧ .
- ٧ - مقدمات المؤلفين العرب لقصصهم وأقاصيصهم : لبيريس كذلك في الحوليات نفسها سنة ١٩٣٩ - ١٩٤١ .
- ٨ - حديث عيسى بن هشام للمويلحي : لبيريس كذلك في (مجلة الدراسات الشرقية)، ١٠، ١٩٤٤ .
- ٩ - أدب العامة والنهضة الأدبية الحديثة : كتبها لوسرف Lecerf في (نشرة الدراسات الشرقية) سنة ١٩٣٣ .
- ١٠ - الأدب العربي الحديث وتعليم اللغة العربية في سورية : كتبها لوسرف أيضا في (المجلة الافريقية) سنة ١٩٣٢ .

(١) يغطي المجلد الأول من هذا الفهرس الإسلامي مقالات المستشرقين والمستعربين من سنة ١٩٠٦ إلى سنة ١٩٥٥ . والثاني من سنة ١٩٥٦ إلى سنة ١٩٦٠ . والثالث من سنة ١٩٦١ إلى سنة ١٩٦٥ . والرابع من سنة ١٩٦٦ إلى سنة ١٩٧٠ ، والخامس من سنة ١٩٧١ إلى سنة ١٩٧٢ . والسادس من سنة ١٩٧٢ إلى سنة ١٩٧٣ . والسابع من سنة ١٩٧٣ إلى سنة ١٩٧٤ ، الخ .
(٢) وقد ترجمتها إلى العربية بالعنوان نفسه ونشرتها مع نقد وتعليقات في مجلة التراث العربي بدمشق، العدد ١٨، ١٩٨٥، ص ٩٠ - ١٠٤ .

١١ - الاتجاه الصوفي عند جبران خليل جبران : كتبها لوسرف في (مجلة الدراسات الإسلامية) ١٩٥٣ - ١٩٥٤ .

١٢ - الأدب العربي المعاصر والاتجاهات الاجتماعية : له أيضا

١٣ - أبوالعلاء المعري وفلسفته : كتبها هنري لاوست في (نشرة الدراسات الشرقية)، ١٩٤٣، ١٠، ١٩٤٤ .

١٤ - الوزير الشاعر ابن زمرك : كتبها بلاشير في (حوليات معهد الدراسات الشرقية)، ٢، ١٩٣٦ .

١٥ - سيرة الشاعر المترسل ابن دراج القسطلبي الأندلسي : كتبها بلاشير أيضا في (مجلة هسبيريس Hespèris)، ٧، ١٩٢٣ .

١٦ - ابن القارح ورسالة الغفران للمعري : له أيضا في (مجلة الدراسات الإسلامية) سنة ١٩٤١ .

١٧ - الجاحظ في بغداد وسامراء : كتبها شارل بيبلا في (نشرة الدراسات الشرقية)، ١٧، ١٩٥٢ .

وبهذا نكون قد استعرضنا أبرز جهود المستعربين الفرنسيين في مجال الدراسات الأدبية العربية، ونرى من خلال ذلك أنهم قد نقلوا جزءا من تراثنا الأدبي إلى الفرنسية، مسهمين بذلك في تعريف خاصة المثقفين الفرنسيين وعامتهم والمتخصصين منهم بالعربية، بجملة من آثارنا الأدبية الجميلة. وقد أفادونا نحن العرب أيضا بما نشروا من آثارنا الأدبية محققة تحقيقا علميا جادا، إذ أحياها بعد طول سبات، وعرضوها للنور، وقد تتبعنا خطاهم في هذا الطريق كما اتبعنا طريقتهم في تحقيق التراث المخطوط ونشره، بعد أن كانت كتبنا تصدر، بعد دخول المطبعة إلى بلادنا، ساذجة غفلا من أي لمسة تحقيقية أو توثيقية تذكر، كي تكون في خدمة هذا الكتاب أو ذاك وخدمة مادته. فأدى ذلك إلى ظهور طبعات محققة تحقيقا علميا على أيدي عدد من علماء اللغة والأدب المطلعين على جهود المستعربين الغربيين عامة والفرنسيين خاصة في هذا المجال المهم. وهكذا لم تعد الطريقة البولائية لنشر الكتب تلقى رواجاً، وهي الطريقة التي تقوم على نقل المخطوط كما هو من الحرف اليدوي

إلى الحرف الطباعي، فنشاهد السطور في الصفحة الواحدة مسبوكة سبكا يتلو بعضها بعضا من غير فراغ يذكر أو مساحة بيضاء ترتاح العين لها أثناء القراءة، ومن غير وجود فاصلة ولا نقطة ولا أي إشارة من إشارات التقييم المصطلح عليها في هذا العصر، ومن غير هوامش تشرح الألفاظ وتقابل بين النسخ المخطوطة للكتاب لمعرفة أصبح وجه من وجوه قراءة النص نشرًا كان أم شعرا، بل أن هوامش الكتاب العليا واليمنى أو اليسرى والسفلى كانت تشغل بطباعة كتاب آخر على طريقة: نشر الكتاب الفلاني على هامش الكتاب الفلاني. كما أن الكتب المنشورة بهذه الطريقة غالبا ما تنفقر إلى التقديم. إضافة إلى إهمالها أي نوع من أنواع الفهارس الخاصة، وخلوها من أي نوع من أنواع التخريج للنصوص الهامة (من القرآن، والحديث، والأشعار، والأمثال، الخ). زد على كل ذلك إهمال الشكل أو الضبط بأي صورة كانت لحروف الكلمات أو الضروري منها على الأقل لرفع مافيه من اللبس. وهذه كلها أدواء ونواقص لا يمكن عِلْم التحقيق الحديث أن يقبل بها أو يساوم فيها.

وهناك فرق هائل بين قراءة مخطوطة تطبع كما هي وأخرى تطبع محققة، يمكن إن نمثل له بالفرق بين سائح يزور بلدا من البلدان على هواه من غير تخطيط، وسائح آخر يحمل دليلا سياحيا قد سجلت فيه المناطق المختلفة والمدن والقرى ومافيه من آثار ومتبجعات ومرافق سياحية، مع شرح واضح ومفصل عن كل منها، إلى جانب حمله خرائط تفصيلية لهذا البلد عليها الأسماء والمسافات والأزمنة والتوقيتات ولوائح الأسعار والمواصلات، مع كتاب يتحدث عن أخلاق أهل البلد وعقائدهم وعاداتهم ووشيء من آدابهم، الخ.

وقد رأينا كذلك إسهام المستعربين الفرنسيين في تسليط الأضواء على تراثنا الأدبي بما قاموا به من دراسات على شكل كتب أو مقالات، وهي حافلة بالتحليلات والآراء والأفكار الجديرة بالتوضيح والإفهام من نحو، وتحريض الأفكار وإثارة التساؤلات وتلقيح الأفكار من نحو آخر.

٣- الدراسات التاريخية

لمثل هذه. الدراسات أهمية عظيمة في تبيين الأوضاع الماضية التي كانت عليها أمة من الأمم أو مجتمعات من المجتمعات في زمن ما، ثم رصد تطورها عبر العصور التالية والوصول بذلك إلى الفترة الراهنة. ويشمل ذلك تاريخ الشخصيات والأحداث والنظم السياسية والاقتصادية والتشريعية والعلاقات الدولية التي كانت تربط أمة ما بغيرها من الأمم المجاورة أو البعيدة. وقد دفع هذا كله المستعربين الفرنسيين إلى الخوض في هذا المجال والإسهام في كشفه لمعرفة العرب معرفة قريبة ودقيقة ومباشرة، ودراسة حركتهم على مسرح التاريخ في العصور الماضية، ومن ثم تحديد موقعهم الحقيقي بين الأمم في العصر الحالي.

ومن أبرز دراساتهم التاريخية التي أنجزوها مايلي:

- ١- كتب جان جاك سيديو J.J. Sédillot بحثاً بعنوان: خلاصة تاريخ العرب. وقد ترجمه عادل زعيتر إلى العربية بعنوان: تاريخ العرب العام.
- ٢- وألف رينو: فتوح العرب في فرنسا، سنة ١٨٣٦.
- ٣- وألف ديفرجيه: تاريخ العرب في الجاهلية.
- ٤- وألف لوبون: حضارة العرب، باريس ١٨٨٤، وترجمه إلى العربية بالعنوان نفسه عادل زعيتر.
- ٥- وألف أرمان دوبرسفال: باكورة تاريخ العرب، في ثلاثة أجزاء، سنة ١٨٤٧.
- ٦- وكتب ديمومبين: تاريخ بنى الأحمر ملوك غرناطة، باريس ١٨٩٨.
- ٧- وكتب أيضاً: الشام في عهد المماليك، باريس سنة ١٩٢٣.
- ٨- ونشر بيريه سيرة بعنوان: حياة الحجاج بن يوسف الثقفي، باريس سنة ١٩٠٢.
- ٩- وألف هوار: تاريخ بغداد في العصر الحديث، سنة ١٩٠١.
- ١٠- ونشر أيضاً كتاباً بعنوان: تاريخ العرب، في جزئين، باريس ستي ١٩١٢.

١٩١٣.

- ١١ - ونشر فييت بحثا بعنوان : مصر العربية من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، باريس سنة ١٩٣٢ .
- ١٢ - ونشر هنري دوسو H.Dussaud بحثا بعنوان : الطبغرافية التاريخية لسورية، سنة ١٩٣٢ .
- ١٣ - ونشر أيضا كتابا بعنوان : العرب في الشام قبل الاسلام، سنة ١٩٥٥ .
- ١٤ - ونشر كلود كاهن Cl.Cahen أطروحة بعنوان : سورية الشمالية في عصر الحروب الصليبية، سنة ١٩٤٠ .
- ١٥ - ونشر ليفي - برونفسال بحثا بعنوان : تاريخ اسبانيا الاسلامية، في ثلاثة مجلدات، في باريس، بين سنتي ١٩٥٠ و ١٩٥٣ .
- ١٦ - ونشر أيضا كتابه : اسبانيا المسلمة في القرن العاشر، باريس سنة ١٩٣٢ .
- ١٧ - ونشر كذلك كتابا بعنوان : الحضارة العربية في اسبانيا، القاهرة سنة ١٩٣٨ .
- ١٨ - ونشر أيضا دراسة بعنوان : التاريخ السياسي لاسبانيا في عهد الخلافة، سنة ١٩٥٠ .
- ١٩ - وكتب جان سوفاجيه أطروحة بعنوان : حلب، سنة ١٩٤٢ .
- ٢٠ - ونشر كنار Canard بحثا بعنوان : الحمدانيون، في جزئين، سنة ١٩٥١ .
- ٢١ - ونشر أيضا كتابا لفاسيليف Vasiliev عنوانه : بيزنطة والعرب، بعد تنقيحه وتهذيبه .
- ٢٢ - وقدم برونشفينغ R.Brunschvig أطروحة بعنوان : الحفصيون، بين سنتي ١٩٤٠ و ١٩٤٧ .
- ٢٣ - وقدم هنري تراس H.Terrasse أطروحة بعنوان : الفن الاسباني - المغربي من أصوله إلى القرن الثالث عشر، سنة ١٩٣٢ .
- ٢٤ - ونشر جورج مارسيه G.Marcais كتابا بعنوان : فن العمارة الاسلامية في الغرب، سنة ١٩٥٤ .
- ٢٥ - وكتب نيكيتا ايليسيف دراسة بعنوان : نورالدين زنكي، في ثلاثة مجلدات، سنة ١٩٦٧ .

- ٢٦- وكتب دومينيك سورديل D.Sourdel دراسة بعنوان الوزارة العباسية .
- ٢٧- ونشر أيضا بالتعاون مع جانين سورديل - تومين J.Sourdel Thomine كتابا بعنوان : حضارة الإسلام الكلاسي ، سنة ١٩٦٩ .
- ٢٨- وكتب كولومب Colombe كتابا بعنوان : تطور مصر من سنة ١٩٢٤ إلى سنة ١٩٥٠ ، ونشره سنة ١٩٥١ .
- ٢٩- وقدم أيضا أطروحة بعنوان : الشرق العربي والقوى الكبرى من سنة ١٩٤٥ إلى سنة ١٩٦١ ، ونشرها في باريس سنة ١٩٧٢ .
- ٤- الدراسات الإسلامية :

جهد المستعربون الفرنسيون في اطلاع الجمهور الفرنسي على الإسلام وتعاليمه وتاريخه ونظمه ، وتقريب صورته أو تصويره إلى أذهانهم قدر الإمكان ، بما قدموا له من ترجمات كثيرة لنص القرآن الكريم رأينا أبرزها فيما سلف ^(١) ، وترجمة عدد من كتب الفقه والأصول ، وبما كان لهم كذلك من جولات ووصلات في ميدان البحث في تاريخ الإسلام ونظمه ، وفي تحليل واقع المسلمين الاجتماعي . ولم تكن غاية هؤلاء المستعربين ، من ترجماتهم أو بحوثهم هذه ، الدعوة إلى الإسلام بأي حال من الأحوال ، وإنما كانت غايتهم إشباع فضول أبناء لغتهم ووطنهم إلى معرفة هذه العقيدة المشعة الحية التي لا تزال قوة محرّكة لقربانة مليار إنسان من سكان المعمورة يعيشون في أواخر هذا القرن العشرين ، كما كانت من قبل قوة محرّكة لأحداث التاريخ في الزمن الغابر ، بالإضافة إلى محاولة فهم السر الكامن وراء قوتها وأثرها الساحر العميق في ألباب أتباعها ونفوسهم إلى اليوم . وهذه جملة من أبرز ما قدمه المستعربون الفرنسيون في هذا المجال :

- ١- نشر دور كوروا du Courroy بحثا بعنوان : التشريع الإسلامي في المذاهب السنية والشيعة ، باريس ، ١٩٤٨ .
- ٢- وكتب دو كورتي بحثا بعنوان : معراج محمد ومعجزاته ، سنة ١٨٨٨ .
- ٣- وكتب دوغا بحثا عنوانه : فلاسفة المسلمين وفقهاؤهم من سنة ٦٣٢ إلى سنة ١٣٥٨ للميلاد ، ونشره سنة ١٨٧٨ .

(١) انظر : ص ٥٨-٥٩ من هذا البحث .

- ٤ - وكتب سانتيلير St-Hilaire بحثا بعنوان : محمد والقرآن ، ونشره سنة ١٨٦٥ .
- ٥ - وكتب مونتيه بحثا بعنوان : حاضر الإسلام ومستقبله ، باريس ، سنة ١٩١٠ .
- ٦ - وكتب أيضا بحثا عنوانه : الإسلام ، سنة ١٩٢١ .
- ٧ - وكتب دينيه Dinet بحثا بعنوان : الحج إلى بيت الله الحرام .
- ٨ - وكتب أيضا بالتعاون مع سليمان بن ابراهيم بحثا بعنوان : محمد في السير النبوية .
- ٩ - ونشر فانيان Fagnan بحثا بعنوان : الجهاد أو الحرب المقدسة حسب الفقه المالكي ، في الجزائر ، سنة ١٩٠٨ .
- ١٠ - وكتب أيضا بحثا بعنوان : الزواج في الشرع الإسلامي ، سنة ١٩٠٩ .
- ١١ - ونشر غوتيه بحثا بعنوان : مدخل إلى الفلسفة الإسلامية ، في باريس ، سنة ١٩٢٣ .
- ١٢ - وكتب سيدرسكي Siderski بحثا بعنوان : مصادر الأساطير الإسلامية في القرآن وسير الأنبياء ، باريس ، ١٩٢٣ .
- ١٣ - ونشر كارادوفو بحثا بعنوان : مفكرو الإسلام ، في خمسة مجلدات ، بين ستي ١٩٢١ و ١٩٢٦ .
- ١٤ - ونشر برونو Bruno بحثا بعنوان : النظام المالي في الشرع الإسلامي ، سنة ١٩١٣ .
- ١٥ - وألف ديمومبين كتابا بعنوان : النظم الإسلامية ، ١٩٣١ وقد نقل إلى العربية في ترجمتين .
- ١٦ - ونشر أيضا كتابا بعنوان : الحج إلى مكة ، في باريس ، ١٩٢٣ .
- ١٧ - ونشر كذلك كتابا بعنوان : (محمد : الرجل ورسالته) ، في باريس ، سنة ١٩٥٧ .
- ١٨ - وكتب هنري ماسيه H.Massé بحثا بعنوان : الإسلام ، سنة ١٩٣٠ .
- ١٩ - ونشر بلاشير بحثا بعنوان : قضية محمد ، سنة ١٩٥٢ .

- ٢٠- ونشر أيضا بحثا بعنوان : مدخل إلى القرآن، سنة ١٩٤٧ .
- ٢١- ونشر كذلك بحثا صغيرا بعنوان : القرآن، ضمن سلسلة (كوسيج؟) برقم ١٢٤٥ .
- ٢٢- ونشر كلود كاهن دراسة بعنوان : الإسلام، سنة ١٩٧٠
- ٢٣- ونشر هنري لاوست بحثا بعنوان : ابن تيمية ودراسة مصطلحي القرن التاسع عشر.
- ٢٤- ونشر ماسينيون دراسة في التصوف بعنوان : آلام الحلاج، سنة ١٩٢٢، وهي في الأصل أطروحة جامعية .
- ٢٥- ونشر أيضا بحثا عنوانه : دراسة عن أصول المعجم التقني للتصوف الإسلامي، ط٢، ١٩٥٤ .
- ٢٦- ونشر لوي غاردية L.Gardet بحثا بعنوان : الإسلام دينا ومجتمعا .
- ٢٧- ونشر مكسيم رودنسون M.Rodinson عددا من الكتب التحليلية والمقارنة الهامة من أبرزها :
أ- محمد .
ب- الإسلام والرأسمالية
ج- الإسلام والماركسية .
٥- الدراسات الجغرافية :

لم يتناول المستعربون الفرنسيون هذا النوع من الدراسات من الناحية الجغرافية بالمفهوم العلمي المحض للكلمة، ذلك لأن إنجازات الكشف الحديثة والعلم الحديث أوسع وأشمل وأدق . ولذا نجدهم يتناولون بالبحث تراث العرب الجغرافي في طرفة التاريخي الذي كتب فيه، أي ماعرف بالأدب الجغرافي العربي أو الجغرافيا التاريخية ان صح التعبير وهذا يعني أنهم ركزوا على محاولة معرفة : كيف فكر العرب جغرافيا، وكيف عبروا عن معارفهم الجغرافية، وكيف كانوا يتصورون العالم القديم بمحيطاته وبحاره وأنهاره وسهوله وجباله أو أقاليمه وبلداته ومدنه أو أعراقه البشرية بألوانهم وأشكالهم ولغاتهم ودياناتهم وأساطيرهم وعاداتهم وإزيائهم . وكل هذه

الأمر لابد من الاستناد في دراستها إلى جملة الآثار المخطوطة في العصور المتقدمة المختلفة . ومن أبرز دراسات هؤلاء المستعربين في هذا المجال :

١ - نشرينو كتابا بعنوان : مدخل إلى جغرافية الشرقيين ، وهو تاريخ شامل في علم الجغرافيا عند العرب ، سنة ١٨٤٨ .

٢ - ونشر دفيك بحثا بعنوان : نظرة في كتب الجغرافية العربية في العصر الوسيط في باريس ، سنة ١٨٨٢ .

٣ - ونشر بلاشير بالتعاون مع دارمون Darmont بحثا عنوانه : الجغرافيون العرب في العصر الوسيط ، في باريس ، سنة ١٩٥٧ .

٤ - ونشر أندريه ميكيل بحثا بعنوان : الجغرافية البشرية للعالم الإسلامي حتى القرن الحادي عشر للميلاد ، في باريس ، سنة ١٩٦٧ . وهو في الأصل أطروحة لنيل درجة الدكتوراه .

ويمكن القول بإيجاز شديد ، في ختام هذا الفصل ، ان المستعربين الفرنسيين قد اهتموا لدراسة مختلف جوانب الثقافة العربية ، سواء ما كان يتعلق منها باللغة أو الأدب أو العقيدة أو التاريخ أو الجغرافيا . وقد كان لهذه الدراسات التي ألفوها أو تلك المخطوطات التي أحيوها بالنشر المحقق أو بالترجمة إلى لغتهم تأثير كبير في الحياة الثقافية الفرنسية من حيث : التعريف ، والتعليم ، والامتناع ، والافادة . وهذا يعني أن أنشطة هؤلاء المستعربين كانت مثمرة على صعيد التواصل الثقافي بين جمهورهم المثقف وراثنا العربي القديم ، وربما لإنتاجاتنا المعاصرة أيضا .

الفصل الخامس: أنشطة أخرى للمستعربين الفرنسيين

اطلعنا في الفصول السابقة على عدد مهم من أنشطة المستعربين الفرنسيين المختلفة حول المخطوطات العربية، وتعليم العربية، وتأليف البحوث والدراسات في مختلف جوانب الثقافة العربية. ونضيف هنا الحديث عن جملة أخرى من الأنشطة التي يمكن أن نعدّها فرعية قياساً على الأنشطة الثلاثة الرئيسية التي فرغنا للتو من الحديث عنها، بالإضافة إلى أنها داخلة في صلب النشاط العلمي لكل مستعرب منهم، ولهذا السبب آثرنا جمعها هنا في فصل قائم برأسه.

ولم تكن هذه الأنشطة ولا تلك منطلقة من منطلق واحد، كما أنها لم تكن تجري إلى غاية واحدة، بل لا ينبغي لنا أن نذهب هذا المذهب ولا أن نعتقد بمثل هذا الاعتقاد بأي حال من الأحوال. صحيح أن هدف المستعربين الأول والأخير إنما هو خدمة بلادهم وضمّان مصالحها، إلا أن هذه الخدمة كانت موزعة على مجالات عديدة: منها ما لا ضير علينا منه ولا ضرر. ومنها ما فيه ضررنا، ومنها ما فيه نفعنا.

وهكذا لا نستطيع أن نقطع بأن حركة الاستعراب كانت شؤماً كلها على العرب ولا بأنها كانت خيراً كلها عليهم، وإنما كان فيها الخير وكان فيها الشر متجاورين، وربما زاد أحدهما على الآخر في فترة من الفترات حتى طغى عليه وشوه صورته.

إذن، كانت أهداف الاستعراب - لا في فرنسا وحدها، وإنما في سائر دول أوروبا والغرب - متنوعة: فمنها ما كان لخدمة المصالح الدينية التبشيرية في البلدان العربية، ومنها ما كان لخدمة المصالح الاستعمارية والعسكرية، ومنها ما كان لخدمة المصالح الاقتصادية والتجارية، ومنها ما كان لخدمة الإعلام والجاسوسية، ومنها ما كان لخدمة العلم والآداب والفنون والفكر عامة.

غير أن الإنصاف يقتضي منا ألا نفرس نشأة حركة الاستعراب وتطورها في فرنسا بعامل واحد من العوامل المذكورة، لأن لكل فترة زمنية أهدافها، ولكل ظرف من الظروف المتحركة في تنشيط هذه الحركة أو تثبيطها غاياته ومراميها، ولهذا كان من

الصواب جملة ، في دراستنا هذه ، أن نلم بمختلف الدوافع التي كانت تقف وراء قيام هذه الحركة واستمرارها . وبوسعنا أن نقول مطمئنين إلى هذا القول إن الهدف العام لحركة الاستعراب أو الدافع الرئيسي لها كان حب الكشف والتعرف والاطلاع للإفادة العلمية والتواصل الفكري بين الفرنسيين والعرب ، بسبب مجاورة هذا المجال العربي الواسع لفرنسا خاصة وأوروبا عامة ، على الجانب الآخر للبحر الأبيض المتوسط الفاصل بينهما .

وإذا عدنا بأذهاننا إلى الوراء تاريخياً إلى القرنين الثاني عشر والثالث عشر اللذين ازدهرت فيهما حركة الترجمة ونقل العلوم العقلية والمنطقية والتجريبية المختلفة من العربية إلى اللاتينية في طليطلة وغيرها من المدن في غربي أوروبا ، فإننا سنجد التاريخ يتكرر مرة أخرى ولكن في اتجاه مضاد ، ذلك لأن حركة مماثلة كانت قد سبقت هذه الحركة الأوربية للترجمة بأربعة قرون أو خمسة في بغداد عاصمة الخلافة العباسية كانت تقوم على نقل علوم الأوائل من يونان ورومان وسريان وفرس وهنود إلى العربية من لغاتها المختلفة : فماذا كان هدف هاتين الحركتين — العربية في القرنين السابع والثامن للميلاد ، والأوربية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد — سوى الكشف للإفادة وتلبية الحاجة العقلية المتفتحة عند الطرفين في ظرف تاريخي محدد؟

ثم بعد إخفاق الحملات الصليبية في تحقيق أهدافها بالتغلب على العرب والاستيطان في بلادهم ، عمل الغرب ، وخاصة فرنسا ، وبدوافع التعصب الأعمى ، على شن حملات صليبية من نوع جديد مسالم تمثلت في قوافل المبشرين وإرسالياتهم على اختلاف كنائسهم ومذاهبهم . وترى الدكتورة عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطيء) ، مثلاً ، أن «التوجيه التبشيري للاستشراق قد سابر حركة جمع التراث في دورها الأول الذي قصد به إلى الانتفاع بما سبق إليه الشرق الإسلامي من علوم وثقافات ، وليس من العسير علينا أن نفهم هذه المسيرة إذا أدركنا أن تراثنا حين عبر إلى أوروبا كانت اليبشات العلمية تأخذ عنه علومنا ومعارفنا ، على حين التمسّت الكنيسة فيه ما تسخره لخدمة أغراضها الدينية»^(١)

(١) انظر كتابها : تراثنا بين ماضٍ وحاضر ، ص ٥١ .

لم تكن اللغات الشرقية، ومنها العربية، معروفة لدى الأوروبيين قبل الحروب الصليبية، ويرجع الفضل في دراسة هذه اللغات إلى المبشرين «الموفدين إلى البلاد الشرقية من لدن الباباوات، فهؤلاء هم الذين حملوا معهم عند رجوعهم إلى بلادهم تلك اللغات»^(١)، «وقد تطورت عقيدة المسيحيين نحو الشرقيين، بعد ظهور الراهب مارتن لوتر، فأخذوا في تعلم لغاتهم حبا في العلم لذاته، وخدمة للحقيقة، وميلا لأدب اللغات، لا لغرض ديني أو سياسي أو تجاري، كما يزعم البعض»^(٢). غير أننا لا نقر هذا الرأي الأخير عند الأوروبيين جميعا، لأننا رأينا حركة التبشير تهتم بالعربية، كما أننا درسنا الأسباب التي دعت إلى إنشاء مدرسة (فتيان اللغات) وتلك المدرسة الخاصة بتعليم (اللغات الشرقية الحية)، وعرفنا أنها تنبع أساسا من الحاجات السياسية والتجارية بالدرجة الأولى. وقد ينطبق ذلك على بعض البلدان الأوربية المحايدة أو المعزولة أو الضعيفة التي لا تمتلك طموحات دينية أو سياسية أو تجارية أو عسكرية توسعية في بلاد العرب كالبلدان الاسكندنافية مثلا، إلا أنه لا ينطبق على قوى استعمارية عريقة كبريطانيا وفرنسا على سبيل المثال.

لم تظفر حركة التبشير الأوربية خلال تاريخها القديم والحديث بأي طائل ولم تحقق هدفها في التحول من الإسلام إلى المسيحية، وقد كتب بولوسكي في عرض ترجمة الدكتور ماردروس للقرآن الكريم إلى الفرنسية يقول: «لقد بلغ من تأثير القرآن في قلوب الثلاثمائة مليون مسلم مبلغا أجمع معه المبشرون على الاعتراف بأنهم لم يستطيعوا أن يردوا مسلما عن دينه حتى اليوم»^(٣). وكان قصارى ما فعله المبشرون دعم الطوائف المسيحية في البلدان العربية والإشراف على مصالحها وتنظيم شؤونها الدينية.

وكانت الترجمات الفلسفية عن العربية تشن هجوما عنيفا على الدراسات اللاهوتية، بما كانت تولد من جدل ومناقشات كانت تهز مجمل التفكير الديني

(١) انظر: دراسة اللغة العربية بأوروبا للمستعرب النمساوي يوسف جيرا، ص ٥.

(٢) م. ن.

(٣) انظر ذلك في: مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مج ٧، ١٩٢٧، ص ١٤٧.

لرجال الكنيسة، وقام بذلك رجال تحرروا من ربة الكنيسة ورقابتها، مما دعا علماء اللاهوت إلى أن ينكبوا على دراسة هذه الترجمات ويتوسعوا في معرفة الفلسفة والآراء التي يؤتون منها، للتسلح بما يجب التسليح به من أفكار معارضة ومضادة عند حدوث جدل أو مناظرة بينهم وبين مثلي هذا الفكر الجديد الخطر على اتجاهات التفكير الكنسي وأسلوب رجاله، فأصبح منهم مستشرقون للتصدي لخصومهم بالطريقة نفسها التي تعلموها من هذه الفلسفة المنقولة عن العرب لأرسطو وغيره من قدماء الفلاسفة^(١).

وقد شجع البابوات على إدخال العربية إلى أوروبا «إما ليكونوا قادرين على دفع هجوم الفلاسفة، أو لنشر المسيحية في الشرق، وكان ملوك فرنسا يساعدون الأكليروس - رجال الدين - في هذا النوع من الأفكار»^(٢)

ثم نشطت حركة الاستشراق قبيل الغزو الاستعماري وسأيرته حيناً من الدهر، تقدم له ما هدى إليه تراث الشرق من فهم لعقليته ومزاجه. نعم، لعب المستعربون دوراً بارزاً في التمهيد والإعداد لدخول الاستعمار الفرنسي إلى بعض البلدان العربية: أو لم يكن عدد من العلماء، من بينهم مستعربون، يرافقون الجنرال بونايرت في حملته على مصر؟ أو لم يشترك المستعربون الفرنسيون وبعض المتعاملين معهم من أبناء الشرق العربي المقيمين في فرنسا أو الفارين إليها في الحملة على الجزائر مترجمين ووسطاء لجيش الغزو؟ أو لم يشتركوا بعد ذلك في ترسيخ هذا الاحتلال وتعميق جذوره؟ أو لم يشاركوا كذلك فيما بعد في غزو تونس ومراكش وسورية؟ حقاً لقد اشتركوا في ذلك كله، ولهذا فإننا لا نبرئ ساحتهم من المسؤوليات والتبعيات التاريخية التي ترتبت على حركة الاستعمار، ولم يكن بالإمكان أن نتصور وقوف هؤلاء المستعربين وحدهم في وجه تيار حركة الاستعمار القوية الموضوعية آنذاك، حتى ولو أرادوا ذلك، ولم يكونوا قادرين على الحيلولة دون وقوع ما وقع، لأنهم كانوا منفصلين وخاضعين لأوامر وقرارات عليا، مع قناعاتهم الذاتية بتصورات بلدانهم المزيفة عن طبيعة استعمارهم

(١) انظر: Dugat (G.), op.cit., p.IV.

(٢) انظر: op.cit., p.XXVI.

ورسالته السامية ، حتى أنهم ليظنون أن عملهم الذي أدوه لحكومات بلدانهم وجيوشها الاستعمارية إنما هو عمل وطني وواجب مفروض عليهم يجب أن يؤديه بحكم المهنة ، ولذا لم يتخلفوا عن أداء واجبهم الوطني هذا حين دعوا إليه ، بغض النظر عن النتائج غير الإنسانية التي لحقت بشعوب هذه المستعمرات التي أخذوا يسيطرون عليها مستغلين مواردها وخيراتنا في سبيل مصالحهم الأنانية العليا . وهذه حقيقة تاريخية لا تسويغ لعمل هؤلاء العلماء في خدمة الآلة الاستعمارية لبلدانهم .

ومع زوال الوجود الاستعماري بتحرر الشعوب تدريجيا من سيطرته المباشرة - بعدما أنخنت بالجرار ، وبعدها خلف الاستعمار آثارا كثيرة له في مختلف جوانب الحياة - نجد المستعربين ينتقلون إلى ممارسة أنشطتهم في ميادين أخرى ثقافية وفكرية وعلمية خالصة ، ومع ذلك ظلت مشوبة بما يخدم أهداف بلدانهم السياسية والإعلامية والاستخباراتية والجاسوسية ، مما لا ينقطع دابره عند أي أمة من الأمم الطموحة إلى الهيمنة والتوسع ، إذ تحاول دوما أن تكون على علم بما هي عليه أوضاع الأمة المستهدفة بطموحها ، لتتمكن بالتالي من التصرف السليم والدقيق حين تتعامل معها .

وأخذت أهمية الاستشراق تزداد في نظر الغرب ، وراحت جذوره تترسخ وجذوعه تطول ، وفروعه تمتد أكثر فأكثر ، ومن هذه الفروع فرع الاستعراب الذي يعد أبرز فروع شجرة الاستشراق الضخمة بلا نزاع ، وكان ذلك نتيجة ازدياد التواصل وتكاثر المصالح التي تشد فرنسا خاصة والغرب عامة إلى المنطقة العربية الشاسعة .

وأخذت حركة الاستعراب تزداد دقة وعمقا مع كل خطوة إلى الأمام ، ومن ذلك مثلا ظهور التخصصات وتوسع ميادين البحث حتى شمل كل فروع الثقافة ، إضافة إلى تعمق الدراسات في مجال الإحاطة والتحليل .

ويقابل حركة الاستعراب في الغرب ما يمكن أن نطلق عليه مصطلح (حركة الاستغراب) في بلداننا العربية ، وهي شبيهة من وجهة نظرنا في غاياتها وأهدافها لتلك الحركة . وقد أخذت تنشأ جديدا مع ظهور الخطر الغربي على المنطقة العربية ، وعلى

وجه الخصوص مع بدايات النهضة العربية الحديثة في أوائل القرن التاسع عشر، وقد تمثلت هذه الحركة بالانفتاح على الغرب، والاتصال به لتعلم لغته والعب من علومه وفنونه وآدابه وكل معارفه، بغية الإلمام بها واستيعابها ومن ثم تمثلها خير تمثل من أجل الإفادة منها في بناء ذواتنا وإعادة وصل لغتنا وثقافتنا وأمتنا بركب الحضارة التي تحيط بنا في العصر الحديث.

ونحن نتابع اليوم المسيرة النهضوية التي بدأ بها أعلام القرن التاسع عشر وهذا القرن، ومحاول أبناء العربية ممن يتعرفون على الغرب أو يتعلمون لغاته أو يتخرجون في جامعاته أن ينقلوا إلى العربية كثيرا مما يتصل بأسباب نهضتنا وتطورنا، لأن حركة الترجمة في العصر الحديث لا تقل أهمية أبدا عن حركة الترجمة التي بدأت عند العرب في العصر القديم مع مطلع القرن الثاني للهجرة، وازدهرت ازدهارا عظيما في القرنين الثالث والرابع للهجرة في بغداد وغيرها من المراكز العلمية والثقافية النشطة في دولة الخلافة.

ونحن نُكوّن (المستغربين) من أبنائنا - في أغلب الأقطار العربية - بدءا من الصف الأول الإعدادي، أي في سن الثالثة عشرة، وذلك بتلقيهم مبادئ إحدى اللغتين الأكثر انتشارا في العالم: الانكليزية والفرنسية^(١). ثم إنهم بعد قضاء ست سنوات في دراستها، يزدادون تعمقا فيها إذا تخصصوا بدراستها في أحد قسمي اللغة الإنكليزية أو الفرنسية في المرحلة الجامعية. زد على ذلك أن طلاب الجامعة يستمرون في دراسة إحدى هاتين اللغتين مدة أربع سنوات أو خمس أو ست، بحسب التخصص الجامعي الذي يدرسه.

وقسمنا اللغة الإنكليزية والفرنسية في كليات الآداب في جامعاتنا العربية شبيهان بمدرسة اللغات الشرقية الحية التي مر بنا الحديث عنها من قبل، ولكنها أضيق منها

(١) اتخذ وزير التعليم الفرنسي قرارا سنة ١٩٧٦ بجعل اللغة العربية من اللغات التي يختار منها الطالب لغة إضافية في المرحلة الثانوية، نظرا لازدياد اهتمام العالم بالكتل العربي بعد حرب تشرين الأول من سنة ١٩٧٣، إذ برز هذا التكتل قوة سادسة على الصعيد العالمي. وقد كان الإقبال ملحوظا على إيفاد الطلاب الأجانب من الشرق والغرب على حد سواء إلى جامعة دمشق مثلا لدراسة العربية في قسم اللغة العربية.

بكثير وأقرر، لأن غاية ما يصبو إليه هذان القسمان هو تخريج عدد كاف من مدرسي هاتين اللغتين في مدارسنا الإعدادية والثانوية، وعلى نطاق ضيق تخريج عدد من يعملون في ميدان الترجمة والإعلام، وعلى نطاق أضيق تكوين علماء متخصصين بعمق بهاتين اللغتين.

والاقتصار على هاتين اللغتين، على وجه العموم في جامعاتنا العربية، لا يكفي لتحقيق طموحاتنا الواسعة الساعية إلى الاتصال حضاريا بكل لغات العالم الأساسية على أقل تقدير، والمعدودة ذات أثر ما في الحضارة، حتى نفيذ مما فيها إفادة ولو في حدها الأدنى.

ولا شك في أن مثل هذا الاتصال يعد ضرورة أولية للنهوض والتقدم والإلام بكل علوم العالم المعاصر وآدابه وفنونه، لتصبح عندنا قاعدة أساسية صلبة نستطيع أن ننطلق منها نحو إعادة بناء ثقافتنا المعاصرة على أسس متينة، لأنه بنقل ثقافات الأمم الأخرى القديمة والحديثة، ولاسيما الجانب الحي فيها، يسهل على عقولنا أن تتفاعل مع تلك الثقافات ويخصبها ويجعلها أكثر شمولية وإحاطة.

ولا ندعو هنا إلى تعلم اللغات الغربية وحدها، وإنما ندعو إلى تعلم كل اللغات الحضارية الأساسية في كل قارات العالم بلا تمييز، لأن تحقيق ذلك سيمكّن لغتنا العربية من استعادة حيويتها التامة وعافيتها بعدما لحق بها في عصور التخلف والجمود. ويمهد تحقيق ذلك لجعل العربية اللغة الثقافية الثانية للبلدان الإسلامية على سبيل المثال، إن لم يمهد لجعلها اللغة الثقافية الأولى لمجمل المسلمين في العالم. وتكتسب العربية بذلك تقدما ونجاحا عظيما في الوصول إلى أن تصبح لغة عالمية حية وهامة ومن اللغات القليلة المعدودة على أصابع اليد الواحدة من حيث الأهمية والانتشار في ميدان العلاقات، والثقافة، والمعارف.

وعلينا أن نتجاوز التسميات التقليدية البالية للغات العالم: (اللغات الشرقية) و(اللغات الغربية)، وما أشبه ذلك، لنطلق عليها إجمالا اسم (اللغات الحية في العالم). ويكن أن تقام لهذا الغرض كليات في جامعاتنا العربية يطلق على كل

منها اسم: (كلية اللغات الأجنبية الحية)، وهذه الكلية بدورها تنقسم بحسب أحد معيارين: الأول يراعى فيه انتهاء مجموعة من اللغات إلى أصل تاريخي واحد معروف (كاللغات اللاتينية، والسلافية، الخ...) وتنقسم الكلية بالتالي بحسب عدد هذه الكتل اللغوية. والثاني يراعى كل لغة على حدة بغض النظر عن أصلها أو مجموعتها اللغوية التاريخية، وهذا يعني أن تنقسم الكلية إلى أقسام بعدد اللغات التي تدرس فيها عمليا، على أن تزيد هذه الأقسام وتزدهر باستمرار، وذلك بإدخال لغات جديدة بقدر الإمكان والحاجة. على أن تكون غاية هذه الأقسام جميعا تخريج جيل من الخبراء المختصين بأهم لغات العالم الحية، ليتمكن من نقل كل ما من شأنه إغناء لغتنا وثقافتنا، أو ليعمل بعضه في خدمة الإعلام والسياسة الخارجية، والصحافة، والجناسوسية، ومختلف الشؤون الأخرى بالمناطق الدولية وبمختلف الأمم والدول في العالم.

وإذا كانت فرنسا خاصة، والغرب عامة، قد سبقنا إلى ارتياد تجربة تعليم اللغات الأجنبية الحية في بلدانهم، في مؤسسات تعليمية متعددة، فهذا نموذج يحتذى على الأقل. ثم إن استمرار فرنسا والغرب في السير على هذا الطريق دليل على نجاح هذه التجربة، وعلى فائدتها المؤكدة. وقد كانت (مدرسة اللغات الشرقية الحية) في باريس، يوما ما، هي النموذج الحي الذي احتذاه الشيخ رفاعة الطهطاوي رائد النهضة العربية الحديثة، حين عاد إلى مصر من بعثته إلى باريس، فأنشأ ما أطلق عليه اسم (مدرسة الألسن) سنة ١٨٣٥، وهي التي عرفت فيما بعد باسم (كلية الألسن).

وسنحاول، فيما يلي من سطور، أن نرصد وندرس أهم الأنشطة العلمية الأخرى والفرعية التي مارسها المستعربون الفرنسيون، ولم نتطرق إلى الكلام عليها من قبل، لعلنا نجلو جوانب جديدة من صورة حركة الاستعراب في فرنسا لتظهر بشكلها الجلي والتمام:

١ - العمل في مصالح الدولة والخدمات العامة:

من المسلم به أن يكون هدف تعليم اللغة الأجنبية عمليا بالدرجة الأولى للإفادة

منها أداة للتواصل في المصالح المرتبطة بالدولة أو في الخدمات العامة من اقتصادية وتجارية وثقافية وسياسية وإعلامية . وقد تبين لنا مما مر بنا من قبل أن المؤسسات التعليمية الكبرى الثلاث في فرنسا وما يتبعها أو يتفرع منها أو يشابهها ، كانت تهدف إلى تكوين المترجمين القادرين على خدمة بلادهم في الميدان السياسي والتجاري ، كما نص على ذلك ، مثلاً ، مرسوم تأسيس (المدرسة الخاصة بتعليم اللغات الشرقية الحية) .

وسرعان ما أخذت المصالح تتوسع ، وأخذت الحاجات تزيد تبعاً لذلك إلى خدمات هؤلاء المترجمين ، وكان من أسباب توسع هذه المصالح سرعة المواصلات وتطور وسائل الاتصال وازدياد سكان العالم بكثرة وتعقد علاقة بعضهم ببعض ، وتداخل هذه العلاقات ، وتطور المجتمعات وتقدمها في مختلف الميادين ، وحاجة كل بلد إلى البلدان الأخرى في تلبية متطلباته الحيوية ، نضيف إلى كل ذلك السبب التقليدي الهام ، وهو حركة الاستعمار . ولذا فإننا نرى الفرنسيين عارفي اللغة العربية يتشرون في دوائر الدولة ومؤسساتها لتسهيل أعمالها وتلبية حاجاتها إلى التواصل عن طريق الترجمة ، يضاف إلى ذلك عملهم في شركات فرنسية عاملة في البلدان العربية أو داخل فرنسا ولكن لها صلات قوية ببعض البلدان العربية .

والمستعربون الذين يتخرجون في المؤسسات التعليمية أنواع : منهم المستعربون بالهنة ، وهم الذين يهبون حياتهم وجهودهم للبحث والتأليف والترجمة والتدريس . ومنهم المستعربون الدبلوماسيون الذين يعملون في نطاق المصالح السياسية لبلادهم ، من أمثال السفراء والقناصل والملحقين في البلدان العربية ، وكان أكثر هؤلاء يقبلون على تعلم اللهجات العربية العامة ذات الفائدة العملية . ومنهم المستعربون الإداريون الذين يعملون في إدارات الدولة داخل البلاد أو خارجها في المستعمرات والمحميات الفرنسية إبان العهد الاستعماري . ومنهم المستعربون العسكريون ، وكانت مهمتهم العمل مترجمين في الجيوش المستعمرة أو في سلاح البحرية^(١) .

(١) انظر : Mirambel (A.) L'École des Langues Orientales de Paris et les études d'Orientalisme, in: Revue de l'enseignement supérieur, 1957, n°2, p.116.

ونذكر أن نابليون، في حملته على مصر، كان يرى في مترجه الخاص بارادي دوفتور الذي يتقن العربية والتركية معا «المستشرق الأول في أوروبا»، لأنه كان يترجم له بسرعة وتأتق خطابه التي كانت سرعان ما تؤثر التأثيرات المطلوبة منها في العرب المصريين. والمعروف أن هذا المترجم كان من خريجي مدرسة فتيان اللغات التي مر بنا ذكرها من قبل^(١).

ومن أمثلة العاملين المترجمين في الجيش الفرنسي نذكر جان - شارل زكار Zaccar (المولود في دمشق سنة ١٧٨٩) الذي ترجم البلاغ الأول الموجه من الجنرال بورمون Bourmont إلى العرب الجزائريين سنة ١٨٣٠، وقد شاركه في ترجمته قبل انطلاق الحملة المستشرقان دوسامي^(٢) وبيانكي Bianchi. وكان من مترجي الجيش الفرنسي في الجزائر أيضا جواني فرعون (من بعلبك بلبنان)، وكان أبوه إلياس فرعون مترجما لجيش الحملة الفرنسية على مصر، وقد ولد ابنه جواني في القاهرة سنة ١٨٠٣، وقد عمل جواني كذلك مترجما للحكومة العامة في الجزائر^(٣).

وكان خريجو مدارس تعليم العربية في الجزائر وقسنطينة ووهران يلتحقون غالبا بهيئة المترجمين العسكريين في الجزائر^(٤).

وقد صدر سنة ١٨٨٠ مرسوم يحدد قبول طلاب مدرسة اللغات الشرقية في وظيفة مترجم في مصالح الدولة، نص في مادته السابعة على أن لحاملي دبلوم مدرسة اللغات الشرقية الحق هم وحدهم في هذه الوظيفة حصرا، ويفضل منهم من عمل في مراكز دبلوماسية وقنصلية في المشرق مدة ثلاث سنوات على الأقل، أي أن هذا العمل كان يتطلب منهم خبرة عملية من خلال الالتحاق بخدمات خارجية لوزارة الشؤون الخارجية^(٥). وقد شجع حصر القبول في هذه الوظيفة بخريجي هذه المدرسة

(١) انظر : Massé (H.), op.cit., p.2-3.

(٢) له ترجمة وإافية في الفصل السادس من هذا البحث.

(٣) انظر : Carrière (A.), op.cit., p.XVII.

(٤) انظر : Massé (H.), op.cit., p.8.

(٥) انظر : Carrière (A.), op.cit., p.LII. marg.1.

على تحول الراغبين في هذه الوظيفة عن كل المؤسسات الأخرى ، فازداد بذلك الإقبال على دروس مدرسة اللغات الشرقية هذه ازديادا كبيرا .

وصدر أمر ملكي قبل ذلك ، في الجزائر ، يفرض على الموظفين المدنيين جميعا الإلمام باللغة العربية بدءا من سنة ١٨٤٧ ، غير أن هذا الأمر بقي حبرا على ورق إلى أن صدر مرسوم سنة ١٨٤٩ ينص على إلزام بعض أنواع الموظفين المدنيين بدراسة العربية^(١) .

ومن الأمثلة البارزة على العاملين في ميدان السلك الدبلوماسي المستعرب المشهور كليان هوار الذي تخرج في مدرسة اللغات الشرقية سنة ١٨٧٣ ، وكان أول من حاز شهادة الدراسة فيها أي (الدبلوم) بعد استحداثه ، وقد عين إثر ذلك مترجما مبتدئا في قنصلية فرنسا بدمشق سنة ١٨٧٥ ، ثم عين مترجما ثالثا في السفارة الفرنسية بالآستانة من سنة ١٨٧٨ إلى سنة ١٨٨٥ ، ثم تم تعيينه مترجما ثانيا في سنة ١٨٩٧ ، وعين من ثم مترجما في وزارة الخارجية بباريس سنة ١٨٨٩ ، ثم عين أمين سر مترجما من الدرجة الأولى سنة ١٩٠٧ لدى الحكومة في وزارة الخارجية ، ثم عين قنصلا عاما لحكومته في دمشق ، ونقل بعد ذلك ليعمل مدرسا في مدرسة اللغات الشرقية بباريس^(٢) .

ويقول الدكتور طه حسين عن عمل بعض المستعربين الفرنسيين في أجهزة مخابرات بلادهم : «وأذكر مثلا أن ماسينيون ، وهو مستشرق فرنسي مشهور ، كان عضوا في مجمع اللغة العربية ، وله أبحاث في الدراسات الإسلامية . . هذا المستشرق كان موظفا في إدارة المخابرات في وزارة الخارجية الفرنسية ، وكان إذا جاء إلى مصر فإنه يسعى إلى مقابلة الملك فؤاد ، ثم من بعده فاروق ، ولكن بعد قيام ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ حاول مقابلة عبدالناصر فلم يفلح»^(٣) .

(١) انظر : Massé (H.), op.cit., p.24.

(٢) : انظر النبذة المختصرة التي نشرت عنه بمناسبة نعيه بعنوان : (الأستاذ كليان هوار) في : مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، مج ٧ ، ١٩٢٧ ، ص ١٢٧ .

(٣) انظر مقالة : تعليقات وأقوال مأثورة لطله حسين للدكتور محمد الدسوقي ، في : مجلة العربي بالكويت ، ع ٢٠٧ ، ١٩٧٦ ص ١٤٩ .

ونحن نتوقع اليوم أن يكون عدد كبير من المستعربين الفرنسيين ممن يقدمون أيضا خدمات جلى لبلادهم في مصالحها وإداراتها المختلفة : كوزارة الشؤون الخارجية، ووزارة الحربية، ووزارة الثقافة، ووزارة الإعلام، ووزارة التعليم الوطني، ووزارة الاقتصاد، ووزارة التجارة، وفي السفارات والقنصليات الفرنسية في مختلف البلدان العربية، وهذا أمر مسلم به لدى دولة ترى أن لها مصالح دائمة وثابتة في الشرق العربي، وأن لها صلات تقليدية عريقة ببعض أجزائه .

هذه هي الخدمات المختلفة التي يقدمها المستعربون الفرنسيون لمصالحهم الوطنية الخاصة بأجهزة دولتهم ودواقرها، ومن الطبيعي أنه كلما ازدادت الوظيفة دقة وحساسية انتدب لها واحد من أبرز المستعربين وأعمقهم تخصصا واطلاعا للقيام بأعبائها، وإنما يُسأل في الأمر صاحب الاختصاص فيه .

٢ - المشاركة في عقد المؤتمرات الدولية للمستشرقين عامة والمستعربين خاصة :

لما كان العمل التعاوني والجماعي أمرا مفيدا في كل المجالات الصعبة التي تتميز بالسعة والعمق، فقد شعر كثير من علماء المشرقيات أن التواصل فيما بينهم ستكون له آثار عظيمة في تكامل جهودهم وتطوير دراستهم، فتجاوزوا طريقة المراسلة ودعموها بصيغة جديدة للعمل أوجدها القرن التاسع عشر في مجال السياسة أولا، ثم انتقلت لتطبق في مختلف الأنشطة البشرية الأخرى، وهذه الطريقة التي استشرت سريعا في كل مجال هي (المؤتمرات) . وفي المؤتمر يلتقي عادة العاملون في مجال تخصصي واحد، ممن تربط بعضهم ببعض أفكار مشتركة وقضايا متشابهة .

وقد دعا إلى فكرة عقد مؤتمر دولي للمستشرقين الأوروبيين العالم الفرنسي ليون دو روزني في أواخر القرن الماضي، ودعي إلى حضور المؤتمر الأول جميع مستشقي أوروبا، وتم عقده بالفعل في باريس سنة ١٨٧٣ . ثم توالى هذه المؤتمرات من حين إلى حين، منتقلة من مدينة أوروبية إلى أخرى، إلى أن قامت الحرب العالمية الأولى سنة

١٩١٤ ، فانقطعت إلى أن استؤنفت في سنة ١٩٢٨ بالمؤتمر السابع عشر، الذي عقد في أكسفورد^(١).

وكان كل مؤتمر من هذه المؤتمرات ينشر، في ختام اجتماعاته، البحوث والدراسات التي قدمت فيه من قبل المستشرقين المشاركين، فيما يعرف بـ (أعمال المؤتمر)، لتعم الفائدة سائر المهتمين بهذا المجال.

وقد توسعت دائرة المشاركين في مثل هذه المؤتمرات، بعد أن كانت وقفا على المستشرقين الأوروبيين، لتشمل عددا لا بأس به من المستشرقين والمستعربين من خارج أوروبا، ممن أسهموا في أعمالها وقدموا بحوثا قيمة ضمن أنشطتها. وهكذا أتيحت الفرصة لباحثين عرب ومسلمين وشرقيين كي يلقيوا بحوثهم فيها^(٢). وكان للمستعربين الفرنسيين إسهامات بارزة في أنشطة هذه المؤتمرات الدولية التي بلغ عددها تسعة وعشرين مؤتمرا خلال قرن تام من الزمان، وقد عقد هذا المؤتمر التاسع والعشرون، في الذكرى المئوية لعقدها منذ المؤتمر الأول، سنة ١٩٧٣ في المدينة نفسها أي باريس. وقد شارك فيه عن القطر العربي السوري أستاذنا المرحوم شكري فيصل.

ثم إن هذه المؤتمرات لم يقتصر عقدها على مدن أوروبا، وإنما انتقلت أحيانا لتعقد في إحدى العواصم الشرقية، ومنها مثلا: مؤتمر الجزائر (سنة ١٩٥٥) الذي كان ترتيبه الرابع عشر، ومؤتمر إستانبول (سنة ١٩٥١) وترتيبه الثاني والعشرون، ومؤتمر نيودلهي (سنة ١٩٦٤) وترتيبه السادس والعشرون، الخ. ولم تتم استضافة هذه المؤتمرات في أي عاصمة عربية مستقلة حتى اليوم.

وإذا وضعنا جانبا هذه المؤتمرات الشمولية التي كانت تشتمل على كل فروع الدراسات الاستشرقية - والعربية منها حكما - على وجه العموم، فإننا نجد نوعا أكثر تخصصا وأدق توجها في ميدان الدراسات يتمثل في مؤتمرات مقصورة على الدراسات

(١) انظر: تاريخ دراسة اللغة العربية بأوروبا ليوسف جيرا، ص ٤٧.

(٢) انظر: تراثنا بين ماض وحاضر للدكتورة عائشة عبد الرحمن، ص ١٥٦.

العربية والإسلامية حصراً . وقد عقد المؤتمر الأول في سلسلة هذه المؤتمرات في شهر أيلول من سنة ١٩٦٢ في مدينة قرطبة بإسبانيا ، وهي المدينة التي كانت يوماً ما عاصمة الخلافة الأموية إبان العصر العربي الأندلسي ، وتقرر في هذا المؤتمر أن يعقد بعد ذلك مرة كل سنتين أو ثلاث سنوات ، واتخذ المؤتمر في جلسته الختامية عدة مقررات نص الثاني منها على أن هدف هذه المؤتمرات التي تضم المستعربين الأوربيين وتجمع شملهم هو تقديم الدراسات العربية إلى الاختصاصيين في أوروبا الغربية ، وتوفير فرص خاصة لتبادل وجهات النظر والمعلومات العلمية^(١) .

وتم صدور أعمال هذا المؤتمر في مدريد سنة ١٩٦٤ في مجموعة عنوانها : (أعمال المؤتمر الأول للدراسات العربية والإسلامية) - *Actas de primer congreso de estudios arabes e islamicos*

وكان المستعربون الفرنسيون الذين شاركوا في هذا المؤتمر الأول هم :

١ - غارديه L. Gardet .

٢ - غواشون A. M. Goichon .

٣ - فايدا G. Vajda .

٤ - أرناالدين R. Arnaldez .

وقد عقد المؤتمر الخامس للمستعربين وعلماء الإسلاميات في بروكسل عاصمة بلجيكا في أواخر آب وأوائل أيلول من سنة ١٩٧٠ ، وقد اشترك فيه من المستعربين الفرنسيين كل من :

١ - آرييه R. Arié .

٢ - أودبير Cl. Audebert .

٣ - بودو - لاموت A. Boudot-Lamotte .

٤ - برونشفيغ B. Brunschvig .

٥ - ريمون A. Raymond .

وشارك فيه من الباحثين العرب كل من :

(١) انظر حول ذلك : Congrès d'Études arabes à Cordoue, in: Arabica, t. X, 1963, p.111.

١ - الدكتور إحسان عباس .

٢ - الدكتور محمد يوسف نجم .

وأما المؤتمر السابع للدراسات العربية والإسلامية فقد عقد في مدينة غوتنغن -
tingen بألمانيا الاتحادية سنة ١٩٧٤ . ورَبَطَ الدراسات العربية بالدراسات الإسلامية
باستمرار في هذه المؤتمرات إنما هو تعبير عن الترابط العضوي القوي بين العرب
والإسلام بعد ظهوره ، أو بتعبير آخر بين اللغة العربية والإسلام .

وإذا كان لنا أمل في هذه المؤتمرات ، سواء منها المؤتمرات الدولية العامة
للمستشرقين أو مؤتمرات المستعربين الخاصة ، فهو أن نتعاون معها ونشارك في نشاطها
من أجل إفادتها وإفادتنا معا ، ولنا أمل كبير أيضا في استضافة النوع الثاني من هذه
المؤتمرات من حين إلى آخر في إحدى الدول العربية من باب تشجيعها وتصحيح
مسارها والتأثير في جيل المستعربين الشباب في مختلف بلدان العالم ودعّمه ، لما في
ذلك من كسب كبير لنا ولثقافتنا ، وخصوصا أن الجو مهيا اليوم لمثل هذا الاستقطاب
بعد أن لفت العرب أنظار العالم إليهم إثر حرب تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٧٣ ،
كما لفتوا الانتباه أيضا إلى وحدتهم التي تجلب في التضامن العربي إبان تلك الحرب .
مما دعا إلى إقبال أعداد كبيرة من الشباب الأجانب ، ومن مختلف الجنسيات ، على
تعلم العربية والاهتمام بها بالسفر إلى البلدان العربية نفسها والتسجيل في جامعاتها .
وتجلى ذلك في اتخاذ القرارات بجعل اللغة العربية لغة اختيارية ثانية في المرحلة
الثانوية من التعليم الوطني في بعض الدول والبلدان (كما هي الحال في قرار وزير
التعليم الوطني الفرنسي بهذا الشأن) . كما أن ذلك أثّر في اتخاذ الأمم المتحدة قرارا
باعتماد العربية لغة رسمية معتمدة في منظماتها وجلساتها المختلفة إلى جانب اللغات
الإنكليزية والفرنسية والإسبانية والروسية . كما عزز في الوقت نفسه تعليم العربية في
البلدان الإسلامية أكثر فأكثر .

وقد اعتاد بعض المستعربين في فرنسا أن يعقدوا في جامعاتها أو مؤسساتها العلمية
ندوات أو مؤتمرات للدراسات العربية والإسلامية هي صورة لمؤتمرات المستعربين

الآنف ذكرها، وهي تضم مستعربين من داخل فرنسا، ويشاركهم فيها بعض العرب الباحثين والأساتذة في تلك الجامعات. وتقيم هذه المؤتمرات بعض الروابط والجمعيات المهمة بتوثيق الصلة بين العرب والفرنسيين على الصعيد الثقافي. ومن ذلك المؤتمر الذي انعقد في مرنبلية في أيار من سنة ١٩٧٧، تحت شعار: «الحضارتان العربية والأوروبية ثقافتان متكاملتان»، ونشر أعماله بعنوان: (أضواء عربية على الغرب في العصر الوسيط). واشترك فيه من المستعربين الفرنسيين كل من:

- ١ - أرناالديز.
 - ٢ - أندريه ميكيل.
 - ٣ - بابادوبولو Papadopoulos.
 - ٤ - شابرييه J. -- Cl. Chabrier.
 - ٥ - هورنوس J. -- M. Hornus.
 - ٦ - ميشو J. Michaud.
- ومن الباحثين العرب المقيمين في فرنسا:
- ١ - توفيق فهد.
 - ٢ - أمينة راشد (أو رشيد) A. Rachid.
 - ٣ - محمد أركون.
 - ٤ - يواكيم مبارك.
 - ٥ - وهيب عطا الله.

وقد نشرت أعمال هذا المؤتمر بعناية وإبطة التضامن الفرنسي - العربي.

٣ - الاشتراك في تحرير مواد الموسوعة الإسلامية :

طرح بعض المشتركين في المؤتمر الدولي العاشر للمستشرقين، المنعقد في مدينة جنيف (بسويسرا) سنة ١٨٩٤، فكرة إنشاء موسوعة تبحث موادها في الحضارة الإسلامية وفي مختلف الشؤون المتعلقة بالعرب تاريخاً وجغرافية ولغة وأدباً وفناً وعلمياً وفلسفة، بغية تغطية ثقافتهم تغطية تامة في كل ميدان وبحسب آخر ما توصلت إليه

بحوث المستعربين وعلماء الإسلاميات، لا في فرنسا وحدها، وإنما في بلدان أوروبا والغرب عامة. وقد لقيت هذه الفكرة فعلا ترحيب المشتركين في هذا المؤتمر، فشكلت لجنة إشراف على تنفيذها تتألف من المستشرقين التاليين:

١ - الفرنسي: R. Basset .

٢ - الإنكليزي: T. W. Arnold .

٣ - الألماني: Houtsma .

٤ - الألماني: Hartmann .

وقد شارك عدد كبير من أبرز المستشرقين من علماء الإسلاميات ومن المستعربين في تحرير مواد الموسوعة الإسلامية، وكان نصيب الفرنسيين في هذا العمل كبيرا. وكانت فكرة هذه الموسوعة قد استوحيت من مصدرين رئيسيين: الأول والأقدم هو (المكتبة الشرقية) التي وضعها ديربلو، وقد سبقت الإشارة إليها وإلى مكانتها في حركة الاستشراق عامة وحركة الاستعراب على وجه الخصوص، في مكان سابق من هذا البحث. والثاني الموسوعة الفرنسية التي وضعت في القرن التاسع عشر.

وكانت فكرة الموسوعات بحد ذاتها فكرة تهدف إلى تناول شتى المعلومات في ناحية واحدة أو مجموعة نواح من الحياة الثقافية في المجتمع، بتركيز شديد واختصار يسهل البحث ويوفر الجهود في عصر السرعة والشمول والاختزال، إذ لا يملك المرء العادي، وحتى الباحث المختص، الوقت المديد، إذا أراد معرفة شيء عن نقطة معينة تمر به أثناء بحثه الطويل، لكي يعود إلى قراءات واسعة واستقصاءات متنوعة للوصول إلى هذه المعرفة. ولذا كانت فكرة الموسوعات تقوم على توفير الوقت والجهد معا، ليبدلا في غير ذلك من الأعمال، ومن هنا كانت صفات التنظيم والاختصار والشمول في الموسوعات صفات أساسية وضرورية لها.

وتم إنجاز الطبعة الأولى من (الموسوعة الإسلامية) في أربعة مجلدات مع جزء ملحق على التوالي، بدءا من سنة ١٩١٣ وانتهاء بسنة ١٩٤٢، بثلاث لغات مستقل كل منها عن الآخرين، وهي: الفرنسية E. I.، والألمانية، والإنكليزية. وكان المجلد

الواحد يتألف من قرابة ألف وأربعمئة صفحة من القطع الكبير، وبحرف طباعي دقيق ناعم، وورق رقيق. وقد رتب مواد هذه الموسوعة ترتيباً هجائياً متسلسلاً، لتسهيل مراجعة أي مادة فيها على الباحثين والقراء المطالعين. وفي آخر كل مادة يذكر اسم كاتب المادة من المستشرقين والمستعربين وغيرهم، فيكتب الجزء الأول منه مختصراً بالحرف الأول أو الحرفين الأولين منه، ثم يذكر الجزء الثاني أو اسم العائلة بتمامه (مثل: وليم مارسيه W. Marçais وكليمان هوار Cl. Huart) ويكون ذكر هذا الاسم عادة بعد أن يسرد كاتب المادة جملة مراجعه المعتمدة في كتابتها مرتبة أيضاً ترتيباً هجائياً لتعين الباحث على العودة إلى الأصول إن شاء التوسع فيها.

وكان المستشرقون من علماء الإسلاميات والمستعربون أنفسهم يقومون بترجمة المواد المحررة بلغة من اللغات الثلاث إلى اللغتين الأخرين مباشرة، ليتم صدور هذه الموسوعة باللغات الثلاث في الوقت نفسه.

وعندما أنجزت هذه الطبعة نهائياً ونفذت نسخها، طرح في المؤتمر الدولي الحادي والعشرين للمستشرقين، المنعقد في باريس سنة ١٩٤٨، مشروع طبعة ثانية منقحة لهذه الموسوعة نفسها، وقد أقر المؤتمر هذا المشروع على أساس إنجاز الطبعة الثانية المنشودة في ستة مجلدات يتألف كل منها من ثمانين ملزمة أو ١٨٢٠ صفحة، من القطع والحرف المستعملين في الطبعة الأولى، مع التوصية بإصدار فهرس عام لمواد الموسوعة وكتابها، مع أطلس جغرافي وتاريخي، وتحلق هذه الديول بجملة المجلدات الستة المحتوية على متن المواد. وأوصى المؤتمر بأن تصدر هذه الموسوعة في طبعتها الثانية باللغتين الفرنسية والإنكليزية فقط. وقد وضع مشروع هذه الطبعة تحت إشراف ليفي - بروفنسال، وأسند هذا الإشراف بعد وفاته سنة ١٩٥٦ إلى المستعرب الفرنسي الآخر شارل بيللا. وقد بدىء بإصدارها سنة ١٩٥٤ بشكل ملازم متسلسلة إلى أن اكتمل المجلد الأول سنة ١٩٦٠. وقد أفسح المجال في الطبعة الجديدة لعدد أكبر من المواد في موضوعات اقتصادية واجتماعية وفنية، كما سمح للباحثين العرب بأن يشاركوا في تحرير موادها، وسمح كذلك للباحثين المسلمين بأن يسهموا فيها، وسمح أيضاً للباحثين اليهود في فلسطين المغتصبة بمثل ذلك. وتمت إعادة قسم

كبير من مواد الطبعة الأولى في الطبعة الجديدة، وقد أشير إلى مثل هذه المواد القديمة المنقحة على يد لجنة تحرير الطبعة الجديدة بنجمة توضع عند اسم كاتبها الأصلي، ويتبع هذا الاسم مباشرة وبين قوسين اسم منقح المادة^(١).

ولما كانت لغات هذه الموسوعة، في طبعها الأولى، الفرنسية والألمانية والإنكليزية، وفي طبعها الثانية الفرنسية والإنكليزية فقط، فقد كان لابد من مواجهة مشكلة كتابة بعض الأصوات العربية، التي لا مقابل لها في هذه اللغات، بالحروف اللاتينية والتعبير عنها تعبيراً دقيقاً لا لبس فيه: كالهزمة، والثاء، والحاء، والهاء، والذال، والصاد، والضاد، والطاء، والظاء، والعين، الخ.

وقد وضع المستعربون المشاركون في مؤتمر جنيف سنة ١٨٩٤، لحل هذه المشكلة، طريقة لكتابة هذه الأصوات العربية وذلك بإدخال بعض التعديلات على بعض الحروف اللاتينية، بوضع إشارات معينة فوق هذه الحروف أو تحتها، للاصطلاح على أن يُعبّر كل منها عن أحد الأصوات العربية موضوع المشكلة، وقد أوصوا بتعميم استعمال هذه الطريقة في كل كتابات المستعربين للتعبير عن الأصوات العربية في الأساء أو الكلمات العربية التي تمر في هذه الكتابات.

غير أن مستعرباً ألمانيا كبيراً هو كارل بروكلمان (١٩٥٦م) C. Brockelmann لم يلتزم هذه الطريقة الجديدة بحذافيرها، وثنى في كتاباته عامة، وفي كتابه المشهور: تاريخ الأدب العربي *Geschichte der arabischen Literatur* الذي بدأ بنشره سنة ١٨٩٨، بتعديلاته الخاصة على بعض هذه الحروف اللاتينية المعبرة عن الأصوات العربية. ومن الجدير بالذكر هنا أن الباحث الألماني الجنسية والتركي المسلم أصلاً (فؤاد سيزكين) قد استعمل في كتابه المشهور أيضاً والمترجم إلى العربية بعنوان: تاريخ التراث العربي *Geschichte des arabischen Schriftums*، الحروف اللاتينية المعدلة نفسها التي كان بروكلمان قد استعملها من قبل.

(١) انظر مقدمة المجلد الأول من الموسوعة الصادرة سنة ١٩٦٠، وكذلك:

Pellat (Ch.) *Langue et littérature arabes*, 2ème éd., Paris, 1970, P.8.

يضاف إلى ذلك أن مستعربا إيطاليا كبيرا أيضا هو ليوني كابتاني (١٩٢٦م) L. Caetani استعمل طريقة خاصة به في تعديل الحروف اللاتينية لتعبر عن الأصوات العربية موضوع المشكلة، في كتابه المشهور كذلك: حوليات الإسلام Annali del Islam، وكان قد بدأ بنشره قبل صدور المجلد الأول من الموسوعة الإسلامية.

وهذا جدول مقارن لهذه التعديلات الثلاثة التي اصطلاح عليها عند مستعربي أوروبا لخدمة التعبير عن الأصوات العربية بالحروف اللاتينية:

الحرف العربي	الموسوعة الإسلامية	تاريخ الأدب العربي لبروكلمان	حوليات الإسلام لكابتاني
أ، آ، إ، ع	a, ā, ʾ	a, ā, ʾ	a, ā, ʾ
أ، آ، إ	ʾi, ū, ā	ʾi, ū, ā	ʾi, ū, ā
ب	b	b	b
ت	t	t	t
ث	th	t	th
ج	dj	ǧ	ǧ
ح	h	h	h
خ	kh	ḫ	kh
د	d	d	d
ذ	dh	d	dz
ر	r	r	r
ز	z	z	z
س	s	s	s

الحرف العربي	الموسوعة الإسلامية	تاريخ الأدب العربي لبروكلمان	حوليات الاسلام لكايتاني
ش	<u>sh</u>	š	š
ص	s	s	s
ض	ḍ	ḍ	ḍ
ط	ṭ	ṭ	ṭ
ظ	ẓ	ẓ	ẓ
ع	c	c	c
غ	<u>gh</u>	ġ	<u>gh</u>
ف	f	f	f
ق	q	q	q
ك	k	k	k
ل	l	l	l
م	m	m	m
ن	n	n	n
هـ	h	h	h
و، ٴ	u, ū	u, ū	u, ū
ي، ٴ	i, ī	i, ī	i, ī

ويعبر عن الواو غير الممدودة بحرف (w) ، ويصبح في حالات (النصب والرفع والكسر) على التوالي كما يلي : wi, wu, wa .

كما يعبر عن الياء غير الممدودة بحرف (y) ، ويصبح في حالات (النصب والرفع والكسر) على التوالي كما يلي :
yi , yu, ya

ويعبر عن صوت (أو) بـ (aw) وعن صوت (أي) بـ (ay)، الخ.

وقد استعمل المستعرب الفرنسي شارل بيلا في كتابه: اللغة العربية وآدابها
Langue et Littérature arabes بعض الحروف اللاتينية المعدلة الأخرى لاستعماله
الخاص الذي يتوجه به إلى جمهور القراء والمثقفين الفرنسيين في التعبير عن الأصوات
العربية، مثل: ch = ش

ç = ص

â = إ

û = و

î = ئ

وقد حاول ثلاثة من خريجي كلية الآداب بجامعة القاهرة هم:

١ - إبراهيم زكي خورشيد .

٢ - أحمد الششتاوي .

٣ - عبد الحميد يونس .

أن ينقلوا هذه (الموسوعة الإسلامية) إلى اللغة العربية من طبعها الأولى بعنوان:
(دائرة المعارف الإسلامية)، وقد أنجزوا ترجمة القسم الممتد من حروف (الألف) إلى
حرف (الطاء)، ما بين سنتي ١٩٣٣ و ١٩٦٥ . وأخذوا، سنة ١٩٦٩، يعيدون طبع
هذه الدائرة، مع إضافة ترجمة للمواد الجديدة أو المنقحة التي وردت في الطبعة
الأوربية الثانية في مواضعها من ترتيب المواد وفق الهجائية العربية، وقد ظهر منها
ثلاثة عشر مجلداً وقعت في قرابة ستة آلاف وسبعمئة صفحة .

ولم يكن جهد المترجمين الثلاثة وقفا على ترجمة مواد الموسوعة، وإنما امتد إلى إثبات
تعقيبات مفيدة على آراء محجري هذه المواد لعدد من أعلام الكتابة والفكر
البارزين على الصعيد الثقافي آنذاك، من أمثال: مصطفى عبدالرازق، وأحمد أمين،
وأمين الخولي، وإبراهيم مذكور، ومهدي علام، الخ^(١). وكان القصد من هذه

(١) انظر مقالة: دائرة المعارف الإسلامية للدكتور سيد نوفل، في مجلة الهلال المصرية عدد يناير
(كانون الثاني) ١٩٧٦، ص ٦-١٣

التعقيبات تفنيد الآراء المنحرفة التي انجر إليها أو تَقَصَّدَها بعض المستشرقين المغرضين، أو تصويب أخطاء علمية وقع فيها بعضهم الآخر سهواً وعن غير قصد، أو دفع شبهة أو تهمة باطلة اخترعها بعض الدسائسين وألصقوها بالعرب أو الإسلام بغية التشهير بهما أو الطعن فيهما.

وتعد هذه الموسوعة - سواء في طبعها الأولى التي تجاوز الزمن كثيراً من موادها، أو في طبعها الثانية المنقحة والمزيدة، أو في ترجمتها العربية - مصدراً من مصادر البحث العامة والهامة للدارسين والباحثين الغربيين والشرقيين في الشؤون والدراسات العربية والإسلامية، بل لا غنى لهم عنها البتة.

وإننا لنشعر اليوم بحاجة ماسة إلى (موسوعة إسلامية) تُحرَّر موادها بأيدي باحثين عرب ومسلمين، تصدر باللغة العربية على الأقل، إن لم نحاول إصدارها بعدد من اللغات الكبرى الأساسية للشعوب الإسلامية في هذا العالم. كما أننا بحاجة ماسة كذلك إلى موسوعة أخرى تعنى بشؤون العرب وحضارتهم من جميع النواحي وتعرف باسم (الموسوعة العربية) ويشارك في وضع موادها وتحريرها كل الكتاب والباحثين والعلماء والمفكرين والشعراء والأدباء والخبراء العرب داخل البلدان العربية وخارجها، كل في نطاق اختصاصه وحقله الذي برز فيه وأبدع. وقد صدر في سورية بالفعل مرسوم تشريعي (رقمه ٣ لسنة ١٩٨١) يقضي بإحداث (هيئة الموسوعة العربية) وكل ما يتعلق بشأنها أو يخدم هدفها أو ينظمها. وهذا مشروع طموح لا يمكن أن تنجزه جهود الأفراد القلائل مهما أوتوا من طاقة، ولا بد فيه من مشاركة كل القادرين على الكتابة ومن العمل الجماعي المنظم ومن إسهام المؤسسات الثقافية والعلمية في الأقطار العربية قاطبة.

٤ - تأليف الجمعيات الاستشرافية والاستعرابية والإسهام في أنشطتها :

كان الهدف الأول من إنشاء مثل هذه الجمعيات العلمية تجميع جهود العلماء في الميدان الذي يعملون فيه، وتوفير التعاون فيما بينهم، ومنع هدر الجهود في تكرار بحوث قد طرقت من قبل، وتوجيهها نحو أعمال جديدة لم تطرق بعد. ونجد

المستشرقين الفرنسيين تلبية لذلك يسارعون إلى إجابة دعوة سلفستر دوساسي إلى إنشاء جمعية علمية للدراسات الشرقية في باريس سنة ١٨٢٢ أطلقوا عليها اسم : الجمعية الآسيوية Société Asiatique وقد أصدرت هذه الجمعية منذ إنشائها صحيفة لنشر دراسات أعضائها هي : (المجلة الآسيوية) le Journal Asiatique وقد ساعدت هذه الجمعية على ترسيخ قدم الدراسات الشرقية عامة، والعربية خاصة، وعلى استمرارها في مؤسسة ثابتة متجددة، بعد أن كانت هذه الدراسات عرضة للانقطاع في الفترات السابقة، نظرا لخضوعها للظروف والتيارات والأمزجة المتقلبة باستمرار في أغلب الأحيان، ونظرا أيضا لاعتمادها على الجهود الفردية المتفرقة. وقد نال الدراسات العربية من هذه الجمعية وأعضائها نصيب وافر من الاهتمام، إذ أن مؤسسها ورئيسها الأول كان المستعرب المشهور وعميد الدراسات العربية في فرنسا خاصة وأوروبا عامة سلفستر دوساسي، والمعروف أنه ترأس هذه الجمعية فعليا حتى سنة ١٨٢٥، وشرفيا بعد ذلك حتى وفاته سنة ١٨٣٨.

وكانت أنشطة المستشرقين والمستعربين في هذه الجمعية كثيرة منها على سبيل المثال : البحث والتأليف، والتحقيق والنشر، وعقد الجلسات، وإلقاء المحاضرات، وتبادل الخبرات والأفكار والآراء فيما بينهم في مختلف الشؤون.

وقد احتفلت الجمعية الآسيوية، سنة ١٩٢٢، بالذكرى المئوية لإنشائها، وكانت دول أخرى مثل : بريطانيا وألمانيا والولايات المتحدة وغيرها قد حذت حذو فرنسا بعد إنشاء تلك الجمعية، فأنشأت جمعيات مشابهة تحمل تسميات قريبة منها، نظرا لما تعود به من فائدة عظيمة على الدراسات الشرقية^(١)

ومن بين أعضاء الجمعية الآسيوية الفرنسية من المستعربين الفرنسيين، سنة ١٩٧٥، كل من : كلود كاهن، وهنري لاوست، وشارل بيللا، وجورج فايدا.

ثم راح هذا النوع من النشاط يأخذ نطاقا أكثر تخصصا وأصيق، فنشأت بذلك

(١) انظر مقالة : تاريخ دراسة المشرقيات في أوروبا لفيليب حتي، في مجلة الهلال المصرية، مج ٣٣، ١٩٢٣، ص ٤٠٦-٤٠٧.

جميعيات أو روابط تجمع جهود المهتمين بالدراسات العربية حصرا، كالرابطة الفرنسية للمستعربين L'Association Française des Arabisants، التي تأسست في باريس سنة ١٩٧٣، لتعمل على تطوير تعليم العربية في فرنسا لما لها من أهمية وطنية. وقد أصدرت الرابطة مجلة خاصة بها وبأنشطة أعضائها تسمى: (المستعرب) Arabisant^(١)

وقد ظهرت في فرنسا رابطة أخرى جديدة تحمل اسم (رابطة تعليم اللغة العربية L'Association de l'enseignement de la langue arabe) وواضح أن غايتها المعلنة هي خدمة المؤسسات التعليمية المهمة بالعربية ومساعدتها في تقديم المنشورات أو الخبرات لتطوير أدائها.

٥ - إصدار المنشورات وتحريرها :

هناك أنواع عديدة من المنشورات التي تعبر عن التعاون الوثيق في العمل بين المستشرقين أو بين المستعربين الفرنسيين، وهي مجتمعة وسيلة من وسائل الدراسة، ومصدر من مصادر البحث يعتمد عليها في كثير من الأحيان لأهمية ما تحويه من جهود كتابها.

ويمكن أن نسمي ما ينشر في هذه المنشورات (الدراسات القصيرة)، في حين أن الدراسات الطويلة تنشر عادة في كتب أو مجلدات قائمة بذاتها. وبعبارة أخرى نقول: إن هذه المنشورات تعتمد أساسا على ما نسميه (المقالة).

وبوسعنا أن نقرر هنا أن هذا النوع من الأنشطة كان أكثر شيوعا وتداولاً بين المستعربين الفرنسيين، إذ لم يتأخر واحد منهم عن الإسهام في هذا النشاط كثيرا أو قليلا طيلة حياته العلمية، ولذا فإننا نجد منهم من كان غزير الإنتاج كثير المقالات أو الدراسات القصيرة، ومنهم في الوقت نفسه من كان شحيح الإنتاج قليل المقالات. وفي المدة الأخيرة نجد مريدي هذا المستعرب أو ذاك من تلاميذه ينشرون له

(١) انظر عدد كانون الثاني (يناير) من تلك المجلة سنة ١٩٧٤ : 2.

بعد وفاته، من باب الوفاء لذكراه في نفوسهم وصونا لتراثه أو آثاره، مجموعة لأهم مقالاته التي كان قد نشرها في مختلف أنواع المنشورات، فيما يعرف بـ: «المنتخبات» ويطلق عليه الفرنسيون اسم: *Analecta*. وكان آخرها مجموعة «منتخبات بلاشير» التي تضم مقالاته الهامة ودراساته القصيرة التي كان قد نشرها أو بعض مقالاته التي لم يتح لها أن ترى النور، وقد أصدرها المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق سنة ١٩٧٥ ضمن منشوراته.

وكانت جملة هذه المنشورات تصدر عن هيئات علمية أو مؤسسات دراسية أو مراكز بحوث قادرة على التنفيذ، فهي إذن تعبير عن الجهد الجماعي لا الفردي، وأهم أنواع هذه المنشورات:

١ - الصحيفة (*le journal*):

مثل (*الصحيفة الآسيوية*) المشهورة من باب التجاوز باسم (*المجلة الآسيوية*): *JA*. وتصدرها الجمعية الآسيوية بباريس منذ تأسيسها سنة ١٨٢٢ إلى اليوم. ويظهر منها عدد واحد كل ثلاثة شهور، وتجمع أعداد السنة الواحدة الأربعة في مجلد واحد مستقل في نهاية السنة.

وهناك صحيفة أخرى كانت تصدر مطبوعة على الآلة الكاتبة في بداية الأمر، وتهتم بالقضايا الاستعرابية، بعنوان: (*المستعرب*) *L'Arabisant* وكانت تصدر عن الرابطة الفرنسية للمستعربين الفرنسيين ويشارك في تحريرها كل من المستعربين أو العرب المقيمين في فرنسا التالية أسماؤهم: كلود كاهن، وجاكليين شابي، وفوزية كليان بلخياط، وبيلاونا (ج)، وريمون (أ)، وسيمون فان ريه *Riet*، وشارل فيال.

٢ - المجلة (*la revue*):

وهي نشرة دورية كبيرة الحجم تحتوي على جملة مقالات أو دراسات قصيرة في المجال الذي اختصت به. ومن أشهر المجلات الاستعرابية التي كانت تصدر فيما مضى من الزمان ثم انقطعت عن الصدور أو ما زالت تصدر إلى اليوم:

أ- المجلة الأفريقية (la Revue africaine) : وكانت الجمعية التاريخية في الجزائر تصدرها منذ سنة ١٨٥٦ ، وتنصب اهتماماتها على الموضوعات المتعلقة بالمغرب العربي أو ما كان الفرنسيون يسمونه (شمال أفريقيا) ، إلى جانب الدراسات العربية عامة ، ثم انقطعت عن الصدور بعد استقلال الجزائر ، أي بعد سنة ١٩٦٢ .

ب- مجلة العالم الاسلامي (la Revue du Monde Musulman) :

وكانت تصدر ما بين سنتي ١٩٠٦ و ١٩٢٦ . ثم ورثتها في اختصاصها (مجلة الدراسات الإسلامية) La Revue des Études Islamiques ، بإشراف ماسينيون . وقد شارك في إصدارها معهد الدراسات الإسلامية في باريس ، والمعهد الفرنسي في دمشق ، وتظهر مرة كل ثلاثة شهور ، ولها ملحق يدعى : Abstracta Islamica ، وهو ثبت للمراجع يصدر كل سنة مرة . وتهتم هذه المجلة ، كما يبدو من اسمها ، بدراسة الشؤون المتعلقة بالإسلام وحضارته ماضيا وحاضرا ومستقبلا . وهي تعرج في اهتماماتها ، بطبيعة الحال ، على الدراسات العربية .

ج- مجلة أرابيكا (Arabica) : وقد تخصصت بالدراسات العربية . وكان المستعرب المعروف ليفي - بروفنسال قد أنشأها سنة ١٩٥٦ بباريس . وهي تصدر مرة كل أربعة شهور ، وتجمع أعدادها الثلاثة في نهاية كل سنة في مجلد واحد . وقد تولى رئاسة تحريرها ، بعد وفاة مؤسسها سنة ١٩٥٦ أيضا ، ريجيس بلاشير ، الذي تولى بدوره عنها سنة ١٩٦٢ ، لأسباب صحية ، للمستعرب جيرار لوكونت . ومن أبرز المستعربين الذين كانوا يشاركون في تحريرها أو لا يزالون يشاركون اليوم في ذلك : كاهن ، وإيليسيف ، ولأوست ، ولوسرف ، ومارسيه ، ويلا ، وسورديل ، وتروبو ، وفايدا ، النخ . ولعل هذه الصحيفة من ألصق ما أصدر المستعربون الفرنسيون من صحف بالدراسات العربية ، لأنها تهتم بنشر كل ما يتعلق بتأثير الثقافة العربية في الثقافات الغربية ولاسيما الفرنسية .

د- مجلة الدراسات الإسلامية (Studia Islamica) : وتصدر في باريس مرتين في السنة منذ سنة ١٩٥٣ .

هـ- كراسات الدراسات العربية والإسلامية (Cahiers d'Études arabes et islamiques) : صدر العدد الأول منها في كانون الثاني من سنة ١٩٧٦ عن «وحدة التعليم والبحث في لغات الهند والشرق وشمال أفريقيا وحضاراتها» ، ومن أسرة تحريرها : كلود كاهن وأندريه ميكيل .

و- مجلة المدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية-La Revue de l'École Nationale des Langues Orientales Vivantes : بدأ صدورها سنة ١٩٦٤ ، وتوقف سنة ١٩٦٨ . وقد ظهر منها أربعة أعداد فقط ، أي بمعدل عدد في السنة الواحدة ، وقد كانت تخص الدراسات العربية بحيز ملحوظ على صفحاتها .

٣- النشرة (le bulletin) :

وهي من الناحية الشكلية مجلة دورية وإن كانت تحمل اسم (نشرة) ، ومن أبرز هذا النوع من المنشورات :

أ- نشرة معهد مصر (le Bulletin de L'Institut d'Égypte) : وكان نابليون قد أسس هذا المعهد في القاهرة إبان حملته على مصر ، وقد أصدر المعهد نشرته هذه منذ سنة ١٨٥٩ . ومن الواضح أن اهتمامات هذه النشرة كانت منصبة على الدراسات العربية والمصرية منها على وجه الخصوص .

ب- نشرة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية (le Bulletin de L'Institut Français d'Archéologie Orientale) : ويصدرها المعهد الفرنسي في القاهرة منذ سنة ١٩٠١ . وهي كما نرى تهتم بعلم الآثار الشرقية (الحضارات القديمة والحديثة) ، وتتناول كذلك الفنون العربية الإسلامية المختلفة ، وتصدر سنويا .

ج- نشرة الدراسات الشرقية (le Bulletin d'Études Orientales) : وقد بدأ المعهد الفرنسي للدراسات العربية في دمشق بإصدارها سنة ١٩٣١ ، وهي حولية لا تزال تصدر إلى اليوم .

د- نشرة الدراسات العربية (le Bulletin d'Études Arabes) : وكانت تصدر

في مدينة الجزائر منذ سنة ١٩٤١ .

٤ - الحوليات (Annales) أو السنويات (Annales) :

وهذا النوع من المنشورات يصدر بهذا العنوان نفسه مرة كل سنة، ومن هذه الحوليات على سبيل المثال :

أ - حوليات معهد الدراسات الشرقية بالجزائر (Annales de L'Institut d'Études Orientales d'Alger) : وقد كانت تنشر في باريس عادة منذ سنة ١٩٣٤ . وتتناول بالبحث والمعالجة موضوعات تتعلق بالدراسات العربية .

ب - سنوية معهد فرنسا (Annuaire du Collège de France) : وتضم هذه السنوية في صفحاتها دراسات تتعلق بما تناوله أساتذة هذا المعهد طوال العام الدراسي من دروس وما قاموا به من أنشطة في مجال الكرسي المتخصصة على اختلافها، ومن بينها ما يتعلق بالدروس والشؤون العربية الإسلامية، وتصدر هذه السنوية في باريس منذ سنة ١٩٠٠ إلى اليوم. ويمكن أن نضيف إلى هاتين الحوليتين بعض المنشورات السابقة التي لم تحمل اسم (حولية) بصراحة، لأنها كانت تصدر عملياً مرة كل سنة، كنشرة الدراسات الشرقية ونشرة الدراسات العربية وغيرهما على سبيل المثال .

٥ - الدوريات (les périodiques) :

وهي مجلات تصدر دورياً في وحدات زمنية متساوية (كل شهر، أو شهرين، أو ثلاثة وتسمى في هذه الحالة فصلية، أو كل أربعة شهور وتسمى ثلثية لصدورها كل ثلث سنة، وكل ستة شهور وتسمى نصف سنوية، أو كل سنة بالتمام والكمال وهي تعرف كما رأينا آنفاً باسم الحولية لصدورها مرة كل حول أي سنة. ومن هذا المنطلق تدخل في نطاق الدوريات كل أنواع المنشورات ذات الطابع المنتظم في صدورها .

٦ - المتوعات (les mélanges) :

اعتاد المستشرقون والمستعربون الفرنسيون على أن يصدرُوا دراسات وبحوثاً قصيرة

يشاركون بها في تكريم أحد كبار زملائهم، ممن كافح طويلا في ميدان الدراسات وقدم جهودا مشكورة ذات نفع عميم للثقافة الفرنسية، ويكون إصدار هذه المنوعات التكريمية في حياة ذلك الزميل أو بعد وفاته لتخليد ذكره والإقرار بفضلته، وتُهدى مجموعة المنوعات عادة إلى روحه إن كان ميتا (أو بتعبير آخر إلى ذكره)، وإليه مباشرة إن كان حيا. وتُنشر هذه المنوعات بعد أن يتم إلقاؤها من قبل كتابها في جلسة تكريم، أو تجمع من غير إلقاء وتُنشر مباشرة في مجلد واحد أو أكثر، ومن أمثلة هذا النوع من المنشورات - وهي كثيرة - نذكر:

أ - منوعات مهداة إلى ديمومبين

Mélanges offerts à G. Démombynes, 1935-1945.

ب - منوعات ماسينيون

Mélanges L. Massignon, 3t., 1956 - 1957.

٧ - الذكريات (les mémoires) :

ويتعلق هذا النوع من المنشورات إما بمؤسسة، فيُنشر مجلد في ذكرى تأسيسها المثوية أو في ذكرها المئة والخمسين مثلا، كالذي صدر في الذكرى المئة والخمسين لتأسيس مدرسة اللغات الشرقية الحية، بعنوان: «الذكرى المئة والخمسين للمدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية» الذي صدر سنة ١٩٤٨. Cent cinquantaire de L'E. N. L. O. V., 1948. وإما أن ينشر في ذكرى أحد المستشرقين أو المستعربين وفاء له وتكريما بعد وفاته، ومن ذلك مجموعة (دراسات في الاستشراق مهداة إلى ذكرى ليفي - بروفنسال): Études d'orientalisme, dédiées à la mémoire de Lévi-Provençal, 2t.

٨ - الأعمال (les actes) :

وهذا النوع من المنشورات يطلق على مجموعة الدراسات والبحوث التي يتم إلقاؤها في مؤتمر ما من مؤتمرات المستشرقين الدولية أو مؤتمر ما من مؤتمرات المستعربين الدورية أو العرضية غير المنتظمة، ويتم جمع هذه الأعمال ونشرها بعد انقضاء

المؤتمر واختتام جلساته المخصصة لتلك الدراسات .

ونحن نلاحظ من خلال ما تقدم ، أن بعض هذه المنشورات يتشابه من حيث الشكل على الرغم من إطلاق تسميات مختلفة عليه : كالمصحفة ، والمجلة ، والنشرة ، والدورية ، لأنها تكاد تصدر بحجم واحد متقارب من جهة ، وتظهر في أوقات دورية منتظمة من جهة ثانية ، مما يجعل التفريق بينها في بعض الأحيان إجرائيا محضاً لا علاقة له بالجانب الوظيفي لها .

٦ - وضع إحصاءات للكتب العربية المنشورة أو المؤلفة عن العرب :

كان هذا النشاط الإحصائي يشغل حيزاً من اهتمامات المستشرقين المهتمين بكل ما يتعلق بالعرب وراثهم وما كتب عنهم في أي مجال من المجالات ، ويهدف مثل هذا النشاط إلى حصر الكتب المنشورة عن العرب تحقيقاً وتأليفاً ، تسهيلاً على الباحثين وتوفيراً لجهودهم وأوقاتهم التي يمكن أن يبذلوها في قضايا غير إجرائية تكون أكثر مردوداً وأنفع لهم في ميدان البحث .

وكان فكتور شوفان V. Chauvin من أبرز من قام بمثل هذه الإحصاءات لما يمكن تسميته بالمكتبة العربية Bibliotheca arabica ، إذ وضع إحصائية فريدة من نوعها بعنوان : (مرجعية المؤلفات العربية أو المتعلقة بالعرب المنشورة في أوروبا المسيحية من سنة ١٨١٠ إلى سنة ١٨٨٥) - La Bibliographie des ouvrages arabes ou relatifs aux Arabes publiés dans L'Europe chrétienne . de 1810 à 1885

وقد وقع هذا العمل الخطير والمهم في اثني عشر مجلداً تم نشرها بين سنتي ١٨٩٢ و١٩٢٣ . وهذا العمل بطبيعة الحال نوع من الفهرسة والتوثيق لمثل هذه الكتب . وقد سجل في هذا الجرد الشامل كل ما وصل إليه علمه من معلومات عن المؤلفات العربية المنشورة في أوروبا ، أو عن المؤلفات التي تتناول العرب بالبحث والدراسة من قريب أو بعيد . وقد أفنى في إنجاز هذا العمل عشرين سنة من عمره ، إذ كان يستغل أوقات فراغه لإشباع نهمه إلى هذه الهواية عظيمة الفائدة . وقد تمكن خلال

هذه المدة المديدة التي لا يستهان بها من الاطلاع على عدد كبير جدا من الكتب، وقلب صفحات أكثر من سبعة آلاف مجلد من المجلات العلمية أو الفهارس أو المرجعيات (الببليوغرافيات)^(١).

يقول شوفان عن دوافعه إلى انجاز إحصاء مرجعي كهذا: «إن كثيرا من العلماء يكررون أعمالا سبقوا إليها، فينشرون كتباً منشورة من قبل لعدم توفر معلومات مرجعية (ببليوغرافية) كافية»^(٢). ونستشف من ذلك أن غايته التي يهدف إليها كانت توفير الجهود والأوقات على هؤلاء الباحثين بالحيولة دون تكريرهم العمل في كتب بذلت فيها جهود العلماء قبلهم فأخرجوها، لأن في هذا التكرير هدرا على غير طائل في معظم الأحوال، وهذا هو عينه ما دعا غوستاف دوغا أيضا إلى وضع كتابه المشهور: (تاريخ المستشرقين في أوروبا) *Histoire des orientalistes de L'Europe*، إذ كان يترجم في هذا الكتاب للمستشرق، ثم يتبع هذه الترجمة بالحديث عن آثاره، وهو يقول في ذلك: «كم من العلماء الذين انشغلوا في وقت واحد بموضوع واحد، وتناولوا أعمالا قد بحثت من قبل في مؤلفات يجهلونها. ومن ثم كم من الأوقات المهدورة والاستعمالات المزدوجة قد بذلت؟»^(٣)

٧ - ترجمة دراسات أجنبية عن العرب إلى الفرنسية:

وهدف مثل هذه الترجمة هو الاطلاع على ما كتبه المستشرقون والمستعربون في البلدان الأخرى عن موضوعات عربية للاستفادة منها، ففي الدراسات اللغوية مثلا ترجم جان كانتينو J. Cantineau كتاب (العربية) للمستعرب الألماني المعروف يوهان فوك J. Flick، ونشرت هذه الترجمة سنة ١٩٥٥. وفي ميدان الدراسات الأدبية ترجم المستعرب الفرنسي المعروف شارل بيلا Ch. Pellat كتاب (تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية) للمستعرب الإيطالي المشهور كارلو نالينو C. Nallino، ونشرت هذه الترجمة في باريس سنة ١٩٥٠.

(١) انظر كتابه المذكور أعلاه. T.I.p.XXXI.

(٢) انظر: م.س. VI. T.I.p.

(٣) انظر كتابه المذكور أعلاه: p.I.

٨- الرحلة إلى البلدان العربية وتسجيل الانطباعات والمشاهدات :

لم يَكْفَ عدد لا بأس به من المستعربين والمستشرقين الفرنسيين وغيرهم من الأدباء والشعراء والرحالة الهواة عن القيام برحلات إلى المشرق العربي خاصة يزورون خلالها مدنها الكبيرة وموانئها ومعالمها الأثرية، ويتعرفون طبيعة البلاد وأجواءها وعادات أهلها وأخلاقهم وأزياءهم، إلى غير ذلك من وجوه يرون فيها مظاهر دالة على حقيقة الناس في المجتمعات العربية المشرقية. وكانوا يسجلون أثناء زيارتهم تلك ما يصل إلى علمهم من معارف ومعلومات عن كل ما يمرون به، كما يسجلون مشاهداتهم وانطباعاتهم الشخصية، وربما سجلوا ذلك في خطوط عامة وأفكار رئيسية وفق مخططات معينة لخدمة غاية ما، ثم لا يلبثون بعد عودتهم إلى فرنسا أن يتوسعوا فيها، مطلعين بذلك أبناء جلدتهم على بلاد لا يعرفونها، ويقرّبون إليهم صورتها الغامضة تقريباً يتيح لهم أن يتصوروها في خيالهم، وكأنهم يعيشون فيها. ومن المسلم به أن لهذا النوع من الكتابات جمهوره الذي يهتم له ويتأثر به كل التأثر ويلتذ كل الالتذاد في قراءته لما له من سحر خاص في نفوسهم.

ومما يعثر المرء عليه، في هذا المجال من الأنشطة، هذه الأمثلة البارزة:

١- كتاب (رحلة إلى مصر والشام) للكونت دو فولني de Volney، سنة ١٧٨٣، وقد كان نابليون بونابرت قائد الحملة الفرنسية الشهيرة على مصر والشام يتخله دليلاً للمنطقة وأهلها عند نزوله بمصر سنة ١٧٩٨.

٢- كتاب (رحلة إلى سورية ولبنان وفلسطين ومصر) للانغليس سنة ١٧٩٩.

٣- كتاب (رحلة من بغداد إلى حلب) للقنصل الفرنسي روسو L.J. Rousseau ونشر بباريس سنة ١٨٠٨.

٤- كتاب (دليل المسافرين بين طرابلس ومصر) لموتيلنسكي، وهو وصف لرحلته بينهما، ونشر في الجزائر سنة ١٩٠٠.

ومن الشعراء والكتاب الفرنسيين الذين زاروا المشرق وتركوا آثاراً في هذا المجال:

١- شاتوبريان (١٨٤٨م) Chateaubriand الذي كتب (عبقريّة المسيحية)، وكان قد رحل إلى القدس وخلدها في هذا الكتاب الذي نشر سنة ١٨٠٢.

٢ - لامارتين (١٨٦٩م) Lamartine الذي وصف رحلته إلى لبنان بكتاب من مجلدين
نشرا سنة ١٨٣٢ و ١٨٣٣ .

٣ - دونرفال (١٨٥٥) de Nerval الذي وصف حياة الشرق في مجلدين أيضا
بعنوان : (رحلة إلى الشرق) ، سنة ١٨٥١ .

وقد جمع كاريه Carré أخبار عدد من هؤلاء الرحالة الفرنسيين ، على اختلافهم ،
في كتاب بعنوان : (الرحالة والكتاب الفرنسيون في مصر من الاحتلال العثماني سنة
١٥١٧ إلى افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩) ، ونشره في جزئين ضمن منشورات
المعهد الفرنسي بالقاهرة ، سنة ١٩٣٧ .

٩ - الإشراف العلمي على الأطروحات الجامعية :

كان الإشراف العلمي على الأطروحات الأكاديمية التي يتقدم بها طلاب
الدراسات العليا في الجامعات الفرنسية ، لنيل الدرجات العلمية المختلفة ،
ولاسيما درجتا دكتوراه الحلقة الثالثة Doctorat du 3^{ème} cycle ودكتوراه الدولة
Doctorat d'État ، من الأنشطة البارزة جدا والملازمة لحياة أكثر المستعربين
الفرنسيين الذين كانوا يمارسون التعليم في الجامعات والمعاهد الفرنسية العليا .

ولاشك في أن هؤلاء الأساتذة كانوا يؤثرون تأثيرا عميقا ومباشرا في طلابهم عبر
هذه الفعالية العلمية المتميزة ، ذلك لأن دائرة اهتمام المستعرب المشرف على أطروحة
جامعية ما كانت تدعوه إلى حصر قبول الإشراف - في أغلب الأحوال - بمواضيع
تدخل ضمن تلك الدائرة ، ويتيح هذا الاختيار مبدئيا تأثير الأستاذ في جملة أفكار
الطالب ومواضيع بحثه وحدوده . ويعد هذا التأثير الأول في أطروحات الطلاب ،
يضاف إليه تأثير ثان في طبيعة تصور الطالب «هيكلي» الموضوع المطروح للمعالجة
على بساط البحث ، وأعني بها «المنهج» الذي يفضل المشرف اتباعه ويؤثره على غيره
من المناهج . ولكل أستاذ ، بطبيعة الحال ، «منهجيته الخاصة» التي يرتاح لها ويعمد
إلى المحافظة عليها ويحاول أن يعدي بها طلابه الذين يشرف عليهم ، بغية نشر هذه
المنهجية بين الباحثين .

وإذا نظرنا في أنواع الطلاب الذين يشرف هؤلاء المستعربون الفرنسيون عليهم، من حيث انتماءاتهم القومية، فلنأنا نستطيع حصرهم عموماً في:

(١) الطلاب الفرنسيين.

(٢) الطلاب الأجانب ماعدا العرب: ونسبة هؤلاء قليلة جداً عادة.

(٣) الطلاب العرب: وكان تخرج الطلاب العرب على يد المستعربين الفرنسيين في الجامعات الفرنسية، في اللغة العربية وآدابها، والتاريخ الحضاري للعرب، معروفاً منذ مطلع النهضة العربية الحديثة إلى حدود نهاية الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٥. ثم أخذت هذه الموجة تنحسر شيئاً فشيئاً بعد تلك الحرب مباشرة، نظراً لنشأة عدد من الجامعات العربية وتطورها وازدهارها إلى الحد الذي نراها عليه اليوم في كل عاصمة عربية، بل في مراكز المحافظات والأقاليم أيضاً، فلم يبق نتيجة ذلك كله سوى ذيول قليلة متفرقة هنا وهناك. أخذت طريقها إلى الانضمحل لأنها تتنافى مع طبيعة الأشياء ومع طبيعة التطور الأكاديمي في الجامعات العربية المختلفة اليوم. ونذكر على سبيل المثال أن كلا من الدكتورين طه حسين وزكي مبارك قد تخرج من جامعات فرنسية، وقد تحولت البعثات لدراسة الأدب العربي عن فرنسا وغيرها إلى مصر أولاً ثم إلى غيرها من البلدان العربية.

ونضرب هنا بعض الأمثلة على هذا الإشراف وأثره.

أ- الإشراف على طلاب فرنسيين:

أشرف شارل بيلا - الذي كان قد درس الجاحظ الكاتب الناصر وأثاره - على أطروحة لنيل درجة دكتوراة دولة سجلها المستعرب مارك برجييه M. Bergé، في جامعة السوربون (كلية الآداب)، سنة ١٩٦١، بعنوان: (أبوحيان التوحيدي الناصر والمفكر العربي في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي: حياته، ووسطه، وآثاره)، وقد تمت مناقشتها سنة ١٩٧٤، ووقعت في ثلاثة مجلدات ضخمة. والتأثير واضح جداً من خلال عدة وجوه:

١ - اختيار برجييه ناثراً كبيراً هو (التوحيدي) كما اختار بيلا من قبل ناثراً كبيراً متقدماً

هو (الجاحظ).

- ٢- ركز برجيّه في أطروحته على دراسة (الوسط) الذي ترعرع فيه التوحيدي وجال في أرجائه، وهذا تأثر جلي بتركيز بيلا في أطروحته عن الجاحظ على مسألة الوسط حتى طغت على العنوان فكان: (الوسط البصري وتكوين الجاحظ).
- ٣- تشابه خطة العمل في كل من التوحيدي والجاحظ في كثير من نقاط الدراسة الأساسية.

ب- الإشراف على طلاب عرب:

أشرف شارل بيلا أيضا على أطروحة لنيل درجة دكتوراة جامعة من باريس، سجلها الطالب العربي سعيد البستاني سنة ١٩٦١ بعنوان: (ابن الرومي: حياته وآثاره)، وقد نشر الجزء الأول من هذه الأطروحة بالفرنسية في بيروت سنة ١٩٦٧، ضمن منشورات الجامعة اللبنانية، وقد جاء بعنوان: (ابن الرومي في وسطه). ومن الواضح مافي كلمة (وسطه)، هنا، من آثار منهج الأستاذ المشرف، وقد رأينا هذه الكلمة في أطروحة برجيّه آنفا.

كما أشرف ريجيس بلاشير على أطروحة للطالب العربي صالح الأشتر التي سجلها سنة ١٩٥٠ معه لنيل درجة الدكتوراة، وكان عنوانها: (شاعر عربي من القرن الثالث الهجري: البحري - حياته وإنتاجه)، وواضح جدا وجه الشبه بين صيغة هذا العنوان وصيغة عنوان أطروحة بلاشير لنيل الدرجة العلمية نفسها، وكان عنوانها: (شاعر عربي من القرن الرابع للهجرة: أبو الطيب المتنبي). وقد كتب إلى الأستاذ الدكتور صالح الأشتر حول ذكرياته عن هذا الإشراف الذي دام من سنة ١٩٥٠ إلى سنة ١٩٥٤ رسالة قال فيها بعد وصفه الطريقة التي اتبعها في دراسة البحري: «هذه الطريقة في دراسة الأدباء موصولة بمنهج الأستاذ بلاشير في كتابه الجامع عن (المتنبي)، . . وقد اهتمت في دراستي للبحري بهذا المنهج بإشراف الأستاذ بلاشير نفسه»^(١).

(١) هذا المقطع من تلك الرسالة المؤرخة في ٢٤/٣/١٩٧٦.

وربما تعددت هذه التأثيرات المنهجية الطلاب العرب المتقدمين بأطروحاتهم إلى جامعات فرنسية لنيل الدرجات العلمية ، إلى الباحثين العرب أنفسهم بطريق غير مباشرة ، بل ربما كان للمناهج التي اتبعها طلاب عرب في أطروحاتهم تلك ، بإشراف بعض المستعربين الفرنسيين تأثيرات في طلاب فرنسيين جاؤوا بعدهم ، كما يتضح لنا من أخذ المستعرب الفرنسي مارك برجيه المذكور آنفاً ، في أطروحته عن أبي حيان ، منهج أستاذنا الدكتور ابراهيم الكيلاني ، في تبويب أطروحته التي تقدم بها لنيل درجة الدكتوراة ، بإشراف المستعرب الفرنسي المعروف لوي ماسينيون ، وكانت بعنوان : (أبو حيان التوحيدي البحاثة العربي في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي) ، وقد نشرها في بيروت ، سنة ١٩٥٠ ، ضمن منشورات المعهد الفرنسي بدمشق . ونستطيع القول ، من خلال المقارنة بين العاملين ، إن مادة كتاب الدكتور الكيلاني الوجيزة المكثفة قد استوعبت في أطروحة برجيه الضخمة ، كما أنه أفاد من كل الآراء التي طرحها والنتائج التي توصل إليها ، ومن المصادر التي استقى منها مادته أو رجع إليها ، ولكن يبقى الفضل في كل ذلك للمتقدم والرائد المنتجع^(١) .

ونحن نرى ، عموماً ، أن المستعربين الفرنسيين قد أنفقوا ، في هذا الميدان من ميادين أنشطتهم ، أوقاتاً كثيرة ، و بذلوا فيه جهوداً لا تقدر بثمن ، سهروا خلالها على رعاية طلابهم والإشراف عليهم في المراحل المختلفة من عملهم في أطروحاتهم الجامعية التي اختاروها وارتضوا العمل فيها طائعين ، خدمة للبحث العلمي وكشفاً للحقيقة ، وسعيًا وراء المجهول . وهم لا يزالون إلى اليوم يبارسون هذا النوع من النشاط الذي يتمثل فيه التجديد والتطوير والإبداع في مجال الفكر البشري الخلاق .

(١) هذا غيض من فيض من أمثلة التأثير والتأثر المتبادلين بين المستعربين أنفسهم ، أو بينهم وبين الباحثين العرب ، أوردناها للإشارة فقط إلى وجود الظاهرة ، ولم تتوسع فيها لأن ذلك موضوع بحث خاص مستقل كنا قد عكفنا عليه منذ حين .

الفصل السادس : من أعلام الاستعراب الفرنسي

تكاد حركة الترجمة في أوروبا، إبان ثلاثة قرون هي الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر، تكون محصورة في الترجمة من العربية إلى اللاتينية، وهذه حقيقة خطيرة وهامة جدا في تاريخ التواصل بين الحضارات المتوسطية، وهذا دليل كاف على قوة انفتاح الأوربيين، في أواخر العصر الوسيط، على العرب والحضارة العربية الإسلامية.

وأخذت أوروبا، في مطلع عصر النهضة وبعد اتساع الكشوف الجغرافية والاختراعات العلمية والثورة الصناعية، تتجه بأنظارتها إلى خارج القارة لبسط سلطانها على العالم الجديد في غربي المحيط الأطلسي، أو لتدور حول العالم مكتشفة طرقا جديدة توصلها إلى المحيط الهندي - بالدوران حول أفريقيا - وما يمتد على سواحلها من بلدان تقطن فيها شعوب ضعيفة أو متخلفة ترزح تحت أعباء حكومات إقطاعية أو شبه عبودية. وقد كانت الأوضاع المتفاوتة جدا بين قوة الدول الأوروبية وواقع هذه البلدان عاملا حاسما بل حافزا لاحتلالها احتلالا عسكريا مباشرا والسيطرة على إدارتها ومواردها الاقتصادية لاستنزاف خيراتها وموادها الأولية الخام لتشحن إلى بلدان أوروبا لتغذي بها أبناءها ومصانعها ومصارفها وجيوبها والتمتع بأفضل الأشياء وأغلاها. ونحن لا نقصد هنا كل البلدان الأوروبية، وإنما تلك الدول العربية في تاريخها الاستعماري منها، كما أننا لا نقصد كل أبناء تلك الدول الاستعمارية، وإنما تلك الطبقات الحاكمة التي كانت تستغل تلك البلدان المستعمرة أبشع استغلال كما كانت تستغل في الوقت نفسه الطبقات الفقيرة في المجتمعات الأوروبية نفسها. وقد تمثل استغلال الشعوب في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية بشكل آخر أيضا هو تصدير المواد الأولية التي تم تصنيعها في بلدانهم إلى أسواق البلدان المستعمرة لتصريفها وجني الأرباح الطائلة من ورائها.

وقد دفعت كل هذه الظروف وهذه الثروات الأوربيين دفعا إلى ازدهار حركة الاستعمار المباشر لهذه البلدان الضعيفة والمتخلفة عن ركب التطور العلمي والتقني

في أوروبا الغربية على وجه الخصوص ، ولم يلبث التنافس على امتلاك المستعمرات أن قام بين الدول الأوروبية نفسها وولد صراعا مريرا على المسرح الأوربي أولا، وفي المستعمرات ثانيا ، فانقسمت هذه الدول الأوروبية إلى دول مستعمرة وأخرى محرومة من هذا الاستعمار ومحصورة قهرا في إطار أوروبا أو داخل حدودها نفسها .

وكان طبيعيا أن تفكر هذه الدول الاستعمارية في التعرف على شعوب تلك البلدان المستعمرة ، ولا يتم مثل هذا التعرف عادة إلا بتعلم لغات تلك الشعوب الشرقية في آسيا وأفريقيا . وكان ذلك تمهيدا طبيعيا أيضا لسائر المعارف الأخرى عن هذه البلدان . كالمواقع الجغرافية ، والحاضر السياسي فيها وتاريخها الماضي ، وثرواتها الحضارية التي تتمثل بالتراث القديم وثقافتها القائمة ، وأديانها ومذاهبها وعادات الناس وتقاليدهم . وباختصار شديد ، اتجه هؤلاء الأوروبيون إلى اكتشاف عقليات هذه الشعوب وطرائق تفكيرها وسلوكها ومعرفة أسباب التأثير فيها ، والاطلاع الدقيق على نقاط القوة والضعف في البنية العامة لهذه العقليات لتتمكن من ضرب نقاط القوة وتفتيتها وإبطال مفعولها من جهة ، ولتتمكن من استغلال نقاط الضعف خير استغلال لأحكام طرق السيطرة على هذه الشعوب وبلدانها من جهة أخرى .

ولم يقتصر المستعمرون الأوروبيون على هذا وحده ، وإنما تجاوزوه إلى حمل لغتهم وثقافتهم ومعارفهم الخاصة إلى هذه الشعوب لتحل شيئا فشيئا محل لغات الشعوب المستعمرة وثقافتها ومعارفها الخاصة بها ، لتتمكن السيطرة عليها من الداخل ويسهل عليهم بالتالي شدهم إلى فلكتهم بتبعية دائمة لا تزول ، فيما اصططح على تسميته في أيامنا بـ «غزو العقول» أو «الغزو الثقافي» . يضاف إلى ذلك أنهم حلوا معهم كثيرا من فنونهم ، وعاداتهم ، وأخلاقياتهم ، وفلسفاتهم ، وأزيائهم ، وحتى ألوان طعامهم إلى الشعوب المستعمرة لعلهم يغرسونها في نفوسهم ويحلونها محل ما يقابلها عندهم من خصوصيات . وربما حلوا معهم كذلك الديانة المسيحية بحسب المذاهب المنتشرة في بلدانهم إلى الشعوب الوثنية التي ليس لها ديانات قوية ، بل عمدوا إلى نقل المسيحية إلى كثير من البلدان التي تنتشر فيها ديانات قوية كالإسلام والبوذية والهندوسية على أيدي المبشرين المبعوثين خصيصا لهذا الغرض : غرض

التبشير والدعوة، لیتم بذلك ضمان ربط المستعمرات روحيا أيضا بالمراكز الدينية العليا في أوروبا. وهذه هي الحال التي آل إليها كثير من الشعوب الأفريقية والآسيوية بانتصار السيطرة اللغوية (وعلى سبيل المثال انتصار اللغتين الفرنسية والإنكليزية)، و بانتصار السيطرة الروحية.

وكان من أهم الشعوب التي لفتت انتباه المستعمرين الأوروبيين إليها في وقت مبكر: العرب الذين كانت بلدانهم - فيما عدا المغرب الأقصى - تابعة للسلطان العثماني ابتداء من أواخر العقد الثاني من القرن السادس عشر، وكانت تشكل أكبر جزء من أراضي السلطنة العثمانية التي كانت تؤمن بالإسلام ديناً رسمياً للدولة، وتتخذ التركيبة في الوقت نفسه لغة للسيادة (أي الحكم والإدارة على وجه الخصوص)^(١).

وقد كانت علاقات الأوروبيين مع العرب - في الفترة التي كانت الدولة العثمانية فيها قوية عسكرياً وكان الأوروبيون عاجزين عن الدخول في حرب مباشرة معها - تقتصر على العلاقات السياسية والتجارية على الأغلب، وكانت العلاقات السياسية تتم عن طريق الباب العالي ومن خلال السلطان العثماني وجهازه الحاكم. وكان العثمانيون آنذاك يفرضون على المنطقة العربية طوق عزلة شبه محكم عن العالم الخارجي وما يجري فيه من تيارات، فعاش العرب في قوقعة السلطان التركي منغلقيين انفلاقاً تاماً عن تطور ركب الحضارة والتطور العلمي والتقني إلى أن هبت نسباتها مع بزوغ فجر النهضة الحديثة.

وكان هؤلاء الأوروبيون الطامحون إلى تمزيق هذه الدولة وتقاسم أجزائها ينشطون للعمل فيها إبان فترات الضعف والانحطاط، وكانوا يتدخلون حسب مصالحهم: تارة مع الدولة العثمانية ضد أعدائها في الداخل أو الخارج، وتارة أخرى مع أعدائها هؤلاء، حتى كانت حملة نابليون العسكرية على مصر والشام أواخر القرن الثامن عشر وأوائل

(١) ولعل هذه المفارقة هي التي كانت وراء انهيار الدولة العثمانية وانحسار إمبراطوريتها تماماً، بعد الحرب العالمية الأولى، إلى حدود الرقعة المعروفة اليوم باسم (تركيا).

التاسع عشر، وهي الحملة التي فتحت الصفحة الأولى في تاريخ العرب الحديث، وكانت خطوة عملية لدحر السلطان العثماني، بعد أن كانت هنالك محاولات إسبانية لاحتلال سواحل الشمال الأفريقي، ومحاولات برتغالية لاحتلال سواحل بحر العرب في القرنين السادس عشر والسابع عشر. وتلت تلك المحاولات محاولات إنكليزية وفرنسية كتب لبعضها الإخفاق (حملة فريزر على مصر سنة ١٨٠٧) ولبعضها الآخر النجاح (الحملة الفرنسية على الجزائر سنة ١٨٣٠، الخ) في القرن التاسع عشر. ثم كان استعمار سائر البلدان العربية في العقد الثاني من القرن العشرين (إذ استعمرت إيطاليا ليبيا سنة ١٩١١ - واستعمرت فرنسا المغرب الأقصى سنة ١٩١٤، ثم الساحل السوري سنة ١٩١٨ والداخل سنة ١٩٢٠ - واستعمرت بريطانيا العراق سنة ١٩١٤، ثم فلسطين ١٩١٧، ثم الأردن سنة ١٩٢٠).

وهكذا نلاحظ أن اللغة العربية كانت، بحكم هذه الأطماع الاستعمارية الأوروبية في البلدان العربية، على رأس قائمة اللغات المهمة للقوى المستعمرة المؤثرة فيها (وهي: إسبانيا، وفرنسا، وبريطانيا، وإيطاليا على وجه الخصوص). وكانت فرنسا، في الواقع، من أكثر هذه الدول اهتماماً باللغة العربية منذ وقت مبكر: إذ قام الملك فرانسوا الأول سنة ١٥٣٠ بإصدار أوامره بالاهتمام بها وتعليمها في معهد فرنسا (كوليج دو فرانس). وقد تابع الملك - الشمس لويس الرابع عشر اهتمامه بتعليمها في مدرسة فتيان اللغات إلى جانب التركية والفارسية، بوصفها جميعاً لغات إسلامية بارزة ومفيدة آنذاك لخدمة الصلات والمصالح والمطامع الفرنسية بدول الشرق الأدنى القريبة إلى الساحة الأوروبية أكثر من غيرها من البلدان الشرقية. ثم تابعت الثورة الفرنسية هذه الجهود وأضفت عليها طابع الجدية والعمق والاستمرارية والرسوخ أكثر من أي وقت مضى من قبل، وذلك بتأسيسها المدرسة الشهيرة باسم (المدرسة الخاصة باللغات الشرقية الحية)^(١) سنة ١٧٩٥، أي قبل حملة نابليون بثلاث سنين فقط.

(١) وقد مرت بنا من قبل دراسة مفصلة عن كل مدرسة من هذه المدارس الثلاث في الفصل الثالث من هذا البحث.

وكانت ثمرات المدرسة الأخيرة أنضج وأحلى من ثمرات المدرستين الآخرين ، نظرا لإرساء أسس ثابتة ودائمة لتعليم العربية الفصحى واللهجات العربية العامية من مشرق الوطن العربي ومغربه على حد سواء ، ولظهور عدد من المستعربين الكبار المتمكنين من العربية والدراسات العربية بأنواعها كافة ، ولنشأة تيارات ومدارس استعراية متعددة وقوية في فرنسا كان لها تأثيرات ملحوظة في أوروبا عامة .

وقد ظهرت في فرنسا - إثر مدرسة اللغات الشرقية هذه - مؤسسات علمية وأكاديمية ثابتة وراسخة ومستمرة ، ولها تقاليد لها الواضحة ، فحلت محل الجهود الفردية الضعيفة والمتناثرة التي كانت تخضع للرغبات والنزوات الآنية وتتحكم فيها جملة من الظروف والأهواء السياسية المتباينة ، وانتهى بذلك عهد وبدأ عهد آخر في تاريخ الاستعراب يقوم على سياسة ثابتة عند الدولة والمجتمع الفرنسي في هذا المجال .

وجاء احتلال الفرنسيين الجزائر، سنة ١٨٣٠ ، دفعا قويا جدا للدراسات العربية في فرنسا، إذ ازدهرت ازدهارا عظيما ، إلى حد أن معظم المستعربين الذين برزوا في ميدان الاستعراب الفرنسي ، كانوا قد تكونوا كليا أو جزئيا في المدرسة الجزائرية ، أو درسوا على أيدي من تكونوا فيها على أقل تقدير، ذلك لأن المستعربين أصبحوا على اتصال مباشر بالتراث العربي وعلى احتكاك قوي بجزء من الأمة العربية وجها لوجه . وقد عبر المستعرب الفرنسي هنري ماسية H.Massé ، في مقالة طويلة جدا له^(١) ، عن جوانب هذا الازدهار في الذكرى المثوية لاحتلال الجزائر ، وكشف النقاب فيها عن محاولات الفرنسيين فرنسة الشعب العربي في الجزائر والمراحل التي كانت مرسومة لتنفيذ هذه السياسة . وفي الحقيقة ، تشكل (المدرسة الجزائرية في حركة الاستعراب الفرنسي) موضوعا قيما لدراسة مستقلة قائمة برأسها نظرا لأهميتها الخاصة في هذا الميدان .

وقد مر بنا في فصل سابق أن المستعربين الفرنسيين وبعض عملائهم من المشاركة

(١) انظر بعض المعلومات عن هذه المقالة المطولة في : ص ٩٨ هـ ١ من هذا البحث .

كانوا يعاونون الجيوش الفرنسية الغازية للبلدان العربية في أعمال الترجمة والوساطة في التفاهم بينها وبين الشعوب العربية في تلك البلدان . ويتضح لنا ، من ذلك ، مدى التداخل بين الأهداف العلمية والأهداف السياسية والاقتصادية والعسكرية للاستعرا ب ، وهذا أمر مفروغ منه في نظرنا ، لأن المستعربين ، أغلبهم إن لم نقل كلهم ، كانوا يرون في ذلك خدمة وطنية أو واجبا قوميا لشعوبهم ودولهم يؤدونه عن طيب نفس وخاطر .

وكان المستعربون عموما يتفاوتون عادة كما هي طبيعة الأشياء في قدراتهم على التعامل مع اللغة العربية ، ولذا نجدهم يتدرجون مثلا : من مستعرب يتكلم العربية بطلاقة كأهلها ويقرأ بها النصوص وينشئ بها البحوث والدراسات ويفهم من أهلها ما يلقى على أسماعه منهم ويجاورهم (كما هي حال ماسينيون ، وبلاشير ، وجاك بيرك ، وميكيل على سبيل المثال) ، وهؤلاء يعدون في الدرجة العليا من سلم الاستعرا ب ، إلى مستعرب لا يجيد الكلام بالعربية ولا فهم الحوار فيها ولكنه يكون قادرا على فهم نصوصها فهمًا تاما وينشئ بها بعض ما يضطر إلى إنشائه اضطرارا عند الحاجة الماسة ، ويمكنه قراءة نصوصها بصوت عال من الكتب والأوراق التي بين يديه (كما هي حال الغالبية العظمى من المستعربين الفرنسيين حتى اليوم ونموذجهم المجلى في ذلك دوساسي) .

وهناك تفاوتات أخرى بين المستعربين تتعلق بميول كل منهم واهتماماته التي تستقطب جهوده وتستغرقها وتوجهها . وتكون هذه الميول خاضعة لتأثيرات شتى ذات صلة بعوامل نفسية أو استعدادات فطرية وبشوجهات تربوية عن طريق التلقين أو الإيحاء أو القدوة والتقليد ، وربما كانت ذات صلة أيضا بظروف البيئة والنشأة التي تحيط بالمرء ، فتتحكم في تكوين اهتماماته وفي رسم طريقه المستقبلي ، ذلك لأن البيئة قد تضع بين يدي مستعرب مالا تضعه بين يدي مستعرب آخر ، وقد تجعله يفتح على موضوعات لم تتوفر لغيره ، ولذا فإننا لا نجد مستعربين اثنين متشابهين أو متطابقين تمام التطابق في الميول والاهتمامات مهما كانت الظروف ، وهذا يعني أن كلا من المستعربين كانت له موضوعاته التي يهتم بها ، واتجاهاته الخاصة ،

وطريقته في العمل والفهم، ومنهجه في البحث، وشخصيته المستقلة في الأداء. وسوف نلاحظ كل ذلك في الفصل الراهن الذي نتناول فيه ترجمة خمسة من أعلام المستعربين الفرنسيين من أيام الثورة الفرنسية إلى يومنا هذا، كنا قد انتقيناهم ليكونوا نماذج لحركة الاستعراب الفرنسي بخطوطها العريضة، وذلك من بين أكثر من مئتي مستعرب ظهروا في الفترة الراسخة والمستمرة من تاريخ الاستعراب الفرنسي، أي منذ مطلع القرن التاسع عشر إلى اليوم. ومن الجدير بالذكر هنا أن من هؤلاء المستعربين الكثير من قَصَر اهتمامه على الدراسات العربية والإسلامية، ومنهم من كان يمد هذا الاهتمام إلى الدراسات التركية والفارسية أو يمزجها بدراسات مقارنة بالحضارات العربية القديمة العريقة التي كانت قائمة منذ الألف الثالث قبل الميلاد. ومن شاء الاطلاع على تراجم هؤلاء المستعربين الذين ظهروا في فرنسا جملة عبر هذا التاريخ للتعرف على حياتهم وآثارهم عموماً، فليعد إلى مظان هذه التراجم بالعربية أو الفرنسية أو الألمانية، ومن أبرزها:

١ - «تاريخ المستشرقين في أوروبا» (ومن بينهم الفرنسيون) لغوستاف دوغا:

G.Dugat, l'Histoire des orientalistes de l'Europe, 2 t., Paris, 1868-

1870

٢ - «تاريخ دراسة اللغة العربية بأوروبا»: وهو كتيب وضعه بالعربية المستعرب النمساوي يوسف جيرا، ونشره في القاهرة سنة ١٩٢٩.

٣ - «الأعلام»: وهو بحسب العنوان الفرعي التوضيحي الذي وضعه له مصنفه وجامع تراجمه خير الدين الزركلي (قاموس لأبرز أعلام العرب والمستعربين من رجال ونساء) ويقع في ١١ جزءاً رُتبت الأعلام فيها ترتيباً هجائياً متسلسلاً.

٤ - «الدراسات العربية في أوروبا»: وقد ألفه المستعرب الألماني المشهور يوهان

فوك: J. Fück, Die arabischen Studien in Europa, Leipzig, 1955

٥ - «المستشرقون»: وقد جمعه وصنفه نجيب العقيقي، ووضع تحت عنوانه توضيحاً نصه (موسوعة في تراث العرب، مع تراجم المستشرقين ودراساتهم عنهم، منذ ألف عام حتى اليوم)، وقد وقع هذا الكتاب بطبعته الثالثة الصادرة عن دار

المعارف بمصر في ثلاثة مجلدات ذات ترقيم متسلسل : الأول سنة ١٩٦٤ ، والثاني والثالث سنة ١٩٦٥ (بلغ عدد صفحاته ١٤١٤ صفحة). وقد استقى المصنف مادته من مختلف المصادر الاستعرابية والاستشراقية بلغاتها الأصلية أو عن طريق مترجم منها إلى العربية ، ويعد المصدر الثر والواسع الوحيد في بابهِ . وعلى الرغم من سعة هذا الكتاب وغنى مادته وتنوعها وتغطيتها غالبية البلدان الأجنبية في العالم ، فإن لنا عليه ملاحظات ربما كان أكثرها عائداً إلى طبيعة الموضوع وتشعب آفاقه تشعباً مريعاً ومنها : إغفاله قائمة المصادر التي اعتمد عليها في جميع مادته . وعدم تمييزه في آثار المستشرق الواحد بين كتبه ومقالاته بحدود فاصلة ترفع اللبس بينها . وعدم إثبات عناوين الكتب أو المقالات بلغتها الأصلية لتدقيق الإفادة منها . وعدم إلمامه بكل آثار المؤلف الواحد منهم ، وإغفال كثير من تفاصيل حياة المستشرق والمناصب التي شغلها في حياته . وذكر تراجم لمستشرقين ليس لهم أي صلة قريبة أو بعيدة بالعرب والتراث العربي . إلى جانب بعض الأخطاء في التواريخ والأرقام أحيانا . إلا أن عذر المصنف في كل ذلك قوي وواضح ، لأن ما أنجزه بجهوده الفردية تكاد المؤسسات الكبيرة في وطننا تنوء بحملة . وما يذكر أن طبعة الكتاب الأولى كانت في مجلد واحد عادي الحجم ثم توسع في طبعته الثانية إلى أن آل إلى حجمه الضخم في الطبعة الثالثة ويمكن أن يبلغ حجمه عشرة مجلدات على سبيل المثال حتى تتم الإحاطة الوافية بهادته أو تكون قريبة من ذلك .

يضاف إلى هذه المصادر بعض الدراسات المفردة لدراسة مستعرب بعينه وتتبع مراحل حياته وآثاره بالتفصيل والتدقيق والنقد والتحليل الوافي لكل جزئية منها وكل فكرة كانت تنتشر متفرقة من حين لآخر ، إلى جانب المقالات التي كانت تنتشر في بعض المناسبات ، ولاسيما المناسبات التأبينية منها ، في بعض الدوريات الاستعرابية أو الاستشراقية على حد سواء . وفي مثل هذه الأعمال مواد وافية أو مختصرة عن هذا المستعرب أو ذاك .

ومن أبرز المعايير التي راعيناها في اختيار الأعمال الخمسة من المستعربين الفرنسيين للترجمة لهم هنا : (الشهرة) ، نظرا لتمايزهم في هذا المعيار ، ذلك أن منهم

العلم المعروف في أوساط العلماء من المستشرقين والمستعربين والعرب داخل فرنسا وخارجها، كما أن منهم المغمور الخامل حتى في أضيق الأوساط الثقافية. وهذه الشهرة غالباً ما تكون ناجمة من المعايير الأخرى كـ (غزارة الإنتاج العلمي) وأهميته، و(تعدد الاتجاهات والجوانب) التي يتطرق إليها ويتناولها في آثاره. و(العمق) في معالجة موضوعاته وما يتعلق بذلك من (أصالة) و(إبداع) من خلال امتلاكه منهجاً خاصاً به ومتميزاً و(تكوين تلاميذ ومريدين) في فرنسا وخارجها يكونون معجبين بشخصيته وآثاره ومنهجه، ويكونون له الاحترام والتقدير، لأن هؤلاء هم الذين يرسمون لأستاذهم هالة الشهرة وذويوع الصيت مع الزمن.

ولاشك في أن المتابع لجهود كل مستعرب من هؤلاء الذين تنطبق عليهم هذه المعايير، سيجد أن لكل منهم اهتماماً رئيسياً يدور حوله في عظم آثاره، لا يكاد يتعد عنه حتى يثوب إليه، وهذا الاهتمام أشبه بالمحور أو المركز أو النواة بالنسبة للأشياء. وسنرى هذه الحقيقة ماثلة فيمن سنترجم لهم في هذا الفصل بكل وضوح:

١ - سلفستر دوساسي (١٧٥٨ - ١٨٣٨) (١):

ولد (أنطوان - إسحاق سلفستر دوساسي) في باريس في الحادي والعشرين من شهر أيلول سنة ١٧٥٨. وكان أبوه أبرهام - جاك سلفستر دوساسي يعمل كاتب عدل، وقد توفي هذا الأب سنة ١٧٦٥، خلفاً ابنه صغيراً في حضانة أمه التي كان لها دور كبير في رعايته وتربيته وثقيفه، وكان هذا الابن هزيل الجسم ضعيف البنية معتل الصحة.

(١) اعتمدنا في كتابة هذه النبذة على مجلة مصادر من أبرزها:

Derenbourg (H.), Silvestre de Sacy (1758-1838), Paris, 1895. Salmon (G.), Silvestre de Sacy, 2t., le Caire (1905, 1923). Fück (J.), Die arabischen Studien in Europa, Leipzig, 1955, p.140-157.

وانظر كذلك : الدروس العربية في فرنسا لكليمان هوار، ترجمة : عبدالله رعد، في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مج ٥، ١٩٢٥، ص ١٦١ - ١٦١ وأثر المستعربين من علماء المشرقيات في الحضارة العربية لمحمد كرد علي، في : م.س، مج ٧، ١٩٢٧، ص ٤٠٤ وتاريخ دراسة اللغة العربية بأوروبا ليوسف جبرا، ص ٢٦. أما المصادر الأخرى فقد أشرنا إليها في مكانها من هذه النبذة.

وقد أظهر دوساسي منذ نعومة أظافره ميلا إلى الدراسة، وربما كان ذلك ناتجا عن إشباع أمه لرغباته القلبية وتهيئة الجو لفتح قدراته العقلية الكامنة، وكانت ميوله الأولى تكشف عن اهتمام بالشؤون الدينية، ويروى أنه كان متأثرا بطريقة دير (بور رويال) Port - Royal، معقل المذهب اليانسيني^(١) Jansénisme ولذا فقد بدأ بدراسة اللغة العبرية ليحقق الترجمات اللاتينية والفرنسية لـ (لكتاب المقدس) La Bible أي : التوراة أو مايعرف عند علماء اللاهوت بالعهد القديم. وكان يلتقي في أحد الأديرة برجل دين يهودي ويطرح عليه أسئلة ويتلقى عنها الإجابات^(٢).

كانت هذه الخطوة بداية رحلة دوساسي في عالم الاستشراق والاستعراب، إذ اندفع بعدها إلى محاولة التعرف على اللغات القريبة للغة العبرية، وهي التي أطلق عليها خطأ آنذاك بتأثير الدراسات التوراتية اسم (اللغات السامية)^(٣)، ولذا اتصل بباحث في النصوص العبرية يدعى دوم برترود Dom Berthereau كان له الفضل الأكبر في توجيه الشاب دوساسي إلى دراسة اللغة العبرية وتشجيعه، إذ كان يتنبأ له بقدرات هائلة على البحث.

ولم تكن اللغات الشرقية، مع ذلك، تستقطب اهتمام دوساسي ولا جهوده في

(١) وهو مذهب ينسب إلى اللاهوتي الهولندي يانسينيوس (١٦٣٨ م) Jansénius، وهو يقوم على فكرة الحد من الحرية الإنسانية انطلاقا من مبدأ يقول إن (العناية الإلهية) ممنوحة لبعض الكائنات منذ الولادة وبعضها الآخر محروم منها. وهو مذهب مستمد من كتابه : (أغسطينوس) الذي يعالج مذهب القديس أغسطينوس القائل بتدخل تلك العناية الإلهية في مواجهة حرية الإنسان.

(٢) كان عند الأوربيين - حتى اكتشاف نصوص اللغة السنسكريتية وصلتها باللغات الأوروبية على يد العالم جونز W.Jones اعتقاد راسخ بأن (العبرية)، هي لغة الإنسان الأولى، وعنها تفرعت كل لغات البشر في العالم ودفع هذا الاعتقاد الناتج عن التأثيرات التوراتية في التدين المسيحي، إلى دراستها والاهتمام بها على أنها لغة (مقدسة) من نحو، وأم للغات العالم من نحو آخر.

(٣) والأحرى أن يطلق عليها جميعا اسم (اللغات العبرية القديمة) لكون العبرية في جزيرة العرب أما لها، بحكم المهجرات التي كانت تفيض بها إلى الشمال في كل من العراق والشام، كما أنها أحدثها أيضا لبقائها دونها جميعا لغة حضارية متصلة وحية إلى يومنا الراهن، ويرى رينان E.Renan، في كتابه : (تاريخ اللغات السامية)، أن تسمية هذه اللغات بـ (السامية) خطأ، وأن الأصح تسميتها (اللغات السوروية - العبرية).

فترة شبابه الأولى، إذ اتجه إلى تعلم لغات أوربية حية كالألمانية والإنكليزية والإسبانية والإيطالية، وانتظم في دروس مدرسة الحقوق بباريس.

وقد نشر دوساسي، سنة ١٧٨٠، ملخصاً لمخطوطة سريانية في المكتبة الملكية (الوطنية اليوم) بباريس، ضمن المجموعة المسماة (الفهرسة) أو (الفهارس) - Reper- torium، ثم نشر فيها، سنة ١٧٨٣، نص رسالتين من القرن السادس عشر مبعوثتين من السامريين^(١) إلى يوليوس سكاليجر^(٢) J. Scaliger مع ترجمة لهما. وقد أدت مثل هذه الأعمال الأولى والمبكرة إلى شهرته في ميدان البحث، مما دفع بالملك إلى أن يستدعيه سنة ١٧٨٥ لشغل واحد من ثمانية أكنة للأكاديميين الأحرار المقيمين، التي أسست في أكاديمية النقوش والآداب، فظل وفيما لمنصبه هذا طيلة حياته.

وكان دوساسي قد عين، سنة ١٧٨١، في وظيفة مستشار بديوان النقود، واستمر فيها إلى أن عينه الملك مفوضاً عاماً للنقود، وبقي فيه إلى أن استقال منه بعد الثورة سنة ١٧٩٢.

ونستطيع أن نلم بالتكوين العلمي لدوساسي من خلال أحاديثه واعترافاته، إذ نراه يقول مرة في كلمة كان قد ألقاها، سنة ١٨١٠، أمام الهيئة التشريعية، لتقديم كتابه في (النحو العربي): «كانت دراسة الآثار الأصلية للدين هي الموضوع الأول الذي دفع بعض العلماء إلى أن يقفوا جهودهم على اللغة العبرية التي كتبت بها أقدم آثار العصور الأولى في العالم. وقد ارتأيت بعد ذلك أنه لدخول هذا الحرم وتذليل صعابه كان يجب أن تضاف إلى تلك اللغة دراسة لغات تم حفظها في كثير من الآثار، أو مازالت مستعملة في بعض أنحاء آسيا...، وهكذا كانت دراسة اللغة العربية»^(٣). وإذا كان في هذه الأحكام مغالطة تاريخية، فعذر صاحبها أن الكشف

(١) وهم فرقة من اليهود ذات مذهب خاص بها.

(٢) سكاليجر: واسمه يوسف يوستوس، انسانياتي وفيلسوف بروتستنتي، من أصل إيطالي، عاش بين سنتي ١٥٤٠ و ١٦٠٩. انظر: تاريخ دراسة اللغة العربية بأوروبا ليوسف جبرا، ص ٢١.

(٣) انظر: Derenbourg (H.), op.cit., p.17.

الأثرية لم تكن معروفة بعد حين أطلقها ، ولأن هذا هو ما كان سائدا في أيامه من أفكار وآراء ، قبل أن تكتشف الكتابات والأبجديات القديمة في المشرق العربي ، وخاصة الشام والعراق ومصر.

ويبين دوساسي ، في رسالة جوابية يبعث بها إلى أحد المشرقيين المعجبين بعمله ، جوانب أخرى من تكوينه العلمي إذ يقول : «وأنت تريد أن تعلم إذا ما كان لي شيوخ علموني اللغة العربية . . ، ولإني أستطيع أن أؤكد لك أنه لم يكن لي من معلم سوى الكتاب . وأنا لا أستطيع أن أحفظ بالعربية شيئا ، ولا أفهم ما يقال بها ، إذ لم تتح لي في شبابي أي فرصة لممارسة الكلام أو الاستماع للأحاديث بالعربية . وقد أطريثني كثيرا بما قلته لي عن مؤلفاتي ، وعليّ أن أقر لك بأنني آسف لأنني لم أرحل في شبابي إلى مصر أو الشام ، وبأنني بعيد جدا عن امتلاك معرفة تامة بهذه اللغة الواسعة كالمحيط»^(١).

نستنبط من هذا النص أن دوساسي كان يقرأ النصوص المكتوبة ويفهمها ويترجمها إلى الفرنسية ، إلا أنه لم يكن قادرا على تبادل الحديث بها مشافهة مع محاور من العرب أو غيرهم ، كما أنه غير قادر كذلك على فهم حديث يستمع إليه ، وقد وصفه الشيخ رفاعه الطهطاوي حين كان مع البعثة الدراسية المصرية بباريس بقوله : «وحين يقرأ ينطق كالعجم ، ولا يمكنه أن يتكلم بالعربية إلا إذا كان بيده الكتاب»^(٢).

كان دوساسي قد تزوج سنة ١٧٨٦ ، وانسحب إلى الريف سنة ١٧٩٢ بعد أن قدم استقالته من عمله ، بسبب الاضطرابات الثورية العنيفة التي كانت تجري في باريس ، وأقام في منزل بقرية هادئة تدعى (لابري) La Brie ، وانصرف فيها إلى الراحة ، وانكب على القراءة والتأليف . وكان من ثمار هذه الفترة كتابه : (بحوث حول العاديات الفارسية القديمة) Mémoires sur Les antiquités de La Perse .

(١) انظر : Derenbourg (H.), op.cit., p.22.

(٢) انظر كتابه : «تخليص الإبريز في تلخيص باريز» ، ضمن كتاب : أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي للدكتور محمود فهمي حجازي ص ٢١٨ .

وكان دوساسي، من الناحية السياسية، معارضا للثورة الفرنسية، وكارها تعاليمها وإجراءاتها وأعمالها الفوضوية كما كان يراها من وجهة نظر معاصرة للأحداث، وكان في دخيلته يحن إلى العهد الملكي البائد، ويحتفظ له في قلبه بالمحبة والوفاء، وظل متمسكا بموقفه هذا طيلة حياته، غير مبال بالمناصب والألقاب التي حبت بها حكومة الثورة من جهة وحكومة نابليون الإمبراطورية من جهة أخرى.

وقد اختير المواطن سلفستر دوساسي - بحسب التعبير الثوري آنذاك - عندما أصدرت الجمعية الوطنية الفرنسية، في الثلاثين من آذار سنة ١٧٩٥، مرسوم تأسيس مدرسة اللغات الشرقية الحية، لشغل كرسي اللغة العربية فيها، وأبتدأ فعلا بتدريسها في حزيران من سنة ١٧٩٦. وقد رفض أداء اليمين السياسية التي كانت الحكومة تفرضها على موظفيها، قبل مباشرتهم العمل، ولهذا قرر أن يستقيل من هذا المنصب، وأن يشغله مؤقتا حتى يعثر على بديل له يحل محله في تعليم العربية، غير أن هذا البديل لم يتوفر في هذه الفترة، ثم تغيرت الظروف، فاستمر في منصبه إلى آخر حياته.

كانت العربية، في بداية حياة دوساسي، واحدا من اهتماماته المتنوعة، إلا أنها قفزت فجأة لتحتل المرتبة الأولى والأساسية بين هذه الاهتمامات، حين عين في كرسي العربية المذكور آنفا، فأخذ يجمع جهوده حولها، وراح يعب المعارف المتعلقة بها وبالأدب العربي عبا وينهم شديد استغرق منه أكثر أوقاته وجهوده تقريبا.

ورشح دوساسي، سنة ١٧٩٩، لشغل كرسي اللغة العبرية في المعهد الملكي (كوليج دو فرانس)، غير أنه لم يباشر العمل فيه. وعين، سنة ١٨٠٦، في كرسي اللغة الفارسية في المعهد نفسه، فزاول التدريس فيه إلى سنة وفاته.

وبإمكاننا أن نقول إن التدريس كان محور كل الأنشطة العلمية التي قام بها دوساسي، منذ تعيينه مدرسا للعربية إلى أن حانت وفاته سنة ١٨٣٨، وأنه من هذا التدريس كان ينطلق وإليه كان يعود. ولذا فإننا نكاد نلمس الطابع التعليمي في كل أثر من آثاره التي أنتجها عبر مسيرته العلمية، وبه حقق شهرة واسعة في عالم

الاستشراق عامة والاستعراب خاصة، كما سنرى لاحقا في هذه النبذة الترجمة .

عمل دوساسي، في سنتي ١٧٩٧ و ١٧٩٨، على إملاء دروس في قواعد اللغة العربية على طلابه، فكانت تمهيدا عمليا لتأليف كتابه : (النحو العربي) - La Grammaire maire arabe الذي وقفه على طلاب المدرسة الخاصة باللغات الشرقية الحية بباريس، وقد وقع هذا الكتاب في مجلدين، وظهرت طبعته الأولى سنة ١٨١٠، والثانية سنة ١٨٣١، بعد أن أضاف إليه بحثا في «علم العروض العربية»، وقد وضع لهذا الكتاب عنوانا عربيا على الطريقة السجعية التي كانت متبعة في العصور المتأخرة في تسمية الكتب، وهو : (التحفة السنية في علم العربية)، وقد أطلع على هذا الكتاب القيم، ذي الأثر الكبير في عصره، الشيخ رفاعة الطهطاوي، حين كان في باريس يطلب العلم، وهو الذي أغراه بتأليف كتابه النحوي الذي أسماه تسمية قريبة منه هي : (التحفة المكتبية لتقريب اللغة العربية)، متأثرا بطريقة دوساسي في ترتيبه وتبويبه، وقد صدر سنة ١٨٦٩ في مصر.

وكان دوساسي قد ألف، سنة ١٧٩٩، كتابا بعنوان : (أصول النحو العام الموضوع في متناول الأولاد والمستعملة مدخلا إلى دراسة جميع اللغات) Principes de grammaire générale، وكان للعربية فيه نصيب قليل جدا، وطبع هذا الكتاب مرارا : الطبعة الأولى سنة ١٧٩٩، والرابعة سنة ١٨٢٤ .

وكان كتاب دوساسي في النحو العربي، في الحقيقة، استجابة للمادة الرابعة من مرسوم الجمعية الوطنية القاضي بتأسيس مدرسة اللغات الشرقية، وتنص على ضرورة تأليف أساتذة المدرسة كتباً في نحو اللغات التي يعلمها كل منهم .

ولم يكن نشاط دوساسي مقصورا على هذه الأعمال المذكورة حتى الآن، وإنما صاحبها أو أعقبها بأعمال عديدة في ميادين شتى، فقد نشر، سنة ١٨٠٦، مجموعة مختارات أدبية شهيرة عرفت باسم : Chrestomathie arabe، وقد وضع لها عنوانا مسجوعا هو : (كتاب الأنيس المفيد للطالب المستفيد)، ووقعت في ثلاثة مجلدات، متنا وترجمة فرنسية، وشملت مختارات من آداب العرب وعلومهم المختلفة، وقد أعيد

طبعها سنة ١٨٢٧ ، وهي كما نلاحظ موجهة إلى وسط تعليمي يتمثل في طلاب العربية خصوصا .

ونشر ، سنة ١٨٢٩ ، كتابا يهتم بالقضايا النحوية اختار نصوصه من كتب النحويين العرب القدماء ، وأسماه : (مختارات نحوية عربية) Anthologie gram- maticale arabe .

وكان قد نشر، سنة ١٨١١ ، كتاب : (الإفادة والاعتبار) لمؤلفه عبداللطيف البغدادي ، وهو في وصف مصر، متناوطة معاً ، وقد أفاد من مادته مؤلفو الكتاب المشهور باسم : (وصف مصر) Description de l'Égypte ، الذي تم وضعه بعد العودة من الحملة على مصر.

وترجم إلى الفرنسية ، سنة ١٧٩٩ ، بحثاً متعلقة بالنقود والأوزان والمكاييل الرسمية في الإسلام من كتاب : (الخطط) للمقريري .

وحقق دوساسي نصوص (مقامات الحريري) مقابلة على مخطوطات عدة ، وعاد إلى شروحها العربية المختلفة وجمع منها شرحاً مختاراً لها ، ونشرها متناً فقط بموجب مرسوم إمبراطوري سنة ١٨١٢ ، وتم طبعها بالمطبعة الإمبراطورية ، وكتب لها بالعربية مقدمة مسجوعة أدهشت الطهطاوي ، فنقلها في كتابه : (تخليص الإبريز في تلخيص باريز)^(١) . وكان دوساسي قد اختار في مختاراته (الأنيس المفيد) عدداً من هذه المقامات وترجمها إلى الفرنسية .

ونشر دوساسي ، بحكم اهتماماته بالنحو العربي ، (ألفية ابن مالك) ، متناً وترجمة معاً ، إضافة إلى الشرح والتعليق ، وذلك سنة ١٨٣٤ .

وكان قد نشر من قبل ، بين سنتي ١٨١٦ و ١٨٢٢ ، القصص المنسوجة على ألسن الحيوانات والطيور : (كليلة ودمنة) مع مقدمة تعرف بهذا الأثر الأدبي الذي

(١) انظر نصها في ذلك الكتاب ، ضمن كتاب : أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي للدكتور محمود فهمي حجازي ، ص ٢١٨-٢٢١ .

بات أثرا عالميا بعد أن مر برحلة طويلة من الأدب الهندي إلى الأدب الفارسي ، ومنه إلى الأدب العربي ، وقد فقدت كل الأصول الهندية والفارسية له ، ونقل عن العربية وحدها إلى الآداب العالمية المختلفة . وكانت له آثار واسعة وعميقة في أدب الأطفال على وجه الخصوص .

وقد أدرج جورج سلمون G. Salmon ، في كتابه الذي نشره عن دوساسي ضمن منشورات المعهد الفرنسي بالقاهرة ، في مجلدين سنة ١٩٠٥ ، ثبثا بأعماله بعد إحصائها وحصرها ، فوجدها تبلغ أربعمئة وثلاثين عملا منشورا في حياته ما بين سنتي ١٧٨٣ و ١٨٣٨ ، إضافة إلى أربعة أعمال نشرت بعد وفاته . وتتراوح هذه الأعمال ما بين مؤلفات ، وتحقيقات ، و مترجمات ، واختيارات ، وتلخيصات ، ومقالات . وكان معظم هذه الأعمال يتعلق بالعربية وآدابها والباقي يتعلق بلغات أخرى كالفارسية .

وقد شغل دوساسي مناصب هامة وكثيرة في حياته المديدة بالإضافة إلى ما سبقت الإشارة إليه آنفا ، ولندكر منها مثلا شغله منصب رئاسة جامعة باريس ، في عهد عودة الملكية البوربونيه في فرنسا حتى بداية حكم الأيام المئة النابليونية ، وبعد انتهاء هذه الفترة القصيرة عين في لجنة التعليم العام ، وأصبح مديرا للمعهد فرنسا (كوليج دو فرانس) من سنة ١٨٢٣ إلى سنة وفاته ١٨٣٨ ، كما شغل منصب مدير للمدرسة الخاصة باللغات الشرقية الحية أيضا سنة ١٨٢٤ وبقي فيه إلى سنة وفاته أيضا .

وتم تأسيس (الجمعية الآسيوية) La Société Asiatique ، في باريس ، سنة ١٨٢٢ ، بمبادرة من دوساسي وبالتعاون مع آبل ريموزا A.Rémusat ، لتكون رابطة للمستشرقين الفرنسيين تنظم جهودهم وتنسق فيما بينهم في تعاون تام وتبادل للفائدة ، من أجل تكوين معرفة موحدة شاملة لجميع فروع الاستشراق الموجودة في باريس ، وكانت الدراسات العربية آنذاك من أبرز الدراسات الشرقية في هذه الجمعية عند تأسيسها ، وأخذت فروع أخرى من الاستشراق تزاحمها في هذه الجمعية مع مرور الوقت ، وقد شغل دوساسي منصب رئاسة هذه الجمعية من سنة ١٨٢٢ إلى سنة ١٨٢٩ ، ثم خلفه فيه ريموزا من سنة ١٨٢٩ إلى سنة ١٨٣٢ ، ثم عاد دوساسي إلى

هذا المنصب ثانية من سنة ١٨٣٢ إلى سنة ١٨٣٤ ، ثم استقال منه لأسباب صحية .
ومما يذكر هنا أن هذه الجمعية الباريسية كانت النموذج الذي سرعان ما احتذته دول
أوروبية عديدة لخدمة حركة الاستشراق فيها مثل هذه الخدمة .

وكان دوساسي قد حمل كذلك عبء مسؤولية المطبعة الملكية ، وشغل منصب
أمين المخطوطات الشرقية في المكتبة الملكية (الوطنية اليوم) ، وعمل أمين سر في
أكاديمية النقوش والآداب مدى الحياة ، ومنح عدة ألقاب وأوسمة ، وانتخب
لمختلف الدرجات العلمية في المجمع والجمعيات العلمية في عدد من مدن أوروبا ،
وعمل ممثلاً لمقاطعة السين في الجمعية الوطنية الفرنسية .

وكان ، إلى جانب ذلك كله يشارك في تحرير المجلة الآسيوية - Le Journal
as- itique ، التي أنشئت سنة ١٨٢٢ في الجمعية الآسيوية لتستقطب أنشطة أعضائها
العلمية ، ولا تزال تصدر عنها إلى اليوم ، كما كان يحرر المقالات في عدد من الدوريات
والمجموعات الأخرى في فرنسا .

ولم يكن دوساسي يكن للامبراطور نابليون أي حب ، على الرغم من سعي نابليون
إلى صداقته وتقريبه إياه ومنحه لقب (بارون) ، بل كان من أبرز معارضيه ، وكان من
المنقلبين عليه سنة ١٨١٥ . وكانت عودة الملكية من أمانيه الدائمة ، فلما عادت فعلا
رحب ترحيباً حاراً بها وأبدى حماسة شديدة للملك الجديد لويس الثامن عشر . وكان
نابليون يوجه إلى دوساسي ، كلما لقيه في حدائق التويلري ، سؤالاً أصبح تقليدياً ،
وهو : كيف حال العربية ؟ Comment va l'arabe^(١) .

ويمكن القول ، إجمالاً ، إن دوساسي قد وصل إلى أعلى المراتب العلمية وتبوأ أرفع
المناصب الإدارية ، فحقق لنفسه بذلك مجداً عظيماً ، وربما كان هذا المظهر من نشاطه
العام أحد أسباب شهرته في بلاده وخارجها ، في أوساط العلماء والباحثين من
المستشرقين عامة ، والمستعربين خاصة ، وفي أوساط العلماء أو المحققين العرب
المعاصرين له ، وحتى اليوم أيضاً .

(١) انظر : Derenbourg (H.), op.cit., p. 23 .

كانت حياة دوساسي غنية إذن، وكانت أعماله غزيرة متنوعة، مما جعله شخصية متميزة أصبحت مثالا يحتذى طلبته ومريدوه الذين راحوا يتتبعون آثاره ويسيروا على خطاه: فكانوا يعتنون بالعربية عنايته في مجالات التدريس، والتأليف، والتحقيق، والنشر، وجمع المختارات، والترجمة، وكتابة المقالات. وأهم من هذا كله أنهم كانوا يتبعونه في الروح الخلاقة المبدعة التي تضيف جديدا إلى أعمال الأستاذ ولا تظل أسيرة إنتاجه ولا حبيسة في إطاره. ولعل أعظم أثر لدوساسي المستعرب في طلابه هو أنه غرس في نفوسهم حب تكوين الطلبة والمريدين، فتكون له بذلك تلاميذ لتلاميذه، وتتالت هذه الموجات إلى يومنا هذا، حتى تكونت بذلك صورة فريدة من نوعها لهذا الأستاذ في عالم الاستشراق، لم يحظ بمثلها من بعد غير قلة من المستشرقين إلى اليوم.

كان دوساسي يحترم الشباب الجاد والمبدع ويقدره ويشجعه على الوصول إلى غايته وطموحه، ولذلك كان يقف إلى جانب كل من يشق طريقا جديدة في العلم أو المعرفة، ومن ذلك أنه طلب إلى الملك استحداث كرسي في معهد فرنسا للسكسكريتية لغة البراهمة الهندو الأدبية والدينية المقدسة، ليشغله الشاب الشيط شيزي Chézy، كما دعم أوجين بورنوف Eug. Burnouf مكتشف الفيلولوجيا المقارنة، وشامبوليون Champollion الذي توصل إلى فك رموز الكتابة المصرية القديمة (الهيروغليفية)، وفتح الطريق بذلك لاكتشاف حضارة مصر القديمة العريقة، وأشاد بأعمالهما وباكتشافاتها المهمة.

قال الفرد موري A. Maury فيه: «الفيلولوجيا علم حديث تماما، ودوساسي هو الممثل الأكثر روعة للغات (السامية)، وكان بإمكانه أن يتوصل إلى اكتشاف هذه الفيلولوجيا المقارنة»^(١)

ويقول عنه دوق بروغلي Broglie: «عزم على تأليف الكتب الأكثر ضرورة للتعليم... إذ كان كل شيء ناقصا: الأساتذة، والطلاب، والكتب، والدروس.

(١) انظر op.cit., p.34.

وكانت المدرسة القديمة في الاستشراق تعمل على هواها، إلى أن أسس دوساسي المدرسة الجديدة^(١). وقام هذا التأسيس فعلا على توفير الأدوات الأولية اللازمة للتعليم، وتوفير الطريقة العلمية في هذا التعليم كالملاحظة المتأنية والدقة الصارمة والتفاني في العمل، ذلك لأن دوساسي كان ولوعا بالتعليم وبمهنة الأستاذية، فكان الأستاذ عنده يسيطر على العالم، وكان يتحرى الحقيقة دوما في كل بحثه. وهكذا كان دوساسي فاتحة عصر جديد في تاريخ حركة الاستعراب والدراسات العربية في فرنسا خاصة، وفي أوروبا عامة.

لم تتأثر دروس دوساسي بالاضطرابات التي عاشتها أوروبا إبان الحروب النابليونية وما نجم منها من أحداث سياسية وتغييرات في كل مكان، وظلت هذه الدروس هدفا لأولئك الطلاب الذين صرفوا النظر عن الصراعات بين الشعوب، ليركزوه على الدراسات الشرقية، فكنت ترى حول دوساسي طلابا قدموا من مختلف أنحاء أوروبا لتلقي هذه الدراسات عليه والعودة من ثم إلى بلدانهم وقد نعموا بالخير الوفير من زاد أستاذهم العلمي، ليفيدوا به العلم والوطن. وكانت باريس في عهد دوساسي، بإقرار عام من المستشرقين والمستعربين الأوروبيين، تحتل المكانة الأولى في حركة الاستشراق في أوروبا، ويعود الفضل في ذلك إلى هذا الأستاذ القدير بلا أدنى شك.

كان دوساسي يترجم لطلابه في دروسه من مختاراته العربية (الأنيس المفيد)، وبعض أجزاء من (القرآن الكريم) مع تفسيرات البيضاوي، وكان يدرس كذلك كتاب (حياة تيمور) لابن عربشاه (طبعة مانجيه Manger)، وكتاب (فاكهة الخلفاء) لابن عربشاه أيضا، كما كان يدرسهم كذلك (معلقة لبدي) بشرح الزوزني.

ظهر دوساسي على مسرح الدراسات العربية في أوروبا وهي تعاني من التشتت والضعف وتغط في سبات عميق وتخضع للأمزجة والأهواء وتتعرض للانقطاع فترات من الزمن، لأنها لم تكن تملك مقومات الاستمرارية والثبات. ويعطينا هذا الوصف

(١) انظر: Ibid.

الاجمالي لحالة هذه الدراسات قبل ظهور دوساسي، صورة جليلة لمكانته الرفيعة في بث هذه الدراسات وترسيخ قدمها لا في فرنسا وحدها فقط، بل في أوروبا كلها، فانتقلت الدراسات العربية بذلك من العيش في العراء الذي يعرضها لكل أنواع التقلبات في الأجواء العامة إلى حصن حصين يحميها من هذه التقلبات وينظمها ويضمن لها العيش المطمئن والازدهار.

ففي فرنسا، كان كاردون Cardonne أبرز المستعربين، وهو لم يكن يعنى بتكوين طلاب أو مريدين له يحمّلون عنه علمه ويؤدون رسالته، فإت من غير أن يرث علمه أحد قادر على دفع الدراسات العربية وتعليم العربية إلى الأمام خطوة واحدة، فانتهى ذلك بـ (قتل هذه الدراسات) بحسب تعبير بلاشير.

وفي ألمانيا، مات رايسكه Reiske، قبل عشرين سنة من افتتاح كرسي العربية في باريس سنة ١٧٩٥، وكان هو نفسه يسهم بأعماله في إبعاد الطلاب عن الدراسات العربية أكثر من إسهامه في استقطابهم حولها.

وفي هولندا، توفي شولتنس Schultens من غير أن يخلف مريدين قادرين على مواصلة العمل المجدي في ميدان الدراسات العربية، إذ كان الاعتماد هناك قائما على كتاب النحو الذي وضعه أربينوس Erpenius الذي أعاد تلميذه غوليوس Golius طبعه في القرن السابع عشر، وهو كتاب كثير الثغرات نظرا لقدمه.

إذن لم يكن في الساحة الأوربية، قبيل ظهور دوساسي، أستاذ بارز للعربية، ولم تكن الكتب التعليمية المفيدة متوفرة، ولم يكن هناك منهج واضح في العمل ولا معاجم ولا قواميس ذات بال، ولم تكن هناك استمرارية في الدراسات العربية بل انقطاعات بين الحين والآخر، فجاء دوساسي بجهوده ومثابرته ورسم هذا الواقع المرير وقلبه واقعا جديدا مختلفا كل الاختلاف، فكان عشاق العربية والآداب الشرقية لا يملكون الاستماع لدروسه، والإفادة من روح أستاذهم العلمية، والمواظبة على الأخذ عنه وتقليده حين يصبحون أساتذة في المعاهد العلمية في بلدانهم إثر عودتهم إليها، مع حرصهم على أن يضيفوا إلى كل ذلك إبداعات جديدة خاصة بهم لتكون مسيرتهم

العلمية صحيحة وخطأهم في دروبها سديدة. ولذا فقد عد جمهور المستعربين الأوروبيين دوساسي المؤسس الحقيقي للدراسات العربية في فرنسا خاصة وأوروبا عامة، إذ اقام بناءها على أسس علمية متينة أولها الأساس اللغوي الذي وضعه بكتابه: (النحو العربي)^(١).

وقد مني هذا المستعرب المتميز، سنة ١٨١٩، بوفاة أمه التي كان لها فضل كبير في تربيته الأولى وتكوينه ذلك التكوين الذي أدى به إلى رحاب الاستعراب، ثم أصيب ثانية، سنة ١٨٣٥، بوفاة زوجته التي كان فقدها ضربة قوية تحملها بصبر، وإن زعزعت كيانه، فلحق بها بعد ثلاث سنين فقط، في التاسع والعشرين من شهر شباط سنة ١٨٣٨، بعد حياة مديدة غنية قاربت الثمانين سنة وكانت حافلة بألوان النشاط العلمي والإداري، وبالمجد والشرف وذيبوع الصيت. وقد بلغ من احترام الأوروبيين له أن صدر أمر خاص للجيش التي دخلت فرنسا إثر هزيمة نابليون في معركة واترلو بالمحافظة على ممتلكاته وعدم مسها بأي سوء.

وكان ابنه صمويل - أسطى زاد يحمل كثيرا من صفات أبيه، ولكن في غير ميدان الاستشراق، فكان عضوا في الأكاديمية الفرنسية. وكان لدوساسي حفيد من إحدى بناته، يدعى بافيه دو كورتي Pavet de Courteille، وقد اختط لنفسه الاستعراب سبيلا كمجده.

ومما يدل على مكانة دوساسي المحترمة هذه أيضا ما ذكره المستشرق الفرنسي كارير عنه في النبذة التاريخية التي كتبها عن مدرسة اللغات الشرقية بباريس حين قال: «وشعر الناس، عندما توفي هذا المستشرق الشهير، بأن المدرسة قد دفنت معه، لأن شخصيته كانت مسيطرة عليها»^(٢).

ولكن الحقيقة كانت غير ذلك، لأن دوساسي، وإن ترك فراغا كبيرا بعده، فقد خلف من بين تلاميذه من كان قادرا على القيام بأداء رسالته العلمية في ميدان العربية

(١) انظر وصف حالة الدراسات العربية قبل دوساسي في:

Blachère (R.), L'arabe littéral, in O : 150° de L'E.L.O., paris, 1948, p.47-49.

(٢) انظر: Carrière (A.), op.cit.p.XXIII.

والدراسات العربية، وهؤلاء التلاميذ هم الذين أعادوا للمدرسة حياتها بعد موت الأستاذ ووفروا لها مقومات الاستمرار من غير أن تحدث فيها انتكاسة أو تتعرض لانقطاع، والصولجان الذي سقط من يد الأستاذ توزع بين خلفائه أيضا من كل الأمم الأوروبية. ومن أبرز هؤلاء الخلفاء الذين كانوا تلاميذ مباشرين له داخل فرنسا وخارجها على سبيل المثال:

في فرنسا: رينو Reinaud، وسيديو الأب والابن Sédillot، وغارسان دوتاسي G. de Tassy، وغرانجيه دو لاغرانج G. de Lagrange، وبيلان Belin، وبرينييه Bresnier، ودوسلان De Slane، الخ.

وفي ألمانيا: كوزغارتن Kosegarten، وفلايشر Fleischer، وفولزر Vol-lers، وفلوغل Flügel، الخ.

وفي السويد: هولمبويه Holmboe، وتورنبرغ Tornberg، الخ.
وفي إسبانيا: دي غيانغوس de Gayangos، الخ.

وقد أدى دوساسي بتكوين هؤلاء التلاميذ إلى نشر بذور الدراسات العربية القائمة على أسس علمية راسخة وواضحة في كل أنحاء أوروبا تقريبا، وهذه خدمة جلى أسداها للعربية محمد له بغير جدال.

٢- مورييس غودفروا-ديمومبين (١٨٦٢-١٩٥٧)^(١):

ولد ديمومبين في أميان Amiens سنة ١٨٦٢. وتلقى في شبابه دروسا حقوقية في البداية، مما جعله، فيما بعد، يميل إلى دراسة موضوعات تتعلق بالنظم. وقد انتظم، خلال إقامته في الجزائر التي أصبحت مرتعا خصبا يترعرع فيه المستعربون الفرنسيون ويتكونون بسبب السيطرة الاستعمارية الفرنسية عليها آنذاك، في دروس

(١) استخلصنا هذه النبذة من جملة مصادر أبرزها:

Blachère (R.), L'arabe littéral ... Blachère (R., Maurice Gaudet-Démombynes (1862-1957), in: Journal asiatique, t.CCXXXV, 1957, p.309-311. Massé (H.), Maurice Gaudet-Démombynes (1862-1957), in: Arabica, t.IV, 1957, p.225-229.

كلية الآداب في مدينة الجزائر، وكانت تسمى يومئذ (مدرسة الآداب) حتى سنة ١٩٠٩. وكان لأستاذه في تلك المدرسة، رنيه باسبيه R. Basset، أكبر الأثر في توجيه ميوله وتحديددها، فهو الذي دفعه نهائيا إلى ميدان الاستعراب، فسافر ديمومبين إلى باريس، والتحق بدروس مدرسة اللغات الشرقية الحية فيها وتصلح هناك من العربية، ثم عاد، سنة ١٨٩٥، مرة أخرى إلى الجزائر، ليعمل مديرا للمدرسة تلمسان، وأقام هناك ثلاث سنوات كان لها أثرها في كتاباته التي نشرها، فيما بعد، عن التقاليد والعادات الشعبية، وعاد، سنة ١٨٩٨، إلى باريس ليتسلم منصب أمين مكتبة مدرسة اللغات الشرقية.

وتسلم، سنة ١٩٠٥، دروس تعليم العربية في المدرسة الاستعمارية L'École coloniale التي كانت قد أنشئت سنة ١٨٨٩ لخدمة الشؤون الاستعمارية.

وعين ديمومبين، سنة ١٩٠٨، إثر وفاة هرتويغ ديرنبورغ Hartwig Der-enbourg، في كرسي العربية الفصحى الذي كان يشغله في مدرسة اللغات الشرقية، فكان ترتيبه رابعا بين من تولوا هذا الكرسي منذ إنشائه سنة ١٧٩٥، بعد كل من: دوساسي، ورينو، وديرنبورغ. وقد استمر في هذا المنصب التدريسي إلى سنة ١٩٣٥. وكان قد ترك تعليم العربية في المدرسة الاستعمارية منذ سنة ١٩١٢.

وعين، سنة ١٩٢٣، بعد متابعته أطروحته الدكتوراه في الآداب، محاضرا في كلية الآداب بباريس. ثم انتقل، سنة ١٩٢٧، لشغل منصب مدير الدراسات الإسلامية، في القسم الخامس من مدرسة الدراسات العالية L'École des Hautes Études التي كانت قد أنشئت سنة ١٨٦٨.

وشارك، سنة ١٩٢٩، كلا من وليم مارسيه W. Marçais ولوي ماسينيون L. Massignon، في تأسيس (معهد الدراسات الإسلامية) l'Institut d'Études Islamiques في رحاب جامعة باريس.

وأحيل ديمومبين على التقاعد سنة ١٩٣٥، إلا أن هذه الإحالة لم تكن لتعني انتهاء نشاطه العلمي بأي حال، بل إنها وفرت له وقت الفراغ الكافي لممارسة هذا

النشاط ، وتدل على ذلك آثاره التي سنذكرها عما قليل في هذه النبذة .

وقد تم انتخابه ، لمكانته العلمية ، عضوا في معهد فرنسا l'Institut de France ، وهو معهد يضم النخبة المصفاة من العلماء والكتاب والأدباء والفنانين الأكابر من الفرنسيين في مختلف الميادين^(١)

وقد تحدث هنري ماسيه عن أجواء عمل ديمومبين فقال : «استقبلني ديمومبين يوم وفاته - في الثاني عشر من شهر آب سنة ١٩٥٧ - لبعض الوقت ، في غرفة مكتبه ، وهو يتأمل الأفق المألوف لديه ، وهو وادي نهر السين الهادىء ، وكنت أقول لنفسي أن ظلال هذه الأمكنة هي التي صقلت مواهب أوغست دو بيار كورني Comeille ، قـرب منزل غوستاف فلوبر G. Flaubert ، والنصب التذكاري الذي يشير إلى المكان الذي دفن فيه تابوت الامبراطور العائد من سانت هيلين^(٢) ، وكان منطقيا أن يخصص رجل ذو ثقافة رفيعة ، ومستشرق كبير ، الجوانب الأخيرة من مواهبه ومعرفته ، لمؤسس واحدة من الثورات الحاسمة في التاريخ^(٣)»^(٤).

كان ديمومبين يتمتع بمزايا عقلية فريدة : كإيانه الشديد بالواجب ، وفطنته

(١) وهو يشتمل على خمس أكاديميات هي :

- ١ - أكاديمية النقوش والآداب : وكان الوزير كولبير قد أنشأها سنة ١٦٦٣ لإنجاز النقوش على المباني والآثار الملكية ، واهتمت كذلك بالمعارف التاريخية والأثرية وبيء من الآداب .
- ٢ - أكاديمية العلوم .
- ٣ - الأكاديمية الفرنسية : وكان الكاردينال ريشليو قد أنشأها سنة ١٦٣٥ (من أربعين عضوا) لإنشاء معجم للغة الفرنسية .
- ٤ - أكاديمية الفنون الجميلة : وتضم التصوير ، والنحت ، والحفر ، والموسيقى ، وكانت قد أنشئت سنة ١٧٩٥ بعد الثورة .
- ٥ - أكاديمية العلوم والأخلاق السياسية : وقد أنشأتها الثورة سنة ١٧٩٥ أيضا للاهتمام بدراسة مسائل الفلسفة والقانون وعلم الاجتماع والاقتصاد السياسي ، والتاريخ .
- (٢) والمقصود به نابليون بونابرت الذي عاش بين سنتي ١٧٦٩ و ١٨٢١ .
- (٣) ويقصد به النبي الكريم محمد (ص) . وقد وصف ماسيه كتاب ديمومبين عن حياة النبي ودعوته بأنه عمل ضخم ونموذج لترجمة الحياة وعرض الدعوة ثم خلاص إلى القول إنه يشكل «فخرا للاستشراق الفرنسي» . انظر . Massé (H.), op.cit., P.229 .
- (٤) انظر : Ibid .

الإدارية، وإنصافه في التعليم، ومزجه حبه التعليم بولعه بالبحث العلمي، ودقته في العمل، والحماسة للاطلاع، ومعرفته كيف يبين للناشيء المبتدئ الطريق التي ينبغي له أن يسلكها، وتعلقه بتلاميذه ودعمهم في أعمارهم، وكانت بساطته تجلب له ودهم، وكان ديموميين كذلك متشككا في كل جزئية من جزئيات بحوثه حتى يثبت له وجه الصواب فيها، وكان يصغي لأحاديث الآخرين وآرائهم ثم ينطلق في تساؤلاته، ويظهر اعتراضاته، ويبدى شكوكه. وهو لم يكن يخشى الوقوف أحيانا عند نقطة من النقاط ليقول بصراحة: «هذا غير واضح لي»، ليغلق بهذه العبارة باب الجدل في مسألة من المسائل التي تعرض عليه أو التي تعرض له. وكان من مزاياه أيضا أنه يعد الاستنتاج في البحث من أصعب المهام وأخطرها، لأنه كان يفضل دائما إبقاء هامش يمكنه من تصحيح نتائج غير الحتمية وغير النهائية باستمرار، كلما بدت له وجهة نظر جديدة من الصواب كان غافلا عنها أو كانت غائبة عنه. وهذه جميعا بلا شك هي صفات العالم والباحث والأستاذ المعلم الذي يظل متواضعا وإنسانا عاديا مهما علت به درجات العلم ومهما حاز من شهرة وصيت.

ولم يكن ديموميين، مع هذا كله، يفصل بين ذوقه باحثا والتزاماته أستاذا، بمعنى أنه كان يسخر بحثه لتعليمه وعلمه في وقت واحد، لأن الميدانين متداخلان في شخصيته.

وقد حقق كل ذلك لهذا المستعرب الجاد الدؤوب مجدا عريضا وسمعة طيبة في الأوساط العلمية التي كان يعمل فيها ويشتمى إليها.

وقد كان إنتاجه العلمي غزيرا، وواسعا، وخصبا، تدلنا عليه قائمة أعماله الطويلة التي نشرت في المنوعات التكرمية les Mélanges التي نشرت له في القاهرة ما بين سنتي ١٩٣٥ و ١٩٤٥، وكذلك القائمة الملحقة بها والتي أعدتها جانين سوردل - تومين J. Sourdel-Thomine، وأثبتتها في آخر مقالة هنري باسيه التي اعتمدناها في كتابة هذه النبذة، وهذه القوائم كلها تبين لنا توزيع اهتمامات ديموميين بين تأليف الكتب والترجمات والمقالات.

كانت الموضوعات التي طرقها ديموميين متنوعة، وبدأت ببعض الأعمال التي

يستشف منها الميل إلى الدراسات الفولكلورية، والانتوغرافية، واللهجية التي تتعلق ببلدان المغرب العربي، ولاسيما الجزائر التي عايش شعبها وتعرف عاداته وتقاليده عن كثب، ودرس أخلاقه الوطنية والقومية، وتمرس بلهجته العربية العامة. وقد تمخضت ملاحظاته ومشاهداته كلها عن كتب أربعة، هي:

١ - حكاية باللهجة التلمسانية Récit en dialecte tlémécénien : بالتعاون مع عبدالعزيز زناغي Zenagui سنة ١٩٠٤ .

٢ - مختصر العربية المراكشية Manuel d'arabe marocain : نشره سنة ١٩١٣ بالتعاون مع لوي مرسيه L. Mercier، فكانت له أهمية كبيرة في دراسة اللهجة العربية في مراكش .

٣ - مراسم الزواج عند أهل الجزائر Les Cérémonies du mariage chez les indigènes de L'A lgerie : نشره سنة ١٩٠٠، وقد درس فيه مراحل الزواج وتقاليده، وعاداته دراسة منهجية في مناطق جزائرية هي: تلمسان، وقسنطينة، والقبائل، مع بعض المقارنات بالعادات المتبعة في مثل هذه المناسبة في بعض البلدان العربية الأخرى. وقد كتب، في مقدمة هذه الدراسة، يقول: «ليس هذا العمل غير إسهامة في التقصي الذي يجب القيام به يوما ما حول أخلاق أهل المغرب وعاداتهم، إذ يصبح ممكنا أن نستخلص النتائج من دراسة إجمالية، ويمكننا أن نعرف، من خلال دراستنا العادات المغربية، العادات البشرية العامة في المغرب، والعادات المستمدة من الإسلام، والعادات التي تنتمي عموما إلى السكان (الساميين) كافة، وتلك التي تعد عادات مغربية محضة»^(١).

٤ - ترجمة قصص (مئة ليلة وليلة): وقد ترجمها ترجمة دقيقة وساحرة، وأضاف إليها تعليقات غنية عن أصول هذه القصص الشعبية، وقد نشرها سنة ١٩١١ .

ودخل ديمومبين كذلك ميدان الدراسات التاريخية، فأعطى بعض الأثر فيه،

(١) انظر : op.cit., p.226.

وكان أولها ترجمته لكتاب: (تاريخ بني الأحمر أو آخر ملوك غرناطة)، نقلا عن (تاريخ ابن خلدون)، وقد نشرها سنة ١٨٩٨. وكان الثاني بحثه: (بلاد الشام في عهد المماليك بحسب المؤلفين العرب La Syrie a l'époque des Mamelouks d'après les auteurs arabes)، وقد تناول فيه بالدراسة التنظيم الذي قام به المماليك في الشام من الناحيتين السياسية والإدارية: فدرس علاقة السلطان بالخليفة العباسي الشكلي، وعلاقته بالجيش، وأحوال الوظائف الإدارية والموظفين. وأما أثره التاريخي الثالث فهو: (العالم الإسلامي والبيزنطيون حتى الحروب الصليبية) le monde musulman et byzantins jusqu'aux Croisades، الذي نشره سنة ١٩٢٣، وقد تناول في هذه الدراسة أربعة قرون من التاريخ الإسلامي راصدا علاقاته الخارجية بالدولة المجاورة له في الشمال والشمال الغربي، أي: الدولة البيزنطية. وتحدث على التوالي عن: جزيرة العرب الوثنية في الجاهلية، والدعوة الإسلامية فيها، وتنظيم الخلافة الأموية في دمشق. ثم تحدث عن الدولة الإسلامية وتنظيمها الإداري. وقد تميز هذا العمل بتحليله لكل من الحياة السياسية، والحياة الإقتصادية، والحياة الإدارية. كما وردت في كتابه هذا صفحات ممتازة عن الأدب العربي، مما جعل دراسته أقرب إلى الدراسة التاريخية الحضارية منها إلى دراسة الحوادث السياسية والحربية وحدها.

وطرق ديمومبين كذلك باب النظم الحضارية في الإسلام بكتابه القيم: (النظم الإسلامية)^(١) les institutions musulmanes، فعرّف بجوانب مختلفة من هذه النظم، وتناول في طرف من دراسته هذه بالحديث الأدب العربي.

وأسهّم في ميدان الأدب الجغرافي والرحلات بترجمة كتاب: (مسالك الأمصار) للعمري المصري سنة ١٩٢٧، وقد أغناها بتعليقات كثيرة وذيلها باقتباسات من الكتاب العرب الآخرين، وكتب لها مقدمة مستفيضة درس فيها التنظيمات السياسية والعسكرية في بلدان شمال أفريقيا. ثم نشر، سنة ١٩٥٣، ترجمة: (رحلة ابن جبير) من القرن الثاني عشر للميلاد، فكانت لها فائدة كبيرة للقراء الفرنسيين.

(١) وقد ترجمه بالعنوان نفسه كل من صالح الشعاع وفصيل السامر ببغداد سنة ١٩٥٢.

وكانت له ، في مجال النقد الأدبي العربي القديم ، إسهامة هامة بنشره مقدمة كتاب (الشعر والشعراء) لابن قتيبة متنا وترجمة مع التعليق عليها سنة ١٩٤٧ ، فساعد بذلك في تعرف الفرنسيين هذا الجانب من النشاط الأدبي عند العرب بما يروى الغليل ، لأن أحدا من المستعربين الفرنسيين قبله لم يقتحم ميدان النقد الأدبي العربي ، وربما كان الحذر من اقتحامه ناتجا عن ضعف قدرتهم على فهم الشعر العربي وتذوق معانيه واستساغة صوره ، وأدى بهم ذلك إلى العجز عن إصدار الإحكام عليه أو تقويمه في دراسة نقدية منهجية خاصة به ، مما جعلهم ميالين في الغالب إلى التأريخ الأدبي وتراجم الشعراء ، ذلك لأن روح الشعر تظل متصلة بروح الشعب الذي ينتجه ، وهي تظل بالتالي عصية الفهم من الخارج ، ولابد لإزالة عقبة هذا التواصل من الدخول في رحابه من الداخل حتما ، ومن المسلم به أن الروحية العامة تختلف من شعب إلى آخر ، بسبب الاختلاف في طريقة التفكير ، والتصور ، والبيئة ، والأخلاق ، والمثل ، والقيم ، والعادات والتقاليد التي تكونت عبر أجيال طويلة من تاريخ هذا الشعب أو ذاك .

وأصدر ديمومبين ، سنة ١٩٣٧ ، بالتعاون مع بلاشير ، كتاب : (نحو العربية الفصحى) Grammaire de L'arabe classique ، وكان ثمرة الأفكار والملاحظات والجهود التي بذلها ديمومبين في سنوات تدريسه اللغة العربية في مدرسة اللغات الشرقية الحية ، حيث كان يطبق المناهج الحديثة في علم اللغة على دراسته العربية وعلى تدريسيها ، مخالفا بذلك طريقتي دوساسي وديرنورغ اللذين كانا يعتمدان ، في تدريسيهما النحو العربي ، على مناهج النحويين العرب ، مع استغلالهما أحيانا بعض المقارنات باللغات التي تسمى (الساميات) . وقد كان دوساسي ، مثلا ، يحاول التوفيق في كتابه (النحو العربي) بين مقولات النحو الفرنسي في نحو بور رويال Port-Royal ومناهج النحويين العرب . وقد قدمت طريقة ديمومبين هذه فوائد كثيرة لتدريسه ، فلم تعد العربية تظهر لطلابه محكومة - بحسب زعمه - بقواعد مقدسة دقيقة وغامضة ، فازداد بذلك وضوحها ، وخصوصا أنه كان يستغل أحيانا بعض الوقائع المتعلقة باللهجات العربية العامية الحديثة التي اهتم بها في مطلع حياته

العلمية من أجل مقارنتها بوقائع العربية الفصحى القديمة، مما أدى به إلى إدخال الوضوح والبساطة على علم كان يعده صعبا ومعقدا في ذلك الحين. وقد كان ديموميين يؤمن بالمبدأ الذي يرى أن دراسة اللغة تكون مفيدة بقدر ما تقدم من معرفة بالحضارة التي تعد هذه اللغة وسيلة التعبير عنها، وهكذا فإن التعمق في اللغة كان عنده وسيلة دائما لا غاية لذاته.

وتناول ديموميين ركنا هاما من أركان الإسلام، وهو الحج، في كتابه: (الحج إلى مكة) *le pèlerinage à la Mekke*، سنة ١٩٢٣، وقد بحث فيه الطابع الديني لهذا الركن الإسلامي، وقد استند في وصفه الدقيق للأماكن المقدسة على ما كتبه عنها الكتاب الشريون والغريون من القدماء والمحدثين، وتطرق إلى دراسة الشعائر التي يقوم بها المسلمون في الحج من الإحرام إلى الإحلال. وقد توصل في نهاية دراسته هذه إلى نتيجة تقول: «إن أساس شعائر الحج جاهلي - كما يتضح - لم تحصل فيه إلا تغييرات في التفاصيل والترتيب والابتداء»^(١)

وكان ديموميين يطمح دوما، في ميدان السيرة، إلى تأليف كتاب عن حياة الرسول ﷺ وعن الإسلام، وقد استطاع أن ينجز هذا العمل العظيم قبيل وفاته، وقد أهله للقيام بهذه المهمة تدريسه القرآن وتفسيره أمام تلاميذه لسنوات طويلة، وقراءته كتب السيرة النبوية التي كتبها العرب أنفسهم، وتفحصه النصوص العربية الإسلامية في كل ميدان، واستعداده لتفهم التجارب الدينية وتعمقه في الموضوع، وانسحابه إلى بلدة هادئة في ضواحي روان Rouen تدعى (هوت - سور - سين) Haute-sur-Seine، حيث كان يخلو في غرفة بحثه، ويعمل بجهد وصمت، إلى أن انتهى من العمل الذي جاء فخرا للاستشراق الفرنسي عامة، وللاستعراب منه خاصة، وقد صدر بعنوان: (محمد) Mahomet، في باريس سنة ١٩٥٧.

(١) ينبغي أن ننبه هنا إلى مُسَلِّمة هامة يبدو إن ديموميين تجاهلها هي أن الإسلام كان قد ألغى نظما شتى من الجاهلية إلغاء تاما، وأبقى نظما أخرى على قلتها، كما أنه هذب أو طور نظما أخرى كثيرة، كما أتى بنظم لم تكن من قبل قط، وهكذا ينبغي أن يفهم استنتاج ديموميين من دراسته، لا كما يمكن أن يكون قد وظفه على طريقة بعض المستشرقين في الطعن في الإسلام بتصويره مستمدا عناصر عقيدته من أديان ونظم وشعائر وأفكار كانت قبله فجمعها في إطار واحد، انظر تلك النتيجة في: Massé (H.), op.cit., p.227.

لم تكن هذه الآثار المكتوبة تشكل وحدها أعمال ديموميين ، إذ نجد له عددا كبيرا من الإسهامات الأخرى في الصحف والدوريات الاستشرافية تتناول جوانب مختلفة من هذه الميادين التي طرقتها طوال حياته العلمية الزاخرة بالنشاط والجهد المتواصلين إلى آخر لحظة من لحظات حياته .

وخلف لنا ديموميين ، إلى جانب ذلك ، طبقة ممتازة من التلاميذ والمريدين الذين ظهروا في ميدان الاستشراق أو الاستعراب ، وذاع صيتهم فيه ، وقدموا فيه عطاء يعد من المرتبة الأولى ، فكان كل تلميذ من تلاميذ ديموميين - بهذا المعيار - أثرا حيا من آثاره . ويكفي أن نستعرض من هؤلاء على سبيل المثال : هنري ماسيه H. Massé ولوي ماسينيون L. Massignon ، وغاستون فييت G. Wiet ، وروبير برونشفيغ R. Brunschvig ، وكلود كاهن Cl. Cahen ، وهنري لاوست H. Laoust ، ولوي مرسيه L. Mercier ، وجان سوفاجيه J. Sauvaget ، وجان كانتينو J. Cantineau .

٣ - غاستون فييت (١٨٨٧ - ١٩٧١) (١) :

ولد غاستون فييت Gaston Wiet في باريس في الثامن عشر من شهر كانون الأول من سنة ١٨٨٧ ، وهو ينتمي إلى أصول إنكليزية قدمت إلى فرنسا في أواخر القرن السابع عشر . أنهى دراسته الثانوية في المعهد الحر بمقاطعة يون Yonne الفرنسية . وانتظم ، سنة ١٩٠٥ ، في دروس مدرسة اللغات الشرقية الحية التي كان بارييه دو مينار B. de Meynard ، عالم الإسلاميات والتركيات ، يديرها . وقد تابع فييت الشاب دروس كليان هوار Cl. Huart بالفارسية . وكان يتعلم العربية والتركية أيضا ، كما كان يتابع دروسا في الجغرافيا ، والتشريع ، والتاريخ المتعلق بالدول الإسلامية التي كان بول رافيس P. Ravisse ، المختص بمصر في العصر الوسيط ، يلقيها . وكان فييت يتابع ، إلى جانب دروس مدرسة اللغات الشرقية هذه ، دروسه في الحقوق .

(١) اعتمدنا في كتابه أكثر ما ورد في هذه النبهة على المعلومات الواردة في :

Élisséeff (N.) Gaston Wiet (1887-1971), in: Journal asiatique, t.CCL X, 1972, p.1-9.

وحصل، سنة ١٩٠٨، على ليسانس الحقوق، ونال معه دبلوم مدرسة اللغات الشرقية الحية في اللغة العربية الفصحى والعامة، وفي التركية والفارسية أيضا. ثم قرر مدير المدرسة آنذاك، بول بوير P. Boyer، إرساله إلى المعهد الفرنسي للآثار الشرقية في القاهرة مبعوثا، فبقي هناك من أوائل سنة ١٩٠٩ إلى أواخر سنة ١٩١١، وكان من جملة رفاقه في المعهد لوي ماسينيون، وقد التقى، خلال وجوده في القاهرة، المستشرق السويسري ماكس فان برشيم Max Van Berchem، الذي أطلعته على علم النقوش العربية L'épigraphie وحببه إليه، فتعلق به طوال حياته، وأنتج فيه أعمالا كثيرة سنذكرها في مواضعها من هذه النبذة.

صادق فييت هنري ماسيه، وتلمذ خارج مدرسة اللغات الشرقية على رنيه باسيه R. Basset، وعلى رنيه دوسو R. Dussaud، عالم الآثار المهتم ببلاد الشام، وعلى ديمومين ووليم مارسيه أيضا.

وقد أعد فييت، خلال إقامته في مصر، كتاب (الخطوط والآثار) للنشر، وهو من تأليف المقرئزي، ويعود إلى القرن الخامس عشر الميلادي، ويتناول جغرافية مصر وتاريخها. وقد نشر المجلدين الأول والثاني في سنتي ١٩١١ و١٩١٤، ثم نشر المجلدين الثالث والرابع في سنتي ١٩٢٢ و١٩٢٤، ونشر المجلد الخامس في سنة ١٩٢٨.

وقد أسهم ظهور المجلد الأول من خطط المقرئزي في اختيار ناشره الشاب فييت للمنصب الذي استحدث سنة ١٩١١، وهو منصب محاضر باللغتين العربية والتركية في كلية الآداب بمدينة ليون Lyon، ولكنه اقتصر، عند مباشرته التدريس، على محاضرات اللغة العربية وحدها دون التركية.

واستدعى الأمير فؤاد، رئيس الجامعة المصرية بالقاهرة، في أواخر سنة ١٩١٢، غاستون فييت لالقاء محاضرات باللغة العربية عن الأدب العربي في كلية الآداب من تلك الجامعة، فباشرفييت العمل في ذلك الحين واستمر فيه إلى آخر نيسان من سنة ١٩١٣، وكان الشيخ مصطفى عبدالرازق، الذي أصبح فيما بعد شيخ الجامع

الأزهر، يقوم مقام فييت في ذلك العام الدراسي في كلية الآداب بليون .

وعاد فييت إلى ليون في العام الجامعي ١٩١٣ - ١٩١٤ ، وهناك قامت صداقة بينه وبين زميليه : بول هازار P. Hazard ، وهو أكبر منه بتسع سنوات ، وكان مكلفا بمحاضرات في الأدب الحديث المقارن . وهنري فوسيون H. Focillon ، وهو أكبر منه بست سنوات ، وكان أستاذا لتاريخ الفن ، وكان له تأثير كبير في فييت المستشرق الشاب ، إذ أيقظ في نفسه الإحساس بالفن وتذوق الآثار القديمة ، فأنجبه فيما بعد إلى دراسة الفنون والآثار الإسلامية ، وأعطى فيها بعض الآثار التي ستحدث عنها في هذا السياق .

والتحق فييت ، عندما ثارت رياح الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ ، بفيلق للمشاة برتبة ملازم . وقد منحه فيلقه هذا ، خلال معاركه ، ثناء وصلبيا حريبا ونجمة برونزية ، تقديرا لشجاعته فيها ، كما منحه أيضا مدلاة ذهبية في حملة الصرب سنة ١٩١٥ . ورفع في آخر السنة المذكورة إلى رتبة ملازم أول . وأصيب في أواخر سنة ١٩١٦ بالبرداء ، وظل مريضا إلى نيسان من سنة ١٩١٧ ، فأبعد عن جبهة القتال ، وعين في وظيفة ضابط مترجم حتى أيلول من سنة ١٩١٨ . والتحق ، في هذا التاريخ ، بالمفوضية العليا للجمهورية الفرنسية في سورية ، فالتقى فيها برفيقه القديم في المعهد الفرنسي بالقاهرة لوي ماسينيون ، وشارك في بعثة جورج بيكو G. Picot في المباحثات التي أجرتها مع الإنكليز والزعماء العرب . ورفع فييت ، في تشرين الأول من سنة ١٩١٨ ، إلى رتبة نقيب وهو في بيروت . ثم سرح أخيرا في الثالث من شهر تموز من سنة ١٩١٩ ، بعد خدمة في الجيش الفرنسي دامت خمس سنوات تقريبا خلال الحرب العالمية الأولى .

وعاد فييت في اليوم التالي لتسريحه إلى وظيفته المدنية في كلية الآداب بجامعة ليون ، وتسلم تعليم العربية في بداية العام الجامعي التالي ١٩١٩ - ١٩٢٠ ، واستمر في منصبه هذا إلى سنة ١٩٢٦ ، وكان من بين طلابه سنة ١٩٢٠ المستعرب الفرنسي ماريوس كنار M. Canard الذي كان يتمرن على العربية ويعمل تحت إشرافه ، وهذا

التلميذ الشاب هو الذي أصبح بعد عدة سنوات واحدا من أفضل المختصين بتاريخ العرب فيما يعرف عند الغربيين بالعصر الوسيط .

وأما عن برنامج محاضرات فييت في العام الجامعي ١٩١٩ - ١٩٢٠ ، على سبيل المثال ، فقد كان يشمل : القرآن الكريم (الأجزاء ١٢ ، و ١٤ ، و ١٩) ، وديوان طرفة (طبعة سيلغسون Seligson) ، وديوان عامر بن الطفيل (طبعة ليال Lyall) . ومروج الذهب للمسعودي (طبعة بارييه دومينار ، المجلد الخامس ، ص ١٤ - ١٦٨) ، وكتاب الأغاني (طبعة بيروت ، الجزء الأول ، ص ٣٤ - ١٨٨) .

وقد تمكن فييت ، بمنشوراته المختلفة ، من نيل شهرة طيبة في الأوساط العلمية والثقافية أهلته لأن يعين عضوا مراسلا في أكاديمية النقوش والآداب منذ سنة ١٩٢٥ ، ومن أبرز هذه المنشورات : خطط المقرئ التي مرت بنا من قبل ، وكتابه : (مواد المدونة النقوش العربية) Matériaux pour un Corpus Inscriptonum Arabicarum وتناول منها بنفسه قسم سورية الجنوبية والقدس ، وكان أستاذه برشيم السويسري قد بدأ بها من قبل ، وكان فييت قد بدأ بطباعة هذه المدونة سنة ١٩٢٢ .

ودعاه الملك فؤاد ، سنة ١٩٢٦ ، وهو الذي عرفه منذ مدة طويلة ، ليكون مديرا لمتحف الفن العربي في القاهرة ، فوضعت وزارة الشؤون الخارجية الفرنسية تحت تصرف الحكومة المصرية في بعثة استمرت حتى سنة ١٩٥١ ، وقد أتاحت له هذه الوظيفة الجديدة أن يتابع بحوثه ويتخصص بدراسة فنون البلاد الإسلامية . وقد انتخب أثناء ذلك عضوا في لجنة المحافظة على الآثار العربية إلى جانب عالم الآثار البريطاني المعروف بمنشوراته ذائعة الصيت في العالم عن الآثار الإسلامية كريزول Creswell .

ووضع فييت ، خلال عمله المذكور ، الفهرس العام للمتحف العربي le Catalogue général du Musée arabe ، مفتتحا بذلك سلسلة من المجلدات التي درس فيها المصابيح ، وقوارير الزجاج المزخرف ، والمتحف النحاسية مع إعطاء صور لكل منها .

وعين فييت ، سنة ١٩٣٠ ، أستاذا لكرسي جغرافية البلدان الإسلامية وتاريخها

وأنظمتها، في مدرسة اللغات الشرقية الحية بباريس، مع احتفاظه في الوقت نفسه بوظيفته في مصر، غير أنه استبدل به آخرون بعد ذلك في تلك المدرسة.

وبدا فييت، سنة ١٩٣١، بنشر الفهرس التاريخي لعلم النقوش العربية Ré- Et. Combe وجان سوفاجيه J. Sauvaget. وقد وصلت سلسلة هذا الفهرس سنة ١٩٥٨ إلى المجلد الثالث عشر.

ونشر فييت، سنة ١٩٣٣، مجلدا هاما عن الفن الإسلامي الذي ظهر في المعرض الذي أقيم في لندن سنة ١٩٣١ للفن الفارسي. وأصدر بعد ذلك مجلدا عن (مساجد القاهرة) les Mosquées du Caire، بالتعاون مع لوي هوتكور L. Hautecour.

ونظم فييت، في كانون الثاني من سنة ١٩٣٥، معرضا للفن الفارسي بالقاهرة، فأدى به ذلك إلى الاهتمام بالأنسجة والبسط والسجاد، وقد أقيم في باريس، في أواخر السنة نفسها، معرض لأنسجة المتحف العربي وبسطه وسجاجيده من العصور الإسلامية المختلفة، وقام فييت بوضع فهرس له.

ودعت مدرسة اللوفر l'École du Louvre فييت، بصفته أستاذا لتاريخ الفنون الإسلامية، لإلقاء محاضرات في هذا الموضوع استمرت من سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٣٨، مع احتفاظه أيضا بعمله في القاهرة.

ونشر فييت، سنة ١٩٣٣، في سلسلة تاريخ (الأمة) المصرية، التي تنشر بالفرنسية، المجلد الثاني فيها بعنوان: (موجز تاريخ مصر) Précis d'histoire de l'Égypte. ثم نشر، سنة ١٩٣٨، المجلد الرابع في هذه السلسلة، وكان يتناول فيه تاريخ مصر الإسلامية. وكان هذان العملان مخصصين للجمهور الواسع.

وقد شارك، فيما بعد، في المجلدين الثاني والثالث من (التاريخ العام في موسوعة البلياد) l'histoire universelle de l'Encyclopédie de la Pléiade. كما شارك كذلك في المجلد الثالث من (تاريخ الإنسانية) Histoire de l'humanité من سنة

٤٠٠ إلى سنة ١٣٠٠ للميلاد، وقامت بنشره منظمة (اليونسكو) التابعة لهيئة الأمم المتحدة.

وترجم فييت كتاب (البلدان) لليعقوبي، ونشره في المعهد الفرنسي بالقاهرة سنة ١٩٣٧. كما ترجم كذلك كتاب (الاعلاق النفيسة) لابن رسته سنة ١٩٥٥، مع التعليق عليه. ونشر أيضا (مختصر الإدريسي) متنا وترجمة.

وبدأ فييت، عندما نشبت الحرب العالمية الثانية، بإنجاز سلسلة ترجمات كان القصد منها تعريف الجمهور الفرنسي بالكتاب المصريين المحدثين، وكان ينشرها في: «مجلة القاهرة» Revue du Caire، التي قام بتأسيسها سنة ١٩٣٨، فظهرت ترجمته لكتاب (يوميات نائب في الأرياف) لتوفيق الحكيم، ثم ترجمته لكتاب (الأيام) لطفه حسين، ثم مجموعة (بنت الشيطان) القصصية لمحمود تيمور، وغيرها. وذلك لأن فييت بقي مقيما في القاهرة طوال فترة الحرب، فشغل نفسه خلالها بهذا الميدان الميسر له بحكم عيشه في الوسط المصري الذي ينقل شيئا من أدبه إلى لغته الفرنسية بغية إطلاع جمهور المثقفين والقراء على هذا الأدب.

وقد استجاب فييت، سنة ١٩٤٠، لنداء الجنرال ديغول، خلال الحرب العالمية، وأصبح نائب رئيس لجنة فرنسا الحرة في مصر، ثم أسهم في تأسيس لجنتي فرنسا الحرة في كل من اليونان وتركيا. ونشر في «مجلة القاهرة» سلسلة من المقالات السياسية جمعها في مجلد بعنوان: (أوضاع) Positions. وألف كتابا بعنوان (صفحة من التاريخ) Une page d'Histoire. واستمر فييت في جهوده العلمية، على الرغم من ظروف الحرب، فنشر سنة ١٩٤٣ فهرسا محققا للمنمنمات الفارسية والتركية والهندية من مجموعة شريف صبري باشا. ونشر كذلك بعض الوثائق المتعلقة بالحملة الفرنسية على مصر، وبعض الوثائق المتعلقة بمحمد علي باشا.

وقد عين فييت مكان جان سوفاجيه، في العام التالي لوفاته سنة ١٩٥٠، في كرسي اللغة العربية وآدابها الذي كان يدعى كرسي «تاريخ العالم العربي» في عهد سوفاجيه، في معهد فرنسا (كوليج دو فرانس). وقد ظل فييت يشغل هذا الكرسي

إلى سنة ١٩٦٠ ، ثم تحول إلى أستاذ فخري له . وكانت محاضراته في معهد فرنسا تعتمد على نقوش مكة والمدينة وأسواق القاهرة ، وعلى دراسة الشام ومصر عند ابن حوقل ، وعلى الاحتلال العثماني لمصر بحسب ما يذكره ابن أبياس ، وأتاحت له المحاضرة عن العثمانيين الفرصة لنشر كتاب : (يوميات برجوازي من القاهرة) لابن أبياس^(١) ، مع ترجمته والتعليق عليه ، في مجلدين . كما نشر مجلدا عن (تاريخ سلاطين المماليك) .

واستمر فييت ، بعد إحالته على التقاعد ، في نشاطه العلمي ، فشارك في كتابة بعض مواد «الموسوعة الإسلامية» E.I. ، ومواد «الموسوعة الشاملة» l'Encyclopédia Universalis . ونشر ، سنة ١٩٦٦ ، في مجموعات منظمة (اليونسكو) كتابا هامكا بعنوان : (مدخل إلى الأدب العربي) Introduction à la Littérature arabe تناول فيه دراسة الأدب العربي على أساس المعرفة الكاملة للثقافة باللغة العربية ، وهو قائم على مفهوم كلمة (الأدب) بمعناها الواسع الذي كان يراه العلماء العرب القدماء ، في العصور العباسية ، وهو «الأخذ من كل علم بطرف» ، وكان صاحب هذه الثقافة الشمولية يدعى (أديبا) ، وهو يعرف في أيامنا بـ(المثقف) ، في حين أن المختص بعلم واحد والمتعمق فيه كان يدعى في الماضي وفي الحاضر على حد سواء (عالما) ، فجاء هذا الكتاب شاملا ومركزا في آن واحد .

ونشر فييت ، في مجموعات جامعة أوكلاهوما Oklahoma ، في الولايات المتحدة ، مجلدا بعنوان : (القاهرة مدينة الفن والآثار) . ونشر سنة ١٩٦١ مجموعة نصوص تحت عنوان : (عظمة الإسلام من محمد «صلى الله عليه وسلم» إلى فرانسوا الأول) la Grandeur de l'Islam de Mahomet à François 1^{er} .

ولا يغيب عن بالنا أن نذكر بمشاركته كذلك في كتابة المقالات والبيانات في

(١) ربما كان فييت يعني بهذا العنوان كتاب ابن أبياس المسجوع الذي لايبين صراحة عن مضمونه وهو (بدائع الزهور في وقائع الدهور) وهو يتناول فيه تاريخ مصر من أقدم العصور إلى ما بعد دخول العثمانيين إليها .

المجلات والدوريات الاستعرابية والاستشراقية المختلفة، من أمثال مجلة «سورية» Syria، و«المجلة الآسيوية»، وغيرهما. وكان قد انتخب سنة ١٩٥٧ عضواً في أكاديمية النقوش والآداب.

تلك هي خلاصة حياة غاستون فييت وأعماله والمناصب الإدارية التي تولاهها، ويبدو لنا فيها هذا التنوع الخصب الذي كان يدور على وجه الإجمال حول مصر والإسلام والفنون والآثار التابعة لها أو النابعة منها، إضافة إلى الجوانب التاريخية والجغرافية والأدبية المتعلقة بالعرب والإسلام. وكانت جهوده في ذلك كله منصبه على التأليف أو التحقيق أو الترجمة أو النشر، وما يتصل بكل ذلك من فهرسة وتحليل وتعليق. ويضاف إلى ذلك أيضاً أنه كان عضواً في جمعيات علمية كثيرة. وقد خدم وطنه في ساحات الحرب وفي ميادين الترجمة العسكرية والسياسية والمفاوضات.

وقد كان لنشأة فييت العلمية الأولى في أحضان القاهرة وفي أوساط الشعب العربي في مصر وعيشه فيها فترة طويلة من حياته مدرسا في كلية الآداب أو مديراً للمتحف العربي بالقاهرة، أثر عميق جداً في ترسيخ حبه لمصر وشعبها وللحضارة العربية الإسلامية في نفسه، وقد احتفظ بصدافته للمصريين وحبه لمصر ووفائه لها حتى آخر لحظات حياته.

وأسلم فييت أخيراً روحه إلى بارئها في مدينة (نويى - سور - سين)، وذلك في العشرين من شهر نيسان من سنة ١٩٧١، عن عمر يناهز الخامسة والثمانين، تاركاً في نفوس طلابه وأهله لوعة وحرقة، وفي الأوساط العلمية الفرنسية والعربية فراغاً كبيراً بعد أن جعل من نفسه همزة وصل بين الشعيين العربي والفرنسي، وربما أيضاً بين الشرق والغرب، أكثر من ستين سنة من حياته، عاش منها في مصر وحدها. أكثر من ثلاثين سنة، كافح خلالها كفاح العالم والمعلم والباحث والجندى المخلص لوطنه في كل ميدان نزل فيه، ولكل حقيقة آمن بها، فانطوى بغيابه علم من أبرز أعلام المستعربين الفرنسيين الذين وفقوا حياتهم وجهودهم على دراسة الحضارة العربية الإسلامية من خلال الميادين التي مرت بنا أنفاً في هذه النبذة.

٤ - ريجيس بلاشير (١٩٠٠ - ١٩٧٣)^(١):

ولد ريجيس بلاشير Régis Blachère في الثلاثين من شهر حزيران من سنة ١٩٠٠، في ضاحية من ضواحي باريس تدعى (مونروج) Montrouge. وعندما انتقل أبوه - وكان موظفا صغيرا - مع أسرته إلى المغرب الأقصى، سنة ١٩١٥، بعد احتلاله من قبل فرنسا، كان بلاشير يرافقه، فأبى هناك دراسته الثانوية في مدرسة ليوتي Lycée Lyautey، في مدينة الدار البيضاء Casablanca. وقد مال بعد ذلك إلى العمل في وظيفة مترجم، غير أن أساتذته ألفوا فيه استعدادا قويا للدراسات ولتعلم اللغات الأجنبية، فوجهوه إلى تعلم اللغة العربية على وجه الخصوص، ليصبح مستعربا يعلّم العربية. وكان عيش بلاشير في البيئة العربية في المغرب واختلاطه بأهلها عما غرس في نفسه حب الإطلاع على حياة هؤلاء الناس وتاريخهم وحضارتهم وكل وما يتصل بذلك من عقيدة وأدب. غير أنه لم يتمكن من التفرغ للدراسة في هذا الميدان، بسبب الأعباء المالية التي تفرضها عليه معيشته وضيق حال أسرته، فاضطر إلى العمل في وقت مبكر موجهها في معهد مولاي يوسف في مدينة الرباط، مع مواصلة لدراساته العالية الحرة وقد ساعده على النجاح فيها ولعه الشديد بالمطالعة لما انصف به من ظمأ لا ينتهي إلى المعرفة.

وقد حصل بلاشير، سنة ١٩٢٢، على ليسانس اللغة العربية من كلية الآداب في مدينة الجزائر، وكان من أساتذته فيها: هنري ماسيه، وايفاريسست ليفي - بروفنسال^(٢) E.Lévi-Provençal. وقد كان الأول منهما يدفعه إلى التعليم، وكان الثاني يريد له أن يصبح دارسا للاتينية ومؤرخا لروما القديمة. وحظي بلاشير هناك بصداقة المستعرب الفرنسي هنري باميه H.Basset، عميد تلك الكلية، الذي كان يهتم بدراسة الاتنوغرافية المغربية.

(١) استقينا هذه النبرة من مجلة مصادر من أهمها:

Cohen (D.), Régis Blachère (1900-1973), in: Journal asiatique, T.CCLXII, 1974, p.1-10. Éliséeff (N.), Régis Blachère (1900-1973), in: Arabica, t.XXII, 1976, p.1-15. Julien (Ch.), Analecta de Régis Blachère, Damas, 1975, p.VII-XII.

(٢) ويبدو أنها أثرا فيه تأثيرا عميقا في توجهه إلى الدراسات الأدبية العربية والدراسات الإسلامية، ولذا نجده يتوجه إليهما في إهداء كتابه: (تاريخ الأدب العربي) بالقول: إلى إستاذي السيدين هـ. ماسيه وإ. ليفي - بروفنسال، مع أوفى عرفاني بجميلها.

ونال، سنة ١٩٢٤، درجة الأغرغاسيون agrégation، وكان أستاذة فيها المستعرب وليم مارسيه W.Marçais. وعاد بعد هذه الدرجة أستاذ للعربية في معهد مولاي يوسف الذي كان يعمل فيه من قبل. وكانت عنده نزعة قوية إلى معرفة العالم العربي والإسلام والتعريف بهما، وكان ذلك أثرا من آثار اجتماع صفة العالم بصفة المعلم في دخيلة نفسه.

وعمل بلاشير، من سنة ١٩٢٩ إلى سنة ١٩٣٥، أستاذا مديرا للدراسات في معهد الدراسات المغربية العالية l'Institut des Hautes Études Marocaines ثم خلف، في سنة ١٩٣٥، صديقة المستعرب موريس غودفروا - ديمومين في كرسي العربية الفصحى في مدرسة اللغات الشرقية الحية في باريس، فكان خامس من يتولاه منذ إنشائه، وظل يشغله إلى سنة ١٩٥٠.

وقد أعد، في سنة ١٩٣٥، أطروحتين لنيل درجة الدكتوراه في الآداب من جامعة السوربون: فكانت «الأطروحة الأساسية» دراسة أحادية بعنوان: (شاعر من القرن الرابع الهجري: أبو الطيب المتنبي)، وكانت «الأطروحة التكملة» ترجمة لكتاب (طبقات الأمم) لصاعد الأندلسي، مع تعليقات عليه.

وانتقل بلاشير، سنة ١٩٥٠، من مدرسة اللغات الشرقية ليشغل كرسي الفيلولوجيا والأدب العربيين في العصر الوسيط في جامعة السوربون، وبقي في هذا المنصب إلى حدود سنة ١٩٧٠.

وقد عمل في مناصب أخرى كثيرة، إلى جانب ما سبق ذكره، فكان يؤدي فيها نشاطات علمية مختلفة، فقد خلف سنة ١٩٤٢ وليم مارسيه مديرا للدراسات الفيلولوجيا العربية في القسم الرابع من المدرسة التطبيقية للدراسات العالية، واستمر في هذا المنصب إلى سنة ١٩٦٨. وأصبح في سنة ١٩٥٦ مديرا لمعهد الدراسات الإسلامية في أكاديمية باريس، وظل يشغل هذا المنصب حتى سنة ١٩٦٥، وكان كل من وليم مارسيه وليفى - بروفنسال وديمومين قد اشتركوا في تأسيس هذا المعهد سنة ١٩٢٩. وشغل، سنة ١٩٦٢، منصب مدير مركز المعجمية العربية التابع

للمركز الوطني للبحث العلمي بباريس C.N.R.S.، لمتابعة الأعمال التي تستهدف إصدار قاموس عربي - فرنسي - إنكليزي معا . كما تولى منصب نائب رئيس لرابطة تقدم الدراسات الإسلامية . وانتخب عضوا مراسلا في مجمعي اللغة العربية في كل من دمشق والقاهرة . وانتخب كذلك عضوا في أكاديمية النقوش والآداب بفرنسا .

وأما الميادين الأخرى التي ظهر فيها نشاط بلاشير، الذي كان وحده علامة بارزة في الدراسات العربية الإسلامية في هذا القرن في ميدان الاستعراب الفرنسي، فقد كانت كثيرة موزعة بين اللغة والأدب والدين والأدب الجغرافي .

وفي ثبوت أعماله الكاملة الذي نشرته إيف باريه E.Paret في (المنتخب) من مقالاته Analecta، الذي أصدره المعهد الفرنسي للدراسات العربية في دمشق، يجد المرء خمسة عشر كتابا من تأليفه الخالص أو بالمشاركة مع آخرين، إلى جانب مئة وسبع عشرة مقالة في موضوعات شتى كانت قد نشرت في عدد من المجلات والمنوعات الاستعرابية والاستشراقية^(١)، أو في بعض الموسوعات، كالـ موسوعة الإسلامية^(٢)، والموسوعة الكبيرة^(٣) La Grande Encyclopédie، والموسوعة الشاملة .

وقد مربنا في ترجمتنا لديموميين أن بلاشير قد عاونه في وضع كتاب (قواعد العربية الفصحى) الذي نشر سنة ١٩٣٧ . وهو الكتاب الذي استطاع عند ظهوره أن يزحزح كتاب نحو العربية الذي كان دو ساسي قد وضعه وظل معتمدا حتى ذلك الوقت عند المستعربين الفرنسيين، وحل محله، لأن المؤلفين اتبعوا فيه المناهج الحديثة في علم اللغة في أيامهما، وقصدا به أن يكون مخصصا للمستعربين الفرنسيين، وقد طبع سنة ١٩٥٢ طبعة ثالثة مزيّدة ومنقحة، وهو لا يزال إلى اليوم تقريبا مرجعا

(١) منها مقالات عن شعراء من أمثال : ابن دراج القسطلي، وابن زمرك، والمعري، الخ .
 (٢) له فيها مثلاً نبذة ترجية لشعراء من أمثال : العباس بن الأحنف، وأبي صخر الهذلي، والأخطل، وعمرو بن كلثوم، وعنترة وذو الرمة، وبشار .
 (٣) وله فيها نبذة ترجية لشعراء من أمثال أبي نواس، والمعري، وشوقي .

أساسيا في موضوعه ، وقد أدى دورا كبيرا في تكوين أجيال من المستعربين .

وتابع بلاشير موضوع البحث في اللغة العربية في آثار لاحقه ، إذ نشر في سنة ١٩٣٩ كتابا بعنوان : (مبادئ العربية الفصحى) - *Éléments de l'arabe classique* ، وقد طبع في سنة ١٩٥٨ طبعة رابعة منقحة ومصححة . ونشر في سنة ١٩٤٦ كتابا بعنوان : (تمارين على العربية الفصحى) - *Exercices d'arabe classique* ، بالتعاون مع ماري تشيكالدي *M. Ceccaldi* ، وطبع في سنة ١٩٧١ طبعة سابعة .

وكان بلاشير يفكر، إلى جانب هذه الإسهامات الهامة في دراسة اللغة العربية ، في مشروع كبير هو إنجاز قاموس ثلاثي اللغات يدعى (القاموس العربي - الفرنسي - الإنكليزي) ، وقد طرح فكرته الأولى في المؤتمر الثالث والعشرين للمستشرقين المنعقد في كمبردج سنة ١٩٥٤ ، وجوهر هذا المعجم تاريخي اشتقاقي معا ، وقد شكلت لذلك لجنة ثلاثية تتألف من : بلاشير، ومصطفى شويمي ، وكلود دينيزو *Cl. Denizeau* وقد عمد الثلاثة إلى العودة إلى النصوص العربية من مختلف العصور ضمن قراءات واسعة لجمع مادة هذا القاموس ، وقد بدى بطبعة سنة ١٩٦٣ ، وصدرت منه ثلاثة مجلدات في حياة بلاشير من أصل ستة : وكان الأول قد تم نشره سنة ١٩٦٧ ، والثاني سنة ١٩٧٠ ، والثالث سنة ١٩٧٣ . وقد أوصى بلاشير، قبل وفاته ، بأن يدير العمل من بعده المستعرب الفرنسي المعروف شارل بيلا *Ch. Pellat* ، الذي كان له باع طويل في ميدان الدراسات العربية أيضا ، بغية إنجاز المجلدات الثلاثة المتبقية ونشرها .

ونشر بلاشير، في مجال الأدب الجغرافي ، كتابا بعنوان : (اقتباسات من الجغرافيين العرب الرئيسيين في العصر الوسيط) *Extraits des principaux géographes arabes du Moyen Âge* ، في سنة ١٩٣٤ ، ثم أعاد طبعه دارمون *Darmon* مصححا ومنقحا سنة ١٩٥٧ . وبلاشير هو الذى دفع بتلميذه المستعرب أندريه ميكيل *A. Miquel* إلى دراسة الأدب الجغرافي عند العرب في أطروحته لنيل درجة الدكتوراه .

وأصدر بلاشير، في مجال التحقيق والترجمة، بالتعاون مع صديقة جان سوفاجيه، كتاباً يحوى قواعد التحقيق والترجمة ليستعمله المستعربون دليلاً لهم في هذين المجالين، وهو بعنوان: (قواعد تحقيق المخطوطات العربية وترجمتها)^(١) في سنة Règles pour éditions et de publications des textes arabes، وذلك في سنة ١٩٥٣.

وقدم بلاشير، في مجال الدراسات الإسلامية، آثاراً قيمة كان أولها كتابة: (مدخل إلى القرآن) Introduction au Coran، الذي نشره سنة ١٩٤٧، ثم أعاد نشره ثانية سنة ١٩٥٩، وقد تناول فيه تاريخاً موجزاً للقرآن الكريم توجه به إلى جمهور القراء غير المختصين ليعرفهم إياه ويقربهم إليه. وقد أصدر بعد هذه الدراسة ترجمة دقيقة للقرآن في مجلدين ضخمين: ظهر الأول منها سنة ١٩٤٩، والثاني سنة ١٩٥٠. وقد رتب السور في هذه الترجمة بحسب المراحل الأربع التي مرت بها الدعوة الإسلامية في مكة والمدينة، وقد زود ترجمته هذه بتعليقات وشروح فيلولوجية كثيرة، وذيّلها بفهرس كبير للأعلام والمفاهيم التي تحتاج إلى تفسير أو توضيح. وتعد هذه الترجمة، بإقرار المستعربين أنفسهم، أقرب إلى روح النص الأصلي وأسلوبه المشرق، وإن كنا نستبعد ذلك عن أي ترجمة للقرآن استبعاداً مطلقاً لاستحالة المقاربة فضلاً عن المطابقة، وهذه الترجمة على أي حال أكثر الترجمات إفادة للباحثين من علماء الإسلاميات في ميدان الاستعراب الفرنسي على وجه الخصوص. وأعاد بلاشير طباعة ترجمته هذه، سنة ١٩٥٧، على ورق ناعم ورقيق، بعد أن أعاد ترتيب السور فيها إلى الترتيب القرآني المعتاد، وتوجه بهذه الطبعة إلى جمهور القراء الفرنسيين أكثر من توجهه إلى العلماء المختصين والباحثين. ثم نشرت هذه الطبعة ثانية في سنة ١٩٧٢. كما قدم بلاشير لجمهور القراء الفرنسيين أيضاً دراسة قصيرة ومركزة سنة ١٩٦٦ بعنوان: (القرآن) Le Coran^(٢)، وقد نشرت الطبعة الثالثة منها سنة ١٩٧٣. ولم يفت

(١) وقد عمدنا إلى ترجمة هذا الكتاب إلى العربية بالعنوان المذكور أعلاه، ونشرت هذه الترجمة دار الفكر المعاصر ببيروت ودار الفكر بدمشق سنة ١٩٨٨.
(٢) تم نشره في سلسلة (كوسيج) المعروفة برقم ١٢٤٥.

بلاشير، في الوقت نفسه، أن يخص شخصية النبي (صلى الله عليه وسلم) بالدراسة والتحليل والتأريخ، فأصدر كتاباً بعنوان (قضية محمد «صلى الله عليه وسلم») Le problème de Mahomet في سنة ١٩٥٢، ليكون عوناً على فهم ترجمة القرآن من جهة وتعاليم الإسلام وتاريخه من جهة ثانية. ثم نشر، في سنة ١٩٥٦، كتاباً آخر عن النبي (صلى الله عليه وسلم) بعنوان: (على خطا محمد «صلى الله عليه وسلم»). Dans les pas de Mahomet.

وكان الأدب العربي من الميادين المفضلة البارزة عند بلاشير، ولا سيما الشعر منه. وقد بدأ اتصاله بهذا الأدب بدراسته التي وقفها على المتنبّي في أطروحته الأساسية التي قدمها لثليل درجة الدكتوراة في الآداب سنة ١٩٣٥. وقد تناول فيها هذا الشاعر وفنه وفق منهج تاريخي متصاعد ومتسلسل بحسب المراحل، مطبقاً فيها نظرية تين Taine عن الوسط (البيئة) والعرق والعصر وأثرها معاً في نسج حياة الشاعر وفنه (١).

ثم نشر، سنة ١٩٥٧، ترجمة لـ (مختارات من مقامات بديع الزمان الهمذاني) بالتعاون مع بيير ماسنو P. Masnou، ولعل الغاية من هذه المختارات إعطاء صورة لفن المقامات في الأدب العربي، تكمل ما تكون منها في ذهن القارئ الفرنسي والباحث المستعرب حين قام بترجمة بعض مقامات الحريري من قبل.

ويعد كتابه: (تاريخ الأدب العربي من الأصول إلى نهاية القرن الخامس عشر) (٢) l'Histoire de la littérature arabe des origines à la fin du XV^e siècle. الكتاب الهام الذي خلد جهوده ومكائنه العلمية بين المستعربين، وكان قد خطط له أن يغطي الأدب العربي، بالمفهوم المحدد والضيق لكلمة (الأدب)، أي: الشعر والنثر الفني، من أقدم عصوره التاريخية (الجاهلية) إلى نهاية القرن الذي شهد انهيار الدولة المملوكية في الشام ومصر وبدايات سقوطها في قبضة العثمانيين، إلا أن

(١) انظر: هـ ١ ص ١٢٣ من هذا البحث.

(٢) انظر: هـ ١ ص ١٢٤ من هذا البحث.

المجلدات الثلاثة التي ظهرت في حياة بلاشير وصلت بهذا العمل الطموح إلى سنة ١٢٥ هـ/ ٧٤٢م، ثم انقطع العمل فيه، لسوء الطالع، ب وفاة صاحبة، وكان المجلد الأول منها قد نشر سنة ١٩٥٢، والثاني سنة ١٩٦٤، والثالث سنة ١٩٦٦. وتعد هذه المجلدات أداة عمل لاغني عنها لدى الباحثين من المستعربين على وجه الخصوص.

وكان بلاشير يتبع في دراسته الشعراء، في مقالاته ودراساته المطولة على حد سواء، المنهج النصي، لأنه يعد النصوص شواهد على الوسط (البيئة) الذي أنتجت فيه، كما كان يطبق على الشعراء كذلك منهج تين في تتبع تأثيرات الوسط (البيئة)، والعرق، والعصر، لفهم تلك النصوص على حقيقتها، بالإضافة إلى فهم متبجها فهما أدق بقدر الإمكان، وكان يرى دائما أن دراسة الأدب ليست غاية، وإنما هي وسيلة لفهم الحضارة التي أنتجت هذا الأدب، ونستنبط من هذا الرأي أن بلاشير كان يحاول فهم الحضارة العربية الإسلامية من خلال الأدب الذي تم إبداعه في ظلها، وكان يرى أن الأدب العربي القديم يتمتع بسمه هامة جدا هي أن إنتاج «جماعي» لم يكن للأفراد فيه إلا الاستجابة للرأى العام في الجماعة التي يعيشون فيها. غير أن هذا الرأي مدفوع عندنا ولا يجوز تعميمه على جميع مبدعي ذلك الأدب القديم.

تلك هي أهم آثار بلاشير في الميادين المختلفة، وأما مقالاته فإننا نغض الطرف عنها، لأننا رأينا في هذه النبدلة إشارة إلى عدد منها، وهي في غالبيتها المطلقة في موضوعات أدبية شعرية، ولأنها كثيرة، ونحيل المهتمين بها إلى المجموعة المنتقاة منها في مجلد واحد، كان قد جمع مقالاته ثلاثة من مريدى بلاشير وطلابه، وهم؛ أندريه ميكيل، وجيرار تروبو G.Troupeau، وأندريه ريمون A.Raymond، ثم نشرها سنة ١٩٧٥، بعنوان: (المنتخب من مقالات ريجيس بلاشير) Analecta de R.Blachère، ضمن منشورات المعهد الفرنسي بدمشق.

وقد أسهم بلاشير كذلك في إدارة مجلة (أرابيكا) Arabica، وفي رئاسة تحريرها منذ سنة ١٩٥٦، أئر وفاة مؤسسها وأستاذة القديم المستعرب الفرنسي ليفي —

بروفنسال ، وكانت قد بدأت بالصدور سنة ١٩٥٤ ، ثم تنازل بلاشير عن إدارة هذه المجلة الفصلية ، سنة ١٩٦٢ ، إلى تلميذه جيرار لوكونت G.Lecomte ، وهو من المهتمين بالدراسات العربية ، وقد وقف أكثر اهتماماته على دراسة ابن قتيبة وآثاره .

نضيف إلى كل ذلك أن بلاشير خرَّج عدة أجيال من المستعربين الباحثين في مدرسة اللغات الشرقية ، وجامعة السوربون ، ومدرسة الدراسات العالية ، وغيرها من المؤسسات التعليمية في فرنسا . وأشرف على عدد كبير من أطروحات الدكتوراه التي تقدم بها طلبة فرنسيون وأجانب وعرب لنيل الدرجة العلمية . وقد بقي حتى لحظاته الأخيرة محبا للعلم ومولعا بطلابه ، ولم يكن ييخل على أى منهم بنصيحة أو توجيه ، ولم يتأخر عن إبداء رأى إذا طلب إليه ذلك . على أنه كان متشددا جدا في دروسه في مطلع حياته العلمية ، غير أنه أخذ يتساهل معهم بالتدريج من غير مساس بحدود الحق أو الصواب ، إذ لم يعرف عنه أنه تساهل يوما في خطأ أو انحراف . وكان طلابه في مدرسة اللغات الشرقية يعرفون له وضوح العرض في دروسه ، ويتذكرون حدته وقسوته أحيانا في ملاحظاته ، ويذكرون تلك العبارة التي كان يرددها على أسماعهم في التحريض على إيلاء العربية ما تستحق من اهتمام وهي : «العربية معشوقة متشددة تتطلب من المرء أن يخصص لها كل يوم ساعات عديدة» . وقد كان على من يريد منهم النجاح في ميدان الاستعراب حقا أن يعمل بهذا القول . وكان طلاب بلاشير القدامى يذكرون أستاذهم ذا القامة المديدة ، ويذكرون الصلغ المبكر الذى أخذ يغزو رأسه ، وضعف بصره الدائم الذي تحول فيما بعد إلى عمى تام قبل وفاته بقرابة عشرين سنة ، أي منذ سنة ١٩٥٣ ، غير أن هذا العمى لم يكن ليؤثر في نشاطه العلمي ، ولا في إنتاجه ، لأنه كان يتمتع بذاكرة قوية وقدرة كبيرة على استيعاب المعلومات التي يسمعها وعلى تصنيفها ، ولذا كان يتابع نشاطه العلمي بالسوية السابقة نفسها ، وذلك بإملاء ما لا يكون بحاجة إلى إعادة النظر فيه أو إلى تنقيحه . وقد شغل بلاشير نفسه في الأسابيع الأخيرة من حياته بدراسة لم تتم عن الشاعر بشار بن برد ، وكأنها أراد بذلك أن يقدم لنا شيئا من معاناته العمى بإسقاطها على حياة بشار الأعمى ، أو ليجد عزاء عن عماه بتذكر هذا

الشاعر العربي الذى ولد على العمى وكانت له حياة حافلة مليئة بالنشاط والحيوية والشعر والشر، وكان عنيدا وعنيفا يهرب جانبه سفلة القوم وعليتهم على حد سواء .

كان بلاشير، بحسب ما يصفه معاصروه، يبدو لمن يتعامل معه، للوهلة الأولى، رجلا صارما، باردا، ذا وجه هاديء جامد يجعله منفرا، ولكن من يتقرب إليه أكثر ويعاشره يكتشف فيه إنسانا حساسا جدا، وموهوبا، ومنفتحا على الحياة والصداقة، ومتمتعا بثقافة واسعة. وكان يحب الموسيقى إلى جانب حبه الأدب، وكان يعزف على آلة الكمان معبرا بها عما يحس به من عواطف، وكان يصطحب في عزلة موسيقى كل من باخ وبيتهوفن، كما أنه كان يحب مطالعة أعمال كل من مونتيني، وفولتير، ورينان، وستاندال^(١).

أما شهرته فكانت واسعة في أوساط العلماء الفرنسيين والمستشرقين والمستعربين والعرب وعلماء الإسلاميات وجمهور المثقفين. ويفخر عدد من الباحثين بأنهم كانوا يوما ما من طلابه الذين تلقوا دروسهم على يديه أو أنه أشرف على بحوثهم، فنالوا رعايته وتشجيعه في أعمالهم. ويتمثل سر شهرته الواسعة هذه في هؤلاء التلاميذ والمريدين الذين جمعهم حوله بتعليمه وشخصيته من نحو، وفي آثاره الكثيرة والمتنوعة التي نشرها خلال مسيرته العلمية وحياته المديدة، فهو كما يقول عنه تلميذه جوليان Ch.Jullien في ترجمته له بعد وفاته بثلاث سنوات كان «يتمتع بصفة المعلم من شواطئ الأطلسي إلى ضفاف دجلة» وقال أندريه ميكيل عن اهتمامه بالعربية: «كانت العربية، وربما العربية وحدها، هي الشغل الشاغل لحياة هذا العالم، من شبابه المغربي إلى السوربون»^(٢).

وقد كانت مدام ايف باريه، طوال محنته في بصره، تقف إلى جانبه ساهرة على خدمته وإدارة أعماله باخلاص وتفان نادريين، فكانت خير معين له حتى حانت

(١) انظر : IX,p.1975, Damas, de Régis Blachère, Analecta

(٢) انظر : XII,p.cit., op.

وفاته في السابع من شهر آب من سنة ١٩٧٣ . وقد دفن في المقبرة التي ثوى فيها قبله أبوه وزوجته مرغريت . وقد كتب إلى تلميذه أندريه ميكيل في ٢٥ حزيران ١٩٧٦ كتابا ذكر فيه أن بلاشير أوصى قبيل وفاته بأن يكفن جثثانه بجلبابه المغربي ، وأن دل ذلك على شيء فإنما يدل على حبه الشديد للمغرب ووفائه لأهله ، وهم الذين احتضنوه في مطلع شبابه ، وكان لهم الفضل الأول عليه في تكوينه وتوجهه إلى ميدان الاستعراب والدراسات الإسلامية ، إذ عاش في المغرب وبين أهله قرابة عشرين سنة تمتد من سنة ١٩١٥ إلى سنة ١٩٣٥ ، وهي فترة التفتح والتكون والنضج والاستقرار في حياة الإنسان . وقد حفظ هذا المستعرب كل ذلك وعبر عنه بهذا الرمز العميق في دلالته ، وهو « الجلباب المغربي » .

٥- أندريه ميكيل (ولد سنة ١٩٢٩)^(١):

ولد أندريه ميكيل André Miquel في قرية (ميز) Mèze جنوب فرنسا في السادس والعشرين من شهر أيلول من سنة ١٩٢٩ . وقد تلقى العربية على يد المستعرب ريبيس بلاشير من سنة ١٩٥٠ إلى سنة ١٩٥٣ ، وكان في هذه الفترة نفسها طالبا في معهد المعلمين العالي الذي تخرج فيه اختصاصيا بالنحو الفرنسي . وقد أرسل في السنة الدراسية ١٩٥٣ - ١٩٥٤ مبعوثا إلى المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق ، وكلف وقتها بإلقاء دروس في المدرسة العليا للآداب ببيروت ، ثم عاد إلى فرنسا ليؤدي الخدمة العسكرية الإلزامية ما بين سنتي ١٩٥٤ و ١٩٥٥ .

ولما كان قد اكتسب معرفة جيدة بالبلدان العربية عن كثب ، أثناء دراسته في المعهد الفرنسي بدمشق وتدرسه في بيروت ، فقد رغب في توسيع دائرة معرفته ببلدان

(١) أستقينا مادة هذه النبذة من ترجمة حياة ميكيل وأعماله وألقابه Curriculum Vitae التي كان قد كتبها بنفسه عند توليه كرسي (اللغة العربية الفصحى وآدابها) في معهد فرنسا (كوليج دو فرانس) سنة ١٩٧٥ ، وقد بعثت بها إلي مشكورة السيدة إيف باريه E.Paret مع رسالة مؤرخة في ٣٠ تموز (يوليو) سنة ١٩٧٧ ، وهي السيدة التي كان لها فضل خدمة المستعرب بلاشير وتنظيم أعماله والقراءة له أكثر من عشرين سنة ، أي منذ بدء محنته في بصره إلى وفاته سنة ١٩٧٣ . وقد حملت تلك الترجمة عنوان : 14- p.1 Titres et travaux d'André Miquel.

أخرى في الشرق ذات طابع (سامي)^(١)، ولذا فقد سارع إلى تسلم منصب الأمين العام لقسم الآثار في المعهد الأثيوبي للبحوث في أديس أبابا عاصمة أثيوبيا، بين سنتي ١٩٥٥ و١٩٥٦، حين عرض عليه، وشارك هناك ببعض أعمال التنقيب والحفريات الأثرية في منطقة أكسوم.

وعلم بعد عودته إلى فرنسا في مدرسة بليز - بسكال Lycée Blaise- Pascal، في السنة الدراسية ١٩٥٥ - ١٩٥٦. ثم عمل في الإدارة العامة للشؤون الثقافية والفنية في وزارة الشؤون الخارجية (خدمة التعليم، قسم الشرق الأدنى)، وظل يعمل في هذه الوظيفة من سنة ١٩٥٧ إلى سنة ١٩٦١، وكان يستغل أوقات فراغه، خلال هذه السنوات الأربع، في تحضير أطروحته المتممة لنيل درجة الدكتوراه في الآداب، وهي تقوم أساسا على ترجمة جزئية لكتاب: (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) للمقدسي، مع وضع مقدمة وافية وملاحظات وفهارس، وقد نشرها في المعهد الفرنسي بدمشق سنة ١٩٦٣. وكان لأستاذه بلاشير أثر كبير في توجيهه إلى دراسة الأدب الجغرافي عند العرب في هذه الأطروحة التي أشرف عليها المستعرب الفرنسي المشهور شارل بيللا.

وعين ميكيل، سنة ١٩٦١، رئيسا للبعثة الجامعية والثقافية الفرنسية إلى مصر، وكان يفكر، حين وصل في أيلول من السنة نفسها إلى القاهرة لمزاولة مهام عمله الإداري، في جمع وثائق ومعلومات عن مختلف جوانب الثقافة في مصر المعاصرة لتأليف أطروحته الأساسية لنيل درجة الدكتوراه، غير أن الظروف اضطرت له اضطرارا إلى أن يعود إلى فرنسا قبل أن يستكمل سنة في مصر، فأدى به ذلك إلى استبعاد الموضوع لصعوبة الحصول على مادته بعيدا عن الوسط الذي يدرسه، وقد دفعه ذلك إلى دراسة اللغة العربية وآدابها في العصور القديمة، واختار لدراسته هذه ما كتبه

(١) سبق لنا أن رفضنا صفة (السامية) التي أطلقت على اللغة العربية وفروعها التاريخية، كما أطلقت على الشعوب المختلفة التي تنتمي إليها في المنطقة العربية، لأنها اصطلاح توراني يستند إلى ماورد في التوراة من أنساب لا تفسر شيئا ولا تعني شيئا أمام الواقع والحقائق الانتوغرافية والانتولوجية للبشر في العالم أجمع، ونرى أن الصواب استبعاد هذا المصطلح كلية ليحل محله صفة (العربية القديمة أو التاريخية)، وصفا للغات والشعوب المقصودة به.

الجغرافيون العرب من آثار عن البلدان الإسلامية المختلفة ومجتمعاتها في القرون التي عايشوها فيها .

وقد عين ميكيل ، إثر عودته إلى فرنسا ، أستاذا مساعدا للغة العربية وآدابها ، في جامعة (اكس - آن - بروفانس) Aix - en - Provence ، من سنة ١٩٦٢ إلى سنة ١٩٦٤ . ثم أصبح أستاذا مساعدا أيضا لعلم اجتماع اللغة العربية وآدابها ، في القسم السادس من المدرسة التطبيقية للدراسات العالية E. P. H. E. ، من سنة ١٩٦٤ إلى سنة ١٩٦٨ .

وكان خلال الفترة المذكورة أنفا يحضر أطروحته الأساسية بعنوان : (الجغرافيا البشرية للعالم الاسلامي حتى منتصف القرن الحادي عشر للميلاد la géographie humaine du monde musulman jusqu'au milieu du XI^e Siècle بإشراف أستاذه بلاشير نفسه ، الذي كان من اهتماماته في الماضي البحث في هذا الجانب من التراث العربي . وقد تم نشر أطروحته هذه في مجلدين : الأول سنة ١٩٦٧ ، والثاني سنة ١٩٧٥ .

وعُيِّن ميكيل ، سنة ١٩٦٨ ، أستاذا محاضرا في جامعة باريس الثالثة ، وبقي كذلك حتى سنة ١٩٧٠ التي عين فيها أستاذا محاضرا لمادة «اللغة العربية وآدابها في العصر الوسيط» ، ثم عين في الجامعة نفسها أستاذا بلا كرسي للمادة نفسها . ثم عمل ، منذ مطلع سنة ١٩٧٤ ، مديرا لوحدة الدراسة والبحث U. E. R. في «لغات الهند والشرق وشمال أفريقيا وحضاراتها» في جامعة باريس الثالثة أيضا .

وكان ميكيل يلقي ، وهو في هذه المناصب ، دروسه على طلبة الليسانس والأغريغاسيون والحلقة الثالثة في اللغة العربية ، فكانت أعماله فيها تشمل تطبيقات عملية ودروسا نظرية في الأدب العربي قديمه وحديثه ، إضافة إلى تكوين الطلاب على أساس متين ، بحسب المناهج اللغوية الحديثة ، وكذا الأمر في النقد الأدبي ، كما كان يلقي على طلبته أيضاً دروسا في أدب الجغرافيين العرب ، وفي الأدب الشعبي الذي يتمثل في «ألف ليلة وليلة» .

وقد طلب ميكيل ، بالتعاون مع المستعرب دافيد كوهين D. Cohen ، إلى المركز الوطني للبحث العلمي C. N. R. S. ، إحداث فريق للبحوث المشتركة تكون أنشطته وقفاً على علم اللغة العربية وآدابها ، وقد حصلنا على هذا المطلب . وكان ميكيل يعقد الأمل على متابعة وحدة الدراسة والبحث U. E. R. نشر كتاب بلاشير: (تاريخ الأدب العربي من الأصول إلى نهاية القرن الخامس عشر) الذي ظهر منه ثلاثة مجلدات توقفت عند سنة ٧٤٢م / ١٢٥هـ .

وكان ميكيل مشاركاً نشيطاً في ميدان المؤتمرات والندوات التي تتعلق باهتماماته ومهنته في البحث والتعليم ، ومن هذه المؤتمرات والندوات : ما عقد في مدريد سنة ١٩٦٥ ، وفي إستنبول سنة ١٩٦٦ ، وفي تونس سنة ١٩٦٨ ، وفي المحمدية بالمغرب سنة ١٩٧٠ ، وفي المؤتمر الدولي التاسع والعشرين للمستشرقين الذي عقد في باريس سنة ١٩٧٣ بمناسبة الذكرى المئوية لانهقاد أول مؤتمر دولي للمستشرقين في باريس نفسها سنة ١٨٧٣ ، وكان ميكيل أميناً عاماً مساعداً في مؤتمر هذه المناسبة ، وفي عمان سنة ١٩٧٤ . وقد لبي الدعوات التي كانت بعض الجامعات العربية توجهها إليه للمحاضرة فيها : كجامعات دمشق ، وعمان ، وتونس .

تلك هي أهم الأنشطة والمسؤوليات العلمية والتعليمية والإدارية التي قام ميكيل بالعمل فيها وتوليها ، وقد توجت سنة ١٩٧٥ بانتخابه لشغل كرسي العربية الفصحى وآدابها في معهد فرنسا (كوليج دو فرانس) ، ويعد هذا الانتخاب شهادة على غزارة آثاره ونوعيتها وإفادتها الثقافة الفرنسية ، إذ يمكننا إبراز أنشطته في ميدان البحث والتأليف والترجمة والتحقيق في شكلين : الأول الكتب ، والثاني المقالات ، والدراسات القصيرة ، والبيانات ، والمواد التي تنشر في الموسوعات أو المنوعات أو في مجموعات أعمال المؤتمرات أو الندوات ، وغير ذلك من أشكال النشر القصيرة والسريعة .

وأبرز آثار ميكيل المنشورة حتى اليوم :

١ - ترجمة حكايات (كليلة ودمنة) ، مع التعليق عليها : وقد نشرت سنة ١٩٥٧ ،

وأعيدت طباعتها طبعة منقحة سنة ١٩٧٦. ومن المعروف أن لهذه الحكايات تأثيرا كبيرا في الأدب الفرنسي خاصة (ولاسيا: أماتيل لافونتين les fables de La-fontaine)^(١)، وفي الآداب الأوروبية والغربية عامة.

٢ - الترجمة الجزئية لكتاب (أحسن التقاسيم) للمقدسي.

٣ - الجغرافيا البشرية للعالم الإسلامي: وهي بحث في الأدب الجغرافي العربي الإسلامي^(٢).

٤ - الإسلام وحضارته Islam et Sa civilisation^(٣): وهو بحث نشره سنة ١٩٦٨، ونال عليه جائزة الأكاديمية الفرنسية، وحقق لصاحبه شهرة واسعة في الأوساط العلمية في فرنسا والخارج، بسبب المادة الغزيرة التي حشدها فيه وعرضها بأسلوبه المشرق الجذاب عن الحضارة الإسلامية. ولذا نجد لهذا الكتاب ترجمات إلى لغات أجنبية حية بارزة: كاللغة الألمانية التي نقل إليها بعنوان: (الإسلام من محمد ﷺ) إلى عبدالناصر سنة ١٩٧٠. والبرتغالية سنة ١٩٧١. والإيطالية سنة ١٩٧٣.

٥ - الأدب العربي^(٣) la littérature arabe: وهو كتيب يستعرض فيه مراحل التاريخ الأدبي العربي المختلفة إلى العصر الراهن بإيجاز يخل كل الإخلال بالغرض. وكان قد نشر بباريس سنة ١٩٦٩. وهو مترجم في تونس.

٦ - ترجمة قصة (غريب وعجيب): وهي من قصص (ألف ليلة وليلة)، وقد نشرها، سنة ١٩٧٦، مع دراسة من أربعة فصول تناول فيها بالتحليل كلا من المكان والزمان والحدث والخطاب في هذه القصة.

(١) وقد ترجم نيقولا أبو هنا، أحد آباء دير المخلص، شطرا من هذه الأماتيل إلى العربية شعرا، ونشره في صيدا (بلبنان) سنة ١٩٣٤، بعنوان: (أمثال لافونتين).

(٢) وقد ترجم ونشر في وزارة الثقافة بدمشق في ثلاثة مجلدات تحمل عنوان: (جغرافية بلاد الإسلام) سنة ١٩٨٦.

(٣) وقد نشر في سلسلة كوسيج برقم ١٣٥٥ سنة ١٩٦٩.

٧- ترجمة ديوان (المعبد الغريق) لبدر شاكر السياب سنة ١٩٧٦ .

وأما مقالات ميكيل فتزبد على مئة مقالة ، تناول فيها مواضيع أدبية متنوعة تمتد من الأدب الجغرافي العربي إلى الأدب العربي القديم عامة عبر عصوره المختلفة ، إلى ترجمات لبعض أعلام الحضارة العربية الإسلامية في مختلف الميادين ، إلى الأدب العربي الحديث منذ مطلع القرن التاسع عشر إلى اليوم ، إلى البحث في أدوات وردت في القرآن (مثل : حتى ، وإنما ، وغيرهما) ، إلى آخر ما هنالك من بحوث في ميادين أخرى مقاربة .

ويبدو لنا أن مقالات ميكيل إنما كانت استجابة لضرورات البحث والتعليم أو محاولات للإجابة عن بعض التساؤلات القائمة ، أو توضيحا لبعض القضايا المُشكِكة في الأذهان . وقد نشر ميكيل إسهاماته هذه في عدد كبير من الدوريات والموسوعات الفرنسية ، ومنها مثلا : مجلة أرابيكا ، والمجلة الآسيوية ، ونشرة الدراسات الشرقية BEO (التي يصدرها المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق منذ أوائل الثلاثينات) ، ومجلة الناقد ، ومجلة الإنسان ، ومجلة الدراسات الإسلامية REI ، وحوليات الدراسات الإسلامية (الصادرة عن معهد الدراسات الإسلامية بباريس) ، وحوليات أثيوبيا (الصادرة عن معهد الآثار في أديس أبابا) ، ومجلة القاهرة الجديدة (التي كانت استمرارا لمجلة القاهرة التي أسسها فييت في القاهرة) ، وكراسات تونس ، والموسوعة الإسلامية E. I. والموسوعة العامة لا روس ، والموسوعة الشاملة E. U. ، وغيرها .

ولا يزال هذا المستعرب مجدا وناشطاً في عطائه المتواصل في ميدان الأدب العربي والتراث القديم ، في ميادين شتى كالتأليف والتحقيق والنشر والترجمة والمقالة . وهو يشغل اليوم منصب المدير العام للمكتبة الوطنية بباريس ، وهي من عظميات المكتبات في فرنسا والعالم ، وفيها كنوز طيبة من مخطوطات تراثنا العربي العريق .

مصادر البحث

أولا : المصادر الأجنبية والأصلية:

١- الأساسية

- 1- Annuaire du Collège de France, 1975.
- 2- L'Arabisant, janvier, 1974.
- 3- Avant-Propos de l'Encyclopédie de l'Islam, 2^{ème} éd., Paris, 1960.
- 4- BLACHÈRE(R.), L'arabe littéral, in: 150^e de l'École des Langues Orientales, Paris, 1948.
- 5- BLACHÈRE(R.), Évariste Lévi-Provençal (1894-1954), in: Arabica, t. III, 1956.
- 6- BLACHÈRE(R.), Jean Sauvaget (1901-1950), in: Journal asiatique, t. CCXXXIX, 1951.
- 7- BLACHÈRE(R.), Maurice Gaudefroy-Démombynes (1862-1957), in: Journal asiatique, t. CCXXXV, 1957.
- 8- BLOCHET(E.), Catalogue de la collection de manuscrits orientaux arabes, persans et turcs, par Schefer, Paris.
- 9- BLOCHET(E.), Les sources orientales de la Divine Comédie, Paris, 1901.
- 10- CAHEN(OL.) et PELLAT(OH.), Les études arabes et islamique, in: Journal asiatique, t. CCLXI, 1973.
- 11- CANTINEAU(J.), Les parlers arabes du Horân, Paris, 1946.
- 12- CARRIÈRE(A.), Notice historique sur l'École Spécial des Langues Orientales Vivantes, in: Mélanges orientaux, Paris, 1883.

- 13- Cent cinquantième de l'École des Langues Orientales,
Paris, 1948.
- 14- CHAUVIN(V.), Bibliographie des ouvrages arabes ou re-
tifs aux Arabes publiés dans l'Europe chrétienne de
1810 à 1885, Liège, 1892.
- 15- COHEN(D.), Régis Blachère(1900-1973), in: Journal asia-
tique, t. CCLXII, 1974.
- 16- COLIN(G.S.), L'arabe vulgaire, in: 150^e de l'E.L.O.,
Paris, 1948.
- 17- Congrès d'études arabes à Cordoue, in: Arabica, t. X, 1963.
- 18- DENY(J.), L'École Nationale des Langues Orientales
Vivantes, in: 150^e de l'E.L.O., Paris, 1948.
- 19- DERENBOURG(H.), Silvestre de Sacy(1758-1838), Paris, 1895.
- 20- Dictionnaire encyclopédique(Larousse).
- 21- DRIAULT(E.), La question de l'Orient, Paris, 1898.
- 22- DRUGEON(O.), Géographie, histoire, institutions des États
musulmans, in: 150^e de l'E.L.O., Paris, 1948.
- 23- DUFRENOY(M.L.), L'orientalisme romanesque en France,
Montréal, 1940.
- 24- DUGAT(G.), Histoire des orientalistes de l'Europe,
2 t., Paris, 1868-1870.
- 25- DUPONT-FERRIER(G.), Les Jeunes de Langues ou " Armé-
niens " à Louis-Le-Grand, in: Revue d'études armé-
niennes, t. II(1922), et t. III(1923).

- 26- ELISSEEFF(N.), Gaston Wiet(1887-1971), in: *Journal asiatique*, t. CCLX, 1972.
- 27- ELISSEEFF(N.), Régis Blachère(1900-1973), in: *Arabica*, t. XXII, 1976.
- 28- ELISSEEFF(N.), *Thèmes et motifs des Mille et Une Nuits*, Beyrouth, 1949.
- 29- *Encyclopédie du XX^e siècle*.
- 30- FILIOZAT(J.), *La Société asiatique d'hier au lendemain*, in: *Journal asiatique*, t. CCLXI, 1973.
- 31- FÜCK(J.), *Die arabischen Studien in Europa*, Leipzig, 1955.
- 32- HUART(CL.), *Le Centenaire de la Société asiatique (1822-1922)*, in: *Orient et Occident*, t. 2, 1922.
- 33- LABAT(R.), *Avant-Propos du Journal asiatique à la 150^e de la Société asiatique(1822-1972)*, t. CCLXI, 1973.
- 34- *Larousse du XX^e siècle*.
- 35- LECLERC(L.), *Histoire de la médecine arabe*, 2^{ème} éd., U.S.A., 1971.
- 36- MASSE(H.), *Les études arabes en Algérie(1830-1930)*, Paris, 1933.
- 37- MASSE(H.), Maurice Gaudelroy-Démombynes(1862-1957), in: *Arabica*, t. IV, 1957.
- 38- MEUVRET(C.), *La Bibliothèque*, in: 150^e de l'E.L.O., Paris, 1948.

- 39- MIQUEL(A.),TROUPEAU(G.),RAYMOND(A.) :Analecta de Régis Blachère,Damas,1975.
- 40- MIRAMBEL(A.),L'École des Langues Orientales de Paris et les études d'orientalisme ,in:Revue de l'enseignement supérieur,n°2,1957.
- 41- MIRAMBEL(A.),L'orientalisme d'hier et d'aujourd'hui, in: Revue de l'E.L.O.,t.I,1964.
- 42- Problème et besoins de l'École Nationale des Langues Orientales Vivantes,in: Revue de l'E.L.O.,t.II,1965.
- 43-PELLAT(CH.),Langue et littérature arabes,2^{ème} éd., Paris,1970.
- 44- RENAN(E.),Averroès et averroïsme,Paris,1852.
- 45- SALMON(G.),Silvestre de Sacy,2 t.,le Caire(1905-1923).
- 46- SECRET(F.),Guillaume Postel et les études arabes à la Renaissance,in:Arabica,t.IX,1962.
- 47- Titres et travaux d'André Miquel,1975.
- 48- ZOTENBERG(H.),Avertissement du Catalogue des manuscrits arabes à la Bibliothèque Nationale de Paris,par M.G. de Slane,Paris,1895.

٢- الثانوية:

- 49- Actas de primer congreso de estudios arabes e islamicos, Cordoba, 1962 (Madrid, 1964).
- 50- Annales d'études orientales, Alger, t.I, 1934-1935.
- 51- BARTHOLD(V.-V.), La découverte de l'Asie (Histoire de l'orientalisme en Europe et en Russie), traduit par B. Nikitine, Paris, 1947.
- 52- BERGE(M.), Essai sur la personnalité morale et intellectuelle d'Abū Ḥayyān at-Tawḥīdī, styliste et humaniste arabe du IV^e/ X^e siècle (Thèse de doctorat d'État à la Sorbonne, Paris, 1974), 3 vol.
- 53- BLACHÈRE(R.), Histoire de la littérature arabe des origines à la fin du XV^e siècle de J.-C., 3 vol., Paris, 1952.
- 54- BLACHÈRE(R.), Un poète arabe du IV^e siècle de l'Hégire (X^e siècle de J.-C.): Abou-t-Tayyib al-Motanabbi, Paris, 1935.
- 55- BOUSTANY(S.), Ibn ar-Rūmī et son oeuvre, Beyrouth, 1967.
- 56- COUR(A.), Un poète arabe d'Andalousie: Ibn Zaidoun, Constantine (Algérie), 1920.
- 57- DARMESTETER(J.), L'orientalisme en France, 1883.
- 58- DERENBOURG(H.), Oumāra du Yemen: sa vie et son oeuvre, Paris, 2 t. (1897, 1902).
- 59- DERENBOURG(H.), Ousāma Ibn Mounkidh: Un émir syrien au premier siècle de Croisade, Paris, 1893.
- 60- GAUDEFRUY-DEMOMBYNES(M.), Introduction au Livre de la poésie et des poètes (d'Ibn Qutaiba), Paris, 1947.
- 61- GAUDEFRUY-DEMOMBYNES(M.), William Marçais (1874-1956), in: Arabica, t.III, 1956.
- 62- KĀJILANI(I.), Abū Ḥayyān at-Tawḥīdī, Beyrouth, 1950.

- 63- HUART(CL.), La littérature arabe, 4^{ème} éd., Paris, 1931.
- 64- LECOMTE(G.), Ibn Qutayba: l'homme, l'oeuvre et les idées,
Damas, 1965.
- 65- MIQUEL(A.), La littérature arabe, Paris, 1969.
- 66- Mélanges orientaux offerts à Henri Massé, Téhéran, 1963.
- 67- PEARSON(J.D.), Index Islamicus, England, 1958.
- 68- PELLAT(CH.), Le milieu basrien et la formation de
Ğāhiz, Paris, 1953.
- 69- Pérès(H.), La poésie andalouse arabe classique au XI^e
siècle, Paris, 1937.
- 70- VADET(J.), L'esprit courtois en Orient dans les cinq
premiers siècles de l'Hégire, Paris, 1968.
- 71- WIET(G.), Introduction à la littérature arabe, Paris,
1966.

■ . . . ■ . . . ■ . . . ■

ثانيا : المصادر العربية والمترجمة :

أولا : الأساسية

- ١ - أثر العرب في الفن الحديث للدكتور عفيف بهنسي، دمشق، ١٩٧٠.
- ٢ - أثر المستعربين من علماء المشرقيات في الحضارة العربية لمحمد كرد علي، في : مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مج ٧، ١٩٢٧.
- ٣ - الأستاذ كليمان هوار، في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مج ٧، ١٩٢٧.
- ٤ - أصول التاريخ الأوربي الحديث لهربرت فيشر، ترجمة : د. زينب عصمت راشد، د. أحمد عبدالرحيم مصطفى، ط ٣، دار المعارف بمصر.
- ٥ - أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي للدكتور محمود فهمي حجازي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٤.
- ٦ - أصول النثر الأدبي العربي لوليم مارسيه، ترجمة : د. محمود المقداد، في : مجلة التراث العربي بدمشق، ع ١٨٤، ١٩٨٥.
- ٧ - الاعتبار لأسامة بن منقذ، تحقيق : د. فيليب حتي، مطبعة جامعة برنستون في الولايات المتحدة، ١٩٣٠.
- ٨ - تاريخ الأدب العربي المعاصر للدكتور إبراهيم أبو الخشب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦.
- ٩ - تاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان، ٥ ج في ٢ مج، منشورات دار مكتبة الحياة ببيروت.
- ١٠ - تاريخ دراسة اللغة العربية بأوروبا للمستعرب النمساوي يوسف جيرا، القاهرة، ١٩٢٩.
- ١١ - تاريخ دراسة المشرقيات في أوروبا للدكتور فيليب حتي، في : مجلة الهلال المصرية، مج ٣٣، ١٩٢٣.
- ١٢ - تحليل الإبريز في تلخيص باريز لرفاعة الطهطاوي، ضمن كتاب : أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي للدكتور محمود فهمي حجازي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٤.

- ١٣ - تراثنا بين ماضٍ وحاضر للدكتورة عائشة عبدالرحمن، دار المعارف بمصر، ١٩٧٠.
- ١٤ - تعليقات وأقوال مأثورة لطف حسين بقلم الدكتور محمد الدسوقي، في: مجلة العربي بالكويت، ع ٢٠٧، ١٩٧٦.
- ١٥ - الحركة الصليبية للدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور، ط ١، القاهرة، ١٩٦٣.
- ١٦ - خطط الشام لمحمد كرد علي، ج ٦، دمشق، ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٥م.
- ١٧ - دائرة المعارف الإسلامية للدكتور سيد نوفل، في: مجلة الهلال المصرية، عدد يناير (كانون الثاني)، ١٩٧٦.
- ١٨ - الدروس العربية في فرنسا لكليان هوار، ترجمة: عبدالله رعد، في: مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مج ٥، ١٩٢٥.
- ١٩ - عجائب الآثار في التراجم والأخبار لعبدالرحمن الجبرتي، تحقيق: حسن محمد جوهر وآخرين، ج ٤، ط ١، لجنة البيان العربي بالقاهرة، ١٩٥٨ - ١٩٦٥.
- ٢٠ - العرب والعثمانيون للدكتور عبدالكريم رافق، دمشق، ١٩٧٤.
- ٢١ - غرائب الغرب لمحمد كرد علي، ١٩١٠.
- ٢٢ - القرآن الكريم.
- ٢٣ - قواعد تحقيق المخطوطات العربية وترجمتها لريجيس بلاشير، وجان سوفاجيه، ترجمة: د. محمود المقداد، دار الفكر المعاصر ببيروت ودار الفكر بدمشق، ١٩٨٨.
- ٢٤ - المستشرقون لنجيب العقيقي، ط ٣، دار المعارف بمصر، ١٩٦٤.
- ٢٥ - النثر الفني في القرن الرابع الهجري للدكتور زكي مبارك، ج ٢، ط ٢، المكتبة التجارية الكبرى بمصر.
- ٢٦ - يومان في باريس للدكتور فيليب حتي، في: مجلة الهلال المصرية، مج ٣٣، ١٩٢٣.
- ٢٧ - يوميات الجبرتي المعروفة بـ (مظهر التقديس في زوال دولة الفرنسيين)، دار المعارف بمصر.

ثانيا : الثانوية

- ٢٨ - أثر العرب في الحضارة الأوربية لعباس محمود العقاد، ط٧، دار المعارف بمصر، ١٩٦٩ .
- ٢٩ - تاريخ الأدب العربي لريجيس بلاشير، ترجمة : د. إبراهيم الكيلاني، ٣ ج، منشورات وزارة الثقافة بدمشق، ١٩٧٣ - ١٩٧٤ .
- ٣٠ - الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء لشارل بيلا، ترجمة : د. إبراهيم الكيلاني، دار اليقظة العربية بدمشق، ١٩٦١ .
- ٣١ - رحلة الأدب العربي إلى أوروبا لمحمد مفيد الشوباشي، دار المعارف بمصر، ١٩٦٨ .
- ٣٢ - فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية بدمشق (الطب والصيدلة) للدكتور سامي خلف حمارة، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٦٩ .
- ٣٣ - المذكرات لمحمد كردعلي، ٣ ج، مطبعة الترقى بدمشق، ١٩٤٨ .

المؤلف في سطور

* د. محمود المقداد

* ولد في مدينة بصرى (سورية) سنة ١٩٥١.

* تخرج في قسم اللغة العربية بجامعة دمشق سنة ١٩٧٤.

* حاز دبلوم الدراسات الأدبية العليا من نفس القسم سنة ١٩٧٥.

* ونال درجة الماجستير في الآداب من قسم اللغة العربية سنة ١٩٨٢، ثم درجة دكتوراه دولة في الآداب سنة ١٩٨٦.

* عمل منذ سنة ١٩٧٨ معيدا للمادة الأدب في صدر الإسلام والعصر الأموي، ومدرسا لها منذ سنة ١٩٨٦ في قسم اللغة العربية من كلية الآداب بجامعة دمشق.

* يشرف على عدد من رسائل الماجستير ويشارك في مناقشة أطروحات الماجستير والدكتوراه.

* له من المؤلفات المنشورة:

١ - الموالي ونظام الولاء من الجاهلية إلى أواخر العصر الأموي، دار الفكر بدمشق، سنة ١٩٨٨.

٢ - ترجمة كتاب (قواعد تحقيق المخطوطات العربية وترجمتها) لريميس بلاشير وجان سوفاجية (عن اللغة الفرنسية)، دار الفكر المعاصر ببيروت ودار الفكر بدمشق، سنة ١٩٨٨.



بنية الثورات العلمية

تأليف: توماس كون

ترجمة: شوقي جلال

صدر عن هذه السلسلة

- ١- الحضارة
- ٢- إتجاهات الشعر العربي المعاصر
- ٣- التفكير العلمي
- ٤- الولايات المتحدة والمشرق العربي
- ٥- العلم ومشكلات الإنسان المعاصر
- ٦- الشباب العربي والمشكلات التي يواجهها
- ٧- الأتحاف والتكتلات في السياسة العالمية
- ٨- تراث الإسلام (الجزء الأول)
- ٩- أعضاء على الدراسات اللغوية المعاصرة
- ١٠- جمحا العربي
- ١١- تراث الإسلام (الجزء الثاني)
- ١٢- تراث الإسلام (الجزء الثالث)
- ١٣- الملاحة وعلوم البحار عند العرب
- ١٤- جمالية الفن العربي
- ١٥- الإنسان الحاضر بين العلم والحرافة
- ١٦- النفط والمشكلات المعاصرة للتنمية العربية
- ١٧- الكون والتقريب السوداء
- ١٨- الكوميديا والتراجيديا
- ١٩- المخرج في المسرح المعاصر
- تأليف : د/ حسين مؤنس
- تأليف : د/ إحسان عباس
- تأليف : د/ فؤاد زكريا
- تأليف : / أحمد عبدالرحيم مصطفى
- تأليف : د/ زهير الكرمي
- تأليف : د/ عزت حجازي
- تأليف : / محمد عزيز شكري
- ترجمة : د/ زهير السهموري
- تحقيق وتعليق : د/ شاكر مصطفى
- مراجعة : د/ فؤاد زكريا
- تأليف : د/ نايف خريما
- تأليف : د/ محمد رجب النجار
- د/ حسين مؤنس
- ترجمة : د/ إحسان العمدة
- مراجعة : د/ فؤاد زكريا
- د. حسين مؤنس
- ترجمة : د/ إحسان العمدة
- مراجعة : د/ فؤاد زكريا
- تأليف : د/ أنور عبدالعليم
- تأليف : د/ عفيف بهنسي
- تأليف : د/ عبدالمحسن صالح
- تأليف : د/ محمود عبدالفضيل
- إعداد : رؤوف وصفي
- مراجعة : زهير الكرمي
- ترجمة : د/ علي أحمد محمود
- د/ شوقي السكري
- مراجعة : د/ علي الراعي
- تأليف : / سعد أردش

- ٢٠- التفكير المستقيم والتفكير الأعوج
- ترجمة حسن سعيد الكرمني
- مراجعة : صدقي حطاب
- تأليف : د / محمد علي الفراء
- تأليف : د / رشيد الحمد
- تأليف : د / محمد سعيد صباريني
- ٢١- مشكلة إنتاج الغذاء في الوطن العربي
- ٢٢- البيئة ومشكلاتها
- ٢٣- الرق
- ٢٤- الإبداع في الفن والعلم
- ٢٥- المسرح في الوطن العربي
- ٢٦- مصر وفلسطين
- ٢٧- العلاج النفسي الحديث
- ٢٨- أفريقيا في عصر التحول الاجتماعي
- ٢٩- العرب والتحديات
- ٣٠- العدالة والحرية في فجر النهضة العربية الحديثة
- ٣١- الموشحات الأندلسية
- ٣٢- تكنولوجيا السلوك الإنساني
- ٣٣- الإنسان والثروات المعدنية
- ٣٤- قضايا أفريقية
- ٣٥- تحولات الفكر والسياسة
- في الشرق العربي (١٩٣٠-١٩٧٠)
- ٣٦- الحب في التراث العربي
- ٣٧- المساجد
- ٣٨- تكنولوجيا الطاقة البديلة
- ٣٩- إرثاء الإنسان
- ٤٠- الرواية الروسية في القرن التاسع عشر
- ٤١- الشعر في السودان
- ٤٢- دور المشروعات العامة في التنمية الاقتصادية
- ٤٣- الإسلام في الصين
- ٤٤- اتجاهات نظرية في علم الاجتماع
- تأليف : د / محمد حسن سعيد الكرمني
- مراجعة : صدقي حطاب
- تأليف : د / محمد علي الفراء
- تأليف : د / رشيد الحمد
- تأليف : د / محمد سعيد صباريني
- تأليف : د / حسن أحمد عيسى
- تأليف : د / علي الراعي
- تأليف : د / عواطف عبدالرحمن
- تأليف : د / عبدالستار إبراهيم
- ترجمة : شوقي جلال
- تأليف : د / محمد عماره
- تأليف : د / عزت قرني
- تأليف : د / محمد زكريا عناني
- ترجمة : د / عبدالقادر يوسف
- مراجعة : د / رجا الدريني
- تأليف : د / محمد فتحي عوض الله
- تأليف : د / محمد عبدالغني سعوددي
- تأليف : د / محمد جابر الأنصاري
- تأليف : د / محمد حسن عبدالله
- تأليف : د / حسين مؤنس
- تأليف : د / سعود يوسف عياش
- ترجمة : د / موفق شخاشيرو
- مراجعة : زهير الكرمني
- تأليف : د / مكارم الغمري
- تأليف : د / عبده بدوي
- تأليف : د / علي خليفة الكواري
- تأليف : فهمي هويدي
- تأليف : د / عبدالباسط عبدالعطي

- ٤- حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي
٤- دعوة إلى الموسيقى
٤- فكرة القانون
- ٤- التنبؤ العلمي ومستقبل الإنسان
٤- صراع القوى العظمى حول القرن الأفريقي
٥- التكنولوجيا الحديثة والتنمية الزراعية
٥- السينما في الوطن العربي
٥- النفط والعلاقات الدولية
٥- البدائية
٥- الحشرات الناقلة للأمراض
٥- العالم بعد مائتي عام
٥- الإدمان
٥- البيروقراطية النفطية ومعضلة التنمية
٥- الوجودية
٥- العرب أمام تحديات التكنولوجيا
٦- الأيديولوجية الصهيونية (الجزء الأول)
٦- الأيديولوجية الصهيونية (الجزء الثاني)
٦- حكمة الغرب
٦- الإسلام والاقتصاد
٦- صناعة الجوع (خرافة الندرة)
٦- مدخل إلى تاريخ الموسيقى المغربية
٦- الإسلام والشعر
٦- بنو الإنسان
٦- الثقافة الألبانية في الألبانية العربية
٦- ظاهرة العلم الحديث
٧- نظريات التعلم (دراسة مقارنة)
القسم الأول
٧- الإستيطان الأجنبي في الوطن العربي
٧- حكمة الغرب (الجزء الثاني)
- تأليف : د/ محمد رجب النجار
تأليف : د/ يوسف السبيسي
ترجمة : سليم الصويص
مراجعة : سليم بيسسو
تأليف : د/ عبدالمحسن صالح
تأليف : صلاح الدين حافظ
تأليف : د/ محمد عبدالسلام
تأليف : جان ألكسان
تأليف : د/ محمد الرميحي
ترجمة : د/ محمد عصفور
تأليف : د/ جليل أبو الحب
ترجمة : شوقي جلال
تأليف : د/ عادل الدمرداش
تأليف : د/ أسامة عبدالرحمن
ترجمة : د/ إمام عبدالفتاح
تأليف : د/ انطونيوس كرم
تأليف : د/ عبدالوهاب المسيري
تأليف : د/ عبدالوهاب المسيري
ترجمة : د/ فؤاد زكريا
تأليف : د/ عبدالمهدي علي النجار
ترجمة : احمد حسان عبدالواحد
تأليف : عبدالعزيز بن عبد الجليل
تأليف : د/ سامي مكّي العاني
ترجمة : زهير الكرمي
تأليف : د/ محمد موفافكو
تأليف : د/ عبدالله العمر
ترجمة : د/ علي حسين حججاج
مراجعة : د/ عطيه محمود هنا
تأليف : د/ عبدالمالك خلف التميمي
ترجمة : د/ فؤاد زكريا

- ٧٣- التخطيط للتقدم الاقتصادي والاجتماعي
٧٤- مشاريع الاستيطان اليهودي
٧٥- التصوير والحياة
٧٦- الموت في الفكر الغربي
٧٧- الشعر الاغريقي تراثا إنسانيا وعالميا
٧٨- قضايا التبعية الإعلامية والثقافية
٧٩- مفاهيم قرآنية
٨٠- الزواج عند العرب (في الجاهلية والإسلام)
٨١- الأدب اليوغسلافي المعاصر
٨٢- تشكيل العقل الحديث
٨٣- البيولوجيا ومصير الإنسان
٨٤- المشكلة السكانية وخرافة المالتوسية
٨٥- دول مجلس التعاون الخليجي
ومستويات العمل الدولية
٨٦- الإنسان وعلم النفس
٨٧- في تراثنا العربي الإسلامي
٨٨- الميكروبات والإنسان
٨٩- الإسلام وحقوق الإنسان
٩٠- الغرب والعالم (القسم الأول)
٩١- تربية اليسر وتحلف التنمية
٩٢- عقول المستقبل
٩٣- لغة الكيمياء عند الكائنات الحية
٩٤- النظام الإعلامي الجديد
تأليف : د / مجيد مسعود
تأليف : أمين عبدالله محمود
تأليف : د / محمد نبهان سويلم
ترجمة : كامل يوسف حسين
مراجعة : د / إمام عبدالفتاح
تأليف : د / أحمد عتيان
تأليف : د / عواطف عبدالرحمن
تأليف : د / محمد أحمد خلف الله
تأليف : د / عبدالسلام الترماني
تأليف : د / جمال الدين سيد محمد
ترجمة : شوقي جلال
مراجعة : صدقي حطاب
تأليف : د / سعيد الحفار
تأليف : د / رمزي زكي
تأليف : د / بدريه العوضي
تأليف : د / عبدالستار ابراهيم
تأليف : د / توفيق الطويل
ترجمة : د / عزت شعلان
مراجعة : د / عبدالرزاق العدواني
د / سمير رضوان
تأليف : د / محمد عماره
تأليف : كافين رايلي
ترجمة : د / عبدالوهاب المسيري
د / هدى حجازي
مراجعة : د / فؤاد زكريا
تأليف : د / عبدالعزيز الجلال
ترجمة : د / لطفي فطيم
تأليف : د / أحمد مدحت إسلام
تأليف : د / مصطفى المصمودي

- ٩٥ - تغير العالم
٩٦ - الصهيونية غير اليهودية
٩٧ - الغرب والعالم (القسم الثاني)
٩٨ - قصة الأنثروبولوجيا
٩٩ - الأطفال مرآة المجتمع
١٠٠ - الوراثة والإنسان
١٠١ - الأدب في البرازيل -
١٠٢ - الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية
١٠٣ - التنمية في دول مجلس التعاون
١٠٤ - العالم الثالث وتحديات البقاء
١٠٥ - المسرح والتغير الاجتماعي في الخليج العربي
١٠٦ - «المتلاعبون بالعقول»
١٠٧ - الشركات عابرة القومية
١٠٨ - نظريات التعلم (دراسة مقارنة) (الجزء الثاني)
١٠٩ - العملية الإبداعية في فن التصوير
١١٠ - مفاهيم نقدية
١١١ - قلق الموت
١١٢ - العلم والمشتغلون بالبحث العلمي في المجتمع الحديث
١١٣ - الفكر التربوي العربي الحديث
١١٤ - الرياضيات في حياتنا
- تأليف : د / أنور عبد الملك
تأليف : ربحينا الشريف
ترجمة : أحمد عبدالله عبدالعزيز
تأليف : كافين رايلي
ترجمة : د / عبد الوهاب المسيري
د / هدى حجازي
مراجعة : د / فؤاد زكريا
تأليف : د / حسين فهمي
تأليف : د / محمد عباد الدين إسماعيل
تأليف : د / محمد علي الربيعي
تأليف : د / شاكرا مصطفى
تأليف : د / رشاد الشامسي
تأليف : د / محمد توفيق صادق
تأليف : جاك لوب
ترجمة : أحمد فؤاد بلبع
تأليف : د / إبراهيم عبد الله غلوم
تأليف : هريوت . أ . شيللر
ترجمة : عبدالسلام رضوان
تأليف : د / محمد السيد سعيد
ترجمة : د / علي حسين حجاج
مراجعة : د / عطية محمود هنا
تأليف : د / شاكرا عبدالحميد
ترجمة : د / محمد عصافور
تأليف : د / أحمد محمد عبد الخالق
تأليف : د / جون . ب . ديكنسون
ترجمة : شعبة الترجمة باليونيسكو
تأليف : د / سعيد إسماعيل علي
ترجمة : د / فاطمة عبدالقادر الما

تأليف : د / معن زيادة
تنسيق وتقديم : سيزار فرناندث مورينو
ترجمة : أحمد حسان عبدالواحد
مراجعة : د / شاكر مصطفى
تأليف : د / أسامة الغزالي حرب
تأليف : د / رمزي زكي
تأليف : د / عبدالغفار مكاوي
تأليف : د / سوزانا ميلر
ترجمة : د / حسن عيسى
مراجعة : د / محمد عماد الدين إسماعيل
تأليف : د / رياض رمضان العلمي
تنسيق وتقديم : سيزار فرناندث مورينو
ترجمة : أحمد حسان عبدالواحد
مراجعة : د / شاكر مصطفى
تأليف : د / هادي نعمان الهيتي
تأليف : د / دافيد . ف . شيهان
ترجمة : د / عزت شعلان
مراجعة : د / أحمد عبدالعزيز سلامة
تأليف : فرانسيس كريك
ترجمة : د / أحمد مستجير
مراجعة : د / عبد الحافظ حلمي
تأليف : د / نايف خرما
تأليف : د / علي حجاج
تأليف : د / إسماعيل إبراهيم درة
تأليف : د / محمد عبدالستار عثمان
تأليف : عبدالعزيز بن عبد الجليل
تأليف : د / زولت هارسياني
ترجمة : د / ريتشارد هتون
ترجمة : د / مصطفى إبراهيم فهمي
مراجعة : د / مختار الطواهري

١١٥ - معالم على طريق تحديث الفكر العربي
١١٦ - أدب أميركا اللاتينية
(قضايا ومشكلات) القسم الأول
١١٧ - الأحزاب السياسية في العالم الثالث
١١٨ - التاريخ النقدي للتخلف
١١٩ - قصيدة وصورة
١٢٠ - سيكولوجية اللعب
١٢١ - الدواء من فجر التاريخ إلى اليوم
١٢٢ - أدب أميركا اللاتينية (القسم الثاني)
١٢٣ - ثقافة الأطفال
١٢٤ - مرض القلق
١٢٥ - طبيعة الحياة
١٢٦ - اللغات الأجنبية (تعليمها وتعلمها)
١٢٧ - اقتصاديات الإسكان
١٢٨ - المدينة الإسلامية
١٢٩ - الموسيقى الأندلسية المغربية
١٣٠ - التنبؤ الوراثة

- ١٣١ - مقدمة لتاريخ الفكر العلمي في الاسلام
١٣٢ - أوروبا والتخلف في أفريقيا
- تأليف : د / أحمد سليم سعيديان
تأليف : د / والتر رودني
ترجمة : د / أحمد القصير
- مراجعة : د / إبراهيم عثمان
تأليف : د / عبدالحقاني عبدالله
تأليف : روبرت م . اغروس
جورج ن . ستانسيو
- ترجمة : د / كمال خلالي
تأليف : د / حسن نافعة
تأليف : إدوين رايشاور
ترجمة : ليل الجبالي
مراجعة : شوقي جلال
- تأليف : د / معتز سيد عبدالله
تأليف : د / حسين فهميم
تأليف : عبدالله عبدالرزاق ابراهيم
تأليف : إريك فروم
ترجمة : سعد زهران
- مراجعة : د / لطفي فطيم
تأليف : د / أحمد عثمان
إعداد : اللجنة العالمية للبيئة والتنمية
ترجمة : محمد كامل عارف
- مراجعة : علي حسين حجاج
تأليف : د / محمد حسن عبدالله
تأليف : الكسندرو روشكا
ترجمة : د / غسان عبدالحفي أبو فخر
تأليف : د / جمعة سيد يوسف
تأليف : غيورغي غاناشف
ترجمة : د / نوفل نيوف
مراجعة : د / سعد مصلوح
تأليف : د / فؤاد مُرسي
- ١٣٣ - العالم المعاصر والصراعات الدولية
١٣٤ - العلم في منظوره الجديد
- ١٣٥ - العرب واليونسكو
١٣٦ - اليابانيون
- ١٣٧ - الاتجاهات التعصبية
١٣٨ - أدب الرحلات
١٣٩ - المسلمون والاستعمار الاوربي لأفريقيا
١٤٠ - الانسان بين الجوهر والمظهر
(تتملك أو تكون)
- ١٤١ - الأدب اللاتيني (ودوره الحضاري)
١٤٢ - مستقبلنا المشترك
- ١٤٣ - الريف في الرواية العربية
١٤٤ - الإبداع العام والخاص
- ١٤٥ - سيكولوجية اللغة والمرض العقلي
١٤٦ - حياة الوعي الفني
(دراسات في تاريخ الصورة الفنية)
- ١٤٧ - الرأسالية تجدد نفسها

- ١٤٨ - علم الأحياء والأيدولوجيا والطبيعة البشرية
تأليف : ستيفن روز وآخرين
ترجمة : د / مصطفى إبراهيم فهمي
مراجعة : د / محمد عصفور
تأليف : د / قاسم عبده قاسم
١٤٩ - ماهية الحروب الصليبية
١٥٠ - حاجات الإنسان الأساسية في الوطن العربي
«الجوانب البيئية والتكنولوجيات والسياسات»
١٥١ - تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية
١٥٢ - التلوث مشكلة العصر
تأليف : د / أحمد مدحت إسلام
(ظهر هذا العدد في أغسطس ١٩٩٠، وانقطعت السلسلة بسبب
العدوان الفاشم، ثم استؤنفت في شهر سبتمبر ١٩٩١ بالعدد ١٥٣)
- ١٥٣ - الكويت والتنمية الثقافية العربية
١٥٤ - النقطة المتحولة : أربعون عاما في
استكشاف المسرح
١٥٥ - مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي
١٥٦ - الفصامي : كيف نفهمه ونساعده،
دليل للأسرة والأصدقاء
١٥٧ - الاستشراق في الفن الرومانسي الفرنسي
١٥٨ - مستقبل النظام العربي بعد أزمة الخليج
١٥٩ - فكرة الزمان عبر التاريخ
١٦٠ - إرتقاء القيم (دراسة نفسية)
١٦١ - أمراض الفقر
(المشكلات الصحية في العالم الثالث)
١٦٢ - القومية في موسيقا القرن العشرين
١٦٣ - أسرار النوم
١٦٤ - بلاغة الخطاب وعلم النص
١٦٥ - الفلسفة المعاصرة في أوروبا
تأليف : د / محمد حسن عبدالله
تأليف : بيتر بروك
ترجمة : فاروق عبدالقادر
تأليف : د / مكارم الغمري
تأليف : سيلفانو آرتي
ترجمة : د / عاطف أحمد
تأليف : د / زينات البيطار
تأليف : د / محمد السيد سعيد
ترجمة : فؤاد كامل عبدالعزيز
مراجعة : شوقي جلال
تأليف : د / عبداللطيف محمد خليفة
تأليف : د / فيليب عطية
تأليف : د / سمحة الخولي
تأليف : الكسندر بوربلي
ترجمة : د / أحمد عبدالعزيز سلامة
تأليف : د / صلاح فضل
تأليف : إ. م. بوشنسكي
ترجمة : د / عزت قرني

١٦٦- الأمومة: نمو العلاقات بين الطفل والأم تأليف: د/ فايز قنطار



سلسلة عالم المعرفة

عالم المعرفة سلسلة كتب ثقافية تصدر في مطلع كل شهر ميلادي عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت - وقد صدر العدد الأول منها في شهر يناير عام ١٩٧٨ .

تهدف هذه السلسلة إلى تزويد القارئ بمادة جيدة من الثقافة تغطي جميع فروع المعرفة ، وكذلك ربطه بأحدث التيارات الفكرية والثقافية المعاصرة . ومن الموضوعات التي تعالجها تأليفاً وترجمة :

١ - الدراسات الإنسانية : تاريخ - فلسفة - أدب الرحلات - الدراسات الحضارية - تاريخ الأفكار .

٢ - العلوم الاجتماعية : اجتماع - اقتصاد - سياسة - علم نفس - جغرافيا - تخطيط - دراسات استراتيجية - مستقبلات .

٣ - الدراسات الأدبية واللغوية : الأدب العربي - الآداب العالمية - علم اللغة .

٤ - الدراسات الفنية : علم الجمال وفلسفة الفن - المسرح - الموسيقى - الفنون التشكيلية والفنون الشعبية .

٥ - الدراسات العلمية : تاريخ العلم وفلسفته ، تبسيط العلوم الطبيعية (فيزياء ، كيمياء ، علم الحياة ، فلك) - الرياضيات التطبيقية (مع الاهتمام بالجوانب الإنسانية لهذه العلوم) والدراسات التكنولوجية . أما بالنسبة لنشر الأعمال الإبداعية - المترجمة أو المؤلفة - من شعر وقصة ومسرحية فأمر غير وارد في الوقت الحالي .

وتحرص سلسلة عالم المعرفة على ان تكون الأعمال المترجمة حديثة النشر.

وفي حال الموافقة والتعاقد على الموضوع / المؤلف أو المترجم - تصرف مكافأة للمؤلف مقدارها ألف دينار كويتي ، وللمترجم مكافأة بمعدل خمسة عشر فلساً عن الكلمة الواحدة في النص الأجنبي أو تسعمائة دينار أيهما أكثر بالإضافة إلى مائة وخمسين ديناراً كويتياً مقابل تقديم المخطوطة - المؤلفة و المترجمة - من نسختين مطبوعة على الآلة الكاتبة .



الاشتراك السنوي : وهو مقصور على الفئات التالية :

- المؤسسات والهيئات داخل الكويت ١٠ دنانير كويتية
- المؤسسات والهيئات في الوطن العربي ١٢ ديناراً كويتياً
- المؤسسات والهيئات خارج الوطن العربي ٨٠ دولاراً أمريكياً
- الأفراد خارج الوطن العربي ٤٠ دولاراً أمريكياً

الاشتراكات :

ترسل باسم الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص . ب : ٢٣٩٩٦ الصفاة/ الكويت - 13100

برقيا : ثقف - تلکس : ٤٤٥٥٤ NCCAL 44554 TLX. NO.

فاكسميلي : ٤٨٧٣٦٩٤

مطابع السياسة . الكويت

طبع من هذا الكتاب أربعون ألف نسخة

هذا الكتاب

يتتبع هذا الكتاب ما كان بين الشرق العربي والغرب الأوربي من صلات متعددة الأبعاد، تمثلت في حركة الفتوح والحروب الصليبية والحركة الاستعمارية من جهة، وفي التبادل التجاري والاحتكاك الحضاري حتى النهضة العربية الحديثة من جهة أخرى.

ويرصد الكتاب حركة انتقال المخطوطات العربية عبر القنوات والأساليب المختلفة من البلدان العربية والإسلامية إلى فرنسا، ويبرز أهم الموضوعات التي تناولتها تلك المخطوطات.

ثم يتم بدراسة إقبال بعض الفرنسيين بمبادرة فردية أو بتوجيه من الدولة على تعلم العربية، حيث كانت أولى اللغات الشرقية الحية التي يهتم بها الفرنسيون نظرا لأهميتها السياسية والاقتصادية، ويشير إلى أهم المدارس والمؤسسات العلمية والتعليمية التي أدرجت اللغة العربية ضمن اهتماماتها الأساسية. وقد تناول بالدرس والتحليل أبرز أنشطة المستعربين في ميدان تعليم العربية ووضع المناهج والطرائق لها.

وأخيرا يلقي المؤلف الضوء على خمسة أنواع من الدراسات العربية في فرنسا وهي: اللغوية والأدبية والتاريخية والإسلامية والجغرافية. وقد اختار خمسة من كبار المستعربين الفرنسيين يمثل كل منهم جانبا من جوانب الاستعراب، هم: (سلفستر دوساسي - موريث غود فروا ديمومين - غاستون فييت - ريجيس بلاشير - أندريه ميكيل).

سعر النسخة

الكويت : ٧٥٠ فلس	ليبيا : دينار واحد	اليمن : ٨٠٠ فلس
السعودية : ١٢ ريال	المغرب : ١٥ درهما	السودان : ١٠ جنيهات
الأردن : دينار واحد	تونس : دينار ونصف	البحرين : دينار واحد
سوريا : ٥٠ ليرة	الجزائر : ٢٠ دينارا	قطر : ١٠ ريالات
لبنان : ٧٥٠ ليرة	مصر : جنيهان	عمان : ريال واحد
		الإمارات المتحدة : ١٠ ريالات